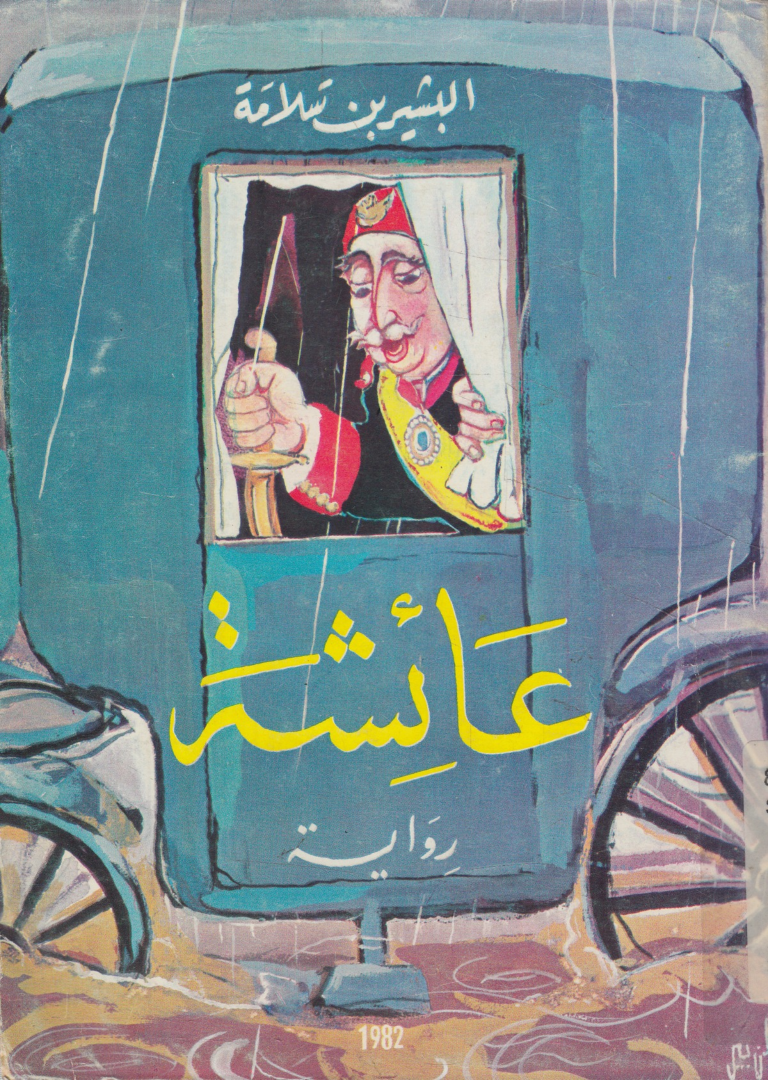

البشير بن سلامة
عائشة
رواية
1982

رسوم القصة والغلاف للفنان الزبير التركي

البشير بن سلامة



1982

إِلَى رُوحِ وَالِـدِي

مَدْخَل

« عَائِشَة » هِيَ رِوَايَةٌ قَائِمَةُ الذَّاتِ أَشْخَاصُهَا يَتَحَرَّكُونَ فِي الحَيَاةِ وَالمَوْتِ ، فِي السَّفَرِ وَالإِقَامَةِ ، فِي الشَّقَاءِ وَالسَّعَادَةِ ، فِي اللَّذَّةِ وَالأَلَمِ ضِمْنَ رُبَاعِيَّةٍ عُنْوَانُهَا « العَابِرُونَ » .

هُمْ « عَابِرُو » حَيَاةٍ لاَ هَمَّ لَهُمْ إِلاَّ عَيْشُهَا يَرْحَلُونَ عَنْهَا وَلَمْ يَتْرُكُوا شَيْئاً يُخَلِّدُ ذِكْرَهُمْ وَيَرْمُزُ الى مَآثِرِهِمْ . لِذَلِكَ أَرَدْتُ تَسْجِيلَ لَقَطَاتٍ مِنْ عُبُورِهِمْ لِهَذِهِ « الدُّنْيَا » وَهُوَ نَسِيجٌ مِنْ الخَيَالِ وَالوَاقِعِ لَسْتُ أَدْرِي هَلْ هِيَ دُنْيَاهُمْ أَمْ دُنْيَا المُخَيِّلَةِ ؟

سَتَكُونُ رُبَاعِيَّةُ « العَابِرُونَ » عَاجَّةً بِالأَشْخَاصِ وَلَكِنَّهَا سَتَسْتَقْطِبُ أَرْبَعَةً مِنْهُمْ : عَائِشَه وَعَلي وَعَادِل وَالنَّاصِر .

أشْخَاصُ الرِّوَايَةِ وَوَقَائِعُهَا مِنْ حَبْكِ الخَيَالِ وَكُلُّ شَبَهٍ بِأشْخَاصٍ وَاقِعِيِّينَ إنَّمَا هُوَ مِنْ مَحْضِ الصُّدْفَةِ طَالَمَا أنَّ النَّفْسَ البَشَرِيَّةَ فِي تَعَدُّدِهَا وَتَنَوُّعِهَا مَعْدِنٌ فَرْدٌ وَطِينَةٌ وَاحِدَةٌ

بَابُ العَرْش

حَلَّ « عَلِيّ » بِقَرْيَتِهِ لِيَزُورَ أَهْلَهُ بَعْدَ غِيَابٍ طَوِيلٍ . وَمَا أَنْ دَخَلَ مَنْزِلَ ٱلْعَائِلَةِ حَتَّى عَلِمَ بِأَنَّ « عَائِشَةَ » رَفِيقَةَ صِبَاهُ قَدْ لَبَّتْ دَاعِيَ رَبِّهَا فِي الصَّبَاحِ ٱلْبَاكِرِ مُتَخَلِّصَةً مِنَ ٱلْعَذَابِ الَّذِي ذَاقَتْ مِنْهُ ٱلْوَانًا رَغْمَ قُرْبِهَا مِنْ سِنِي الشَّبَابِ .

لَمْ يَكُنْ لِيَتَصَوَّرَ أَنَّ « عَائِشَة » ٱلْـمِمْرَاحَةَ ، ٱلْـمُقْبِلَةَ عَلَى ٱلْحَيَاةِ أَمَلاً ، وَذَكَاءً ، وَفِطْنَةً سَتَلْعَبُ بِهَا عَوَاصِفُ الدَّهْرِ بِمِثْلِ هَذِهِ السُّرْعَةِ وَبِهَذَا ٱلْعُنْفِ ٱلْـمُدَمِّرِ .

وَضَعَ يَدَهُ ٱلْيُمْنَى عَلَى مَكَانِ ٱلْقَلْبِ مِنْهُ لِيُلَاطِفَ مِن دَقَّاتِهِ ٱلْـمُسْرِعَةِ وَلَكِنَّهُ أَحَسَّ بِوَخَزَاتٍ كَأَنَّهَا وَخَزَاتُ إِبْرَةٍ تَضْرِبُ سُوَيْدَاءَ قَلْبِهِ . فَضَغَطَ بِيَدِهِ عَلَى مَوْضِعِ ٱلأَلَمِ وَأَسْكَتَهُ هَامِسًا :

ـ كَانَ أَحْرَى بِالدَّمْعِ أَنْ يَتَنَاثَرَ مُفَجِّرًا مَعَهُ هَذَا الأَلَمَ لِيَتَلاَشَى ، وَلَكِنَّ الأَلَمَ عِنْدَمَا يُدْفَنُ فِي ٱلْقَلْبِ بِهَذِهِ الصُّورَةِ هُوَ كَالْـمَيِّتِ يُوضَعُ فِي ٱلْقَبْرِ فَتَتَآكَلُهُ الدِّيدَانُ ، وَتَذْهَبُ بِكِيَانِهِ ، فَيَصِيرُ هَبَاءً . الأَلَمُ السَّاكِنُ بِالْحَيِّ كَالدُّودَةِ الآكِلَةِ لِلْمَيِّتِ كِلاَهُمَا مُتْلِفٌ لِصَاحِبِهِ . وَأَيُّ حَيٍ لاَ تَتَمَلَّكُ نَفْسَهُ عَاطِفَةُ الأَلَمِ وَتَأْسِرُهُ ، وَتَرُجُّ كِيَانَهُ رَجًّا ، كَاللَّذَّةِ تَمَامًا نَقِيضِ ٱلأَلَمِ وَعَكْسِهِ .

لَقَدْ عَرَفَ أَنَّ ٱللَّذَّةَ وَٱلأَلَمَ هُمَا اللَّذَانِ أَسَرَا كُلَّ مَنْ عَرَفَهُمْ حَوْلَهُ فِي صِغَرِهِ وَشَبَابِهِ . وَقَلَّ أَنْ وَجَدَ لِلْعَقْلِ مَكَانًا كَبِيرًا عِنْدَهُمْ . فَكَمْ هَبَّتْ رِيَاحُ ٱلأَلَمِ وَرِيَاحُ اللَّذَّةِ عَلَى مَرْكَبِ ٱلْحَيَاةِ ٱلْمُهْتَزِّ فَوْقَ لُجَجِ ٱلْعَوَاطِفِ ٱلْمُتَأَجِّجَةِ ، وَلَمْ يَجِدْ شِرَاعًا وَاحِدًا قَادِرًا عَلَى الاسْتِحْكَامِ وَكَبْحِ ٱلْجِمَاحِ بِالْعَقْلِ وَسُلْطَانِهِ .

تَوَجَّهَ رَأْسًا إِلَى « ٱلْـمَقْعَدِ » قُرْبَ مَنْزِلِهَا فَوَجَدَ أَهْلَهَا : زَوْجَهَـا الثَّانِـي وَأَبَاهَـا وَإِخْوَتَهَا فَعَزَّاهُمْ جَمِيعًا ، وَبَقِيَ هُنَاكَ يَنْتَظِرُ خُرُوجَ ٱلْجَنَازَةِ .

بَدَأَ ٱلْـمَطَرُ يَنْزِلُ رَذَاذًا ، خَفِيفًا ، مُتَقَطِّعًا ، وَهَبَّتْ رِيحٌ بَارِدَةٌ ، وَصَلَتْهُ لَفَحَاتُهَا فَضَرَبَتْ خَدَّهُ ، وَتَسَرَّبَتْ إِلَى سَاقَيْهِ ، فَأَفَاقَ مِنْ شِبْهِ غَيْبُوبَةٍ غَرِقَ فِيهَا وَاسْتَعْرَضَ أَثْنَاءَهَا فِي شَرِيطٍ سَرِيعٍ أَطْوَارَ حَيَاةِ « عَائِشَة » وَأَثَرَ عَدَدٍ مِنْ هَؤُلاَءِ ٱلْجَالِسِينَ عَلَى ٱلْكَرَاسِي فِي الاسْرَاعِ بِهَا إِلَى حَيْثُ هِيَ الآنَ : أَبُوهَـا « الطَّاهِـر » وَأَخُوهَـا « النَّاصر » وَزَوْجُهَا الثَّانِي « ٱلْـمُكَنَّز » وَابْنُ أَخِيهِ « الأَزْهَر » .

وَرَجَعَتْ إِلَيْهِ شِبْهُ ٱلْغَيْبُوبَةِ مِنْ جَدِيدٍ . وَاخْتَفَى لَدَيْهِ ، وَكَأَنَّهُ بِسِحْرِ سَاحِرٍ ، كُلُّ ٱلْجَالِسِينَ فِي « ٱلْـمَقْعَد » وَانْتَصَبَ أَمَامَـهُ « خَالِـد » زَوْجُ « عَائِشَـة » الأَوَّلُ وَالضَّابِطُ الصَّغِيرُ فِي ٱلْجَيْشِ ٱلْفِرَنْسِي ، بِقَامَتِهِ الطَّوِيلَـةِ ، وَبُدْلَتِـهِ ٱلْعَسْـكَرِيَّةِ ٱلأَنِيقَةِ ، وَبِيَدِهِ « نَافِعَة » يَهْوِي بِهَا عَلَى « سَالم » رَبِيبِ « عَائِشَة » وَهُوَ فِي زِيٍّ جُنْدِيٍّ بَسِيطٍ . وَتَلاَحَقَتِ الضَّرَبَاتُ مُدَوِّيَةً فِي أُذُنِ « عَلِي » وَتَعَالَى صُرَاخُ « سَالِم » وَلَكِنَّ « عَلِي » فَرَكَ عَيْنَيْهِ وَتَبَيَّنَ لَهُ أَنَّ الصُّرَاخَ آتٍ مِنْ دَارِ ٱلْـمَيِّتِ وَأَنَّ الضَّرَبَاتِ صَادِرَةٌ عَنِ النَّعْشِ الَّذِي كَانَ يُحَاوِلُ ٱلْقَوْمُ إِدْخَالَهُ مِنَ ٱلْبَابِ وَمِصْرَاعَاهُ يَتَلَدَّدَانِ فِي الطَّاعَةِ وَيَصُكَّانِ بِقُوَّةٍ ٱلْجِدَارَ .

وَظَهَرَ لَهُ ، عِنْدَ ذَلِكَ ، مَرَّةً أُخْرَى ، ٱلْجَالِسُونَ عَلَى ٱلْكَرَاسِي وَهُمْ وَاجِمُونَ وَلَيْسَ مِنْ حَرَكَةٍ بِهِمْ إِلاَّ نَشَاطُ الذُّبَابِ ، يَتَسَاقَطُ عَلَى الرُّؤُوسِ ، وَالأَكْتَـافِ ، وَالأُنُـوفِ ، وَالأَعْيُـنِ كَأَنَّهُ فِي عُرْسٍ ، وَالأَيْدِي تَطْرُدُهُ فِي وَقَارٍ ، وَهَيْئَةٍ مُنَاسِبَةٍ لِلْمَقَامِ . إِلاَّ « الطَّاهِر » فَقَدْ أَقْلَقَتْهُ ذُبَابَةٌ ، وَأَبَتْ إِلاَّ أَنْ تَزُورَ تَارَةً مِنْخَرَيْهِ وَطَوْرًا مَآقِيَ عَيْنَيْهِ ؛ وَكَأَنَّهَا تَتَجَسَّسُ عَلَيْهِ ، وَتُرِيدُ أَنْ تَعْرِفَ مَدَى حُزْنِهِ مِنْ دَمْعِهِ وَمُخَاطِهِ . وَكَأَنَّهُ فَطِنَ إِلَى خُزَعْبَلاَتِهَا فَتَرَصَّدَهَا وَحَرَّكَ يَدَهُ بِسُرْعَةٍ وَتَلَقَّاهَا بَعِيدًا بُعْـدًا قَلِيلاً عَنْ عَيْنَيْهِ وَقَبَضَ عَلَيْهَا قَبْضَةً هَالِكَةً . وَنَادَى عِنْدَ ذَلِكَ ٱلْـمُنَادِي إِلَى ٱلْجَنَازَةِ وَتَبِعَ النَّـاسُ النَّعْشَ إِلَى ٱلْجَبَّانَةِ .

وَلَكِنَّ « علي » لَمَحَ إِلَى جَانِبِ ٱلْـمَيِّتَةِ ، فَوْقَ النَّعْشِ ، جِسْماً آخَرَ ، صَغِيرًا ، مَلْفُوفًا ، فِي كَفَنٍ ، فَلَمْ يَـمْلِكْ نَفْسَهُ ، فَسَأَلَ أَحَدَ الأَقْرِبَاءِ عَنِ السِّرِّ فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ لَهُ :

ـ هِيَ بِنْتُ أُخْتِهَا ، مَاتَتْ فِي نَفْسِ ٱلْيَوْمِ ، وَبِنَفْسِ ٱلْـمَرَضِ ، بِالسُّلِّ عَفَانَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ . لَقَدْ كَانَتْ تُحِبُّهَا كَثِيرًا وَتَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ أَنْ تَكُونَ مَعَهَا ، وَلَبَّى اللَّهُ دُعَاءَهَا . أَمْرٌ غَرِيبٌ وَاللَّهِ .

وَسَارَ القَوْمُ بَيْنَ الأَزِقَّةِ وَالأَنْهُجِ ، حَتَّى وَصَلُوا إِلَى ٱلْـمَقْبَرَةِ ، وَتَمَّ دَفْنُ « عَائِشَةَ » وَالطِّفْلَةِ الصَّغِيرَةِ . وَوَقَفَ الأَهْلُ تَحْتَ شَجَرَةٍ يَتَقَبَّلُونَ تَعَازِيَ النَّاسِ وَانْتَظَرَ « عَلِي » بَعْضَ الوَقْتِ وَنَظَرَ إِلَى الطَّاهِرِ وَالِدِهَا فَوَجَدَهُ مُتَأَثِّرًا ، وَالذُّبَابَةُ مَا تَزَالُ تَتَرَاقَصُ أَمَامَ عَيْنَيْهِ . وَلَكِنَّهَا لاَ تَقْدِرُ عَلَى ٱلْـمُكُوثِ طَوِيلاً فِي مَآقِيهِ . فَحَرَكَةُ يَدِ الطَّاهِرِ ٱلْـمُصَافِحَةِ لِلْمُعَزِّينَ لاَ تَتْرُكُ لَهَا الْفُرْصَةَ لِلأَخْذِ بِثَأْرِ أُخْتِهَا الْـمَقْتُولَةِ مُنْذُ حِينٍ .

وَلَكِنْ مَنْ يَأْخُذُ بِثَأْرِ « عَائِشَة » بَعْدَ كُلِّ الَّذِي حَصَلَ لَهَا ؟

كُلُّ الَّذِي حَصَلَ لَهَا يَعْرِفُهُ « عَلِي » ، مَرْحَلَـةً مَرْحَلَـةً ، عِنْدَمَا قَصَّتْ عَلَيْهِ « عَائِشة » قَبْلَ عَامٍ مِنْ مَوْتِهَا مِحَنَهَا ، وَلَكِنَّهُ يَعْرِفُ دَقَائِقَ أُخْرَى ، غَابَتْ عَنْ « عَائِشَة » وَتَلَقَّفَهَا ، مِنْ هُنَا وَهُنَاكَ ، مُنْذُ أَنْ غَادَرَ وَالِدُهَا « الطَّاهِرِ » الْقَرْيَةَ ، وَاسْتَقَرَّ سَنَوَاتٍ فِي ٱلْعَاصِمَةِ ، ثُمَّ رَحَلَ عَنْهَا بِدُونِ رَجْعَةٍ .

* * *

غَادَرَ الطَّاهِرُ ٱلْقَرْيَةَ قَبْلَ ٱلْحَرْبِ ٱلْعَالَـمِيَّةِ الأُولَى بِقَلِيلٍ ، مُتَبَرِّمًا بِبَلْدَتِهِ ، مُتَشَوِّقًا إِلَى مَا يَقُصُّهُ النَّاسُ عَنْ تُونِس وَعَنِ الدِّرَاسَةِ فِي جَامِعِ الزَّيْتُونَةِ ، وَعَنِ ٱلْقُصُورِ ٱلْجَمِيلَةِ ٱلْـمُنْبَثَّةِ حَوْلَـهَا وَالْحَدَائِقِ وَٱلْـمَقَاهِي وَٱلْـمَلاَهِي .

الْقُصُورُ ٱلْجَمِيلَةُ ، طَالَـماَ حَدَّثَهُ عَنْهَا وَالِـدُهُ ، ٱلْعَـارِفُ بِالنَّـاسِ وَأُمُورِهِـمْ ، وَجَلِيسُ ٱلْعُظَمَـاءِ عِنْدَمَا يَزُورُ تُونِسَ .

ٱلْعُظَمَـاءُ ، كَيْفَ خَلَقَهُمُ اللَّهُ ؟ وَمِنْ أَيَّةِ طِينَةٍ هُمْ ؟ لاَبُدَّ أَنَّ اللَّهَ فَضَّلَهُمْ عَلَى عِبَادِهِ الآخَرِينَ ، هَذِهِ السَّوَائِمِ ٱلْعَائِشَةِ مَعَ ٱلْبَهَائِمِ ، وَهَذِهِ الصُّخُورِ ٱلْجَالِسَةِ تَحْتَ ٱلْجُدْرَانِ « القَوَّاسِي » كَمَا كَانَ يُسَمِّيهِمْ عَمُّهُ ، الْعِمْلاَقُ الَّذِي عَمِلَ ضَابِطًا بِعَسْكَرِ الْبَايِ . فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى قَرْيَتِهِ كَانَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ نِظْرَةَ الاحْتِقَارِ وَالاشْمِئْزَازِ . أَلَمْ يَشْرَبِ الْخَمْرَةَ يَوْمًا حَتَّى السُّكْرِ ثُمَّ مَرَّ بِـهَؤُلاَءِ ٱلْجَالِسِينَ عَلَى قَارِعَـةِ الطَّـرِيقِ وَحَدَّثَتْهُ نَفْسُهُ أَنْ يَتَبَوَّلَ فَطَاوَعَهَا فَنَهَرَهُ الْبَعْضُ قَائِلاً :

ـ النَّاسُ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ . أَلاَ تَسْتَحِي ؟!

فَأَجَابَ :

ـ إِنَّ هَؤُلاَءِ لَيْسُوا بِنَاسٍ ، إِنَّهُمْ « قَوَّاسِي » .

كَانُوا يَهَابُونَ بَطْشَهُ وَيَتَّقُونَ شَرَّهُ . إِنَّهُ صَدِيقُ الْحُكَّامِ وَجَلِيسُهُمْ وَٱلْوَيْلُ لِـمَنْ يَشْكُوهُ إِلَى السُّلْطَةِ ... إِنَّهُ عَرَفَ تُونِسَ وَرِجَالَـهَـا ، وَمِـنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ خَامَـرَتْ « الطَّاهِر » فِكْرَةُ الرَّحِيلِ . وَلِـمَاذَا لاَ يَشُدُّ عَصَا التَّرْحَالِ إِلَيْهَا ؟ وَلَكِنْ كَيْفَ يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ ؟ وَلَيْسَ لَهُ مَالٌ يَدْفَعُهُ لِرُكُوبِ ٱلْقِطَارِ وَحَتَّى « الكَرِّيطَةِ » وَأَبُوهُ ! مَاذَا سَيَقُولُ لَهُ وَهُوَ لاَ يَزَالُ فِي السَّنَةِ الرَّابِعَةِ مِنَ التَّعْلِيمِ الابْتِدَائِيِّ .

ـ الرَّابِعَةُ مِنَ التَّعْلِيمِ الابْتِدَائِيِّ . كَرَّرَهَا مَرَّاتٍ عَدِيدَةً ، وَتَذَكَّرَ أَنَّ عُمْرَهُ يُنَاهِزُ الْخَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً . قَالَ فِي نَفْسِهِ : مَا ٱلْفَائِدَةُ مِنَ الْبَقَاءِ هُنَا ، وَكُلُّ الَّذِينَ غَادَرُوا الْقَرْيَةَ أَصْبَحُوا مُهَابِينَ ، حَتَّى السُّلْطَةُ تَهَابُهُمْ وَلَوْ بَالُـوا أَمَـامَ النَّـاسِ ... وَلَـوْ عَرْبَدُوا ... حَتَّى « الْـمَشَائِخُ » يُحَاوِلُونَ تَحَاشِيَهُمْ . وَلِمَاذَا يُرِيدُونَ مِنِّي أَنْ أَبْقَى هُنَا ؟ أَلِلْمِحْرَاثِ أَوِ الْـمِسْحَاةِ أَوِ الاتِّكَاءِ عَلَى ٱلْـجُدْرَانِ ؟ سَوْفَ أُرِيهِمْ جَمِيعًا كَيْفَ تَفْعَلُ الرِّجَالُ ، وَسَأَعُودُ إِلَيْهِمْ وَأَكُونُ أَعْظَمَ مِنْ عَمِّي ، أَحْمِلُ مِثْلَهُ مُسَدَّسًـا فِي جَيْبِي ، وَٱلْوَيْلُ لِمَنْ تُـحَدِّثُهُ نَفْسُهُ بِـمُعَاكَسَتِي .

ـ لَوْ كَانَ لِي مُسَدَّسٌ لَقَضَيْتُ بِهِ عَلَى ذَلِكَ ٱلْـمُدِيرِ « الرُّومِي » الَّذِي يُضَيِّعُ لَنَا

وَقْتَنَا وَيَقْضِي غَالِبَ ٱلْيَوْمِ فِي مَكْتَبِ البَرِيدِ يُسَيِّرُهُ « كَقَابِضٍ » . وَلَكِنْ لاَ أُرِيدُ أَنْ أَدْخُلَ مِثْلَ ابْنِ عَمِّي إِلَى تُونِسَ وَأَنَا فِي الأَغْلاَلِ ، لَقَدْ تَمَنَّى عَلَى اللَّهِ أَنْ يَرَى الْعَاصِمَةَ وَلَوْ فِي الْقُيُودِ فَاسْتَجَابَ اللَّهُ لِدُعَائِهِ . وَيَا لَيْتَهُ تَمَنَّى شَيْئًا آخَرَ ، « فَبَابُ الْعَرْشِ » كَانَ لَهُ مَفْتُوحًا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ . يَا لَسَخَافَةِ عَقْلِ ابْنِ عَمِّي . أَمَّا أَنَا...

* * *

وَضَعَ « الطَّاهِر » خُطَّةً مُحْكَمَةً تُقْصِيهِ مِنَ الْمَدْرَسَةِ ، وَتُوَفِّرُ لَهُ الْمَالَ لِلسَّفَرِ إِلَى تُونِسَ . وَاخْتَارَ ٱلْيَوْمَ الَّذِي يَتَغَدَّى فِيهِ ٱلْمُدِيرُ مَعَ صَدِيقِهِ ، وَيُكْثِرُ مِنْ شُرْبِ ٱلْخَمْرِ إِلَى دَرَجَةِ النَّوْمِ فِي الْقِسْمِ فَيَصِيرُ فِي أَعْيُنِ التَّلاَمِيذِ مِنْ أَكْرَهِ النَّاسِ وَأَمْقَتِهِمْ .

قَالَ « الطَّاهِر » لِلِدَاتِهِ :

- أَلاَ تَرَوْنَ أَنَّ هَذَا الْمُدِيرَ يُضَيِّعُ عَلَيْنَا وَقْتَنَا وَيَأْتِينَا إِلَى الْقِسْمِ وَهُوَ سَكْرَانُ . أَلَيْسَ هَذَا إِعْتِدَاءً صَارِخًا عَلَيْنَا ؟

- نَعَمْ ... هُوَ إِحْتِقَارٌ لَنَا .

- فَلِمَاذَا لاَ نَشْكُوهُ إِلَى رَئِيسِهِ ... إِنَّ لَهُ رَئِيسًا ؟

- نَشْكُوهُ .

- وَكَيْفَ ؟

- نَكْتُبُ رِسَالَةً وَنَبْعَثُهَا إِلَى مُدِيرِ التَّعْلِيمِ . وَاخْتَارَ التَّلاَمِذَةُ مِنْ بَيْنِهِمْ مَنْ هُوَ أَقْدَرُ عَلَى ٱلْكِتَابَةِ بِالْفَرَنْسِيَّةِ وَبَعَثُوا بِالرِّسَالَةِ مِنَ الْغَدِ . وَبَقِيَ « الطَّاهِر » يَنْتَظِرُ رَدَّ ٱلْفِعْلِ .

إِنْتَظَرَ أُسْبُوعًا بِكَامِلِهِ ، أَمْكَنَ لَهُ ، أَثْنَاءَهُ ، تَنْفِيذُ الْجَانِبِ الآخَرِ مِنْ خُطَّتِهِ وَهُوَ جَمْعُ ٱلْمَالِ . كَانَ مِنَ الْيَسِيرِ عَلَيْهِ أَنْ يَلْتَحِقَ بَعْدَ الدَّرْسِ « بِالْخَدَّامَةِ » فِي

غَابَةِ الزَّيْتُونِ ، وَأَنْ يَلْتَقِطَ مَا يُخَلِّفُونَهُ ، أَوْ يَجُودُونَ بِهِ عَلَيْهِ مُقَابِلَ إِعَانَتِهِ لَـهُمْ . وَتَجَمَّعَ لَهُ مِنْ ذَلِكَ مَا يَرْبُو عَنِ السِّتِّينَ فَرَنْكًا . كَانَ يَتَلَمَّسُهَا فِي جَيْبِ « كَدْرُونِهِ » فِي صُرَّةٍ مُحْكَمَةِ الرَّبْطِ ، بَيْنَ دَرْسِ الْحِسَابِ وَالْقِرَاءَةِ . وَكَمْ كَانَ يَلَـذُّ لَهُ دَرْسُ الْحِسَابِ فِي تِلْكَ الأَيَّامِ ، وَلَكِنَّ حِسَابًا آخَرَ لَمْ يَقْرَأْهُ . فَبَيْنَمَـا هُوَ مُنْشَغِلٌ بِجَسِّ « الصَّوَارِدِ » إِذْ بِبَابِ الْقِسْمِ يُفْتَحُ وَيَدْخُلُ مِنْهُ رَجُلٌ مَدِيدُ الْقَامَةِ يَلْبَسُ لِبَاسًا أُورُوبِيًّا ، وَعَلَى رَأْسِهِ قُبَّعَةٌ ، مَا أَنْ صَافَحَ الْـمُدِيرَ حَتَّى وَضَعَهَا عَلَى ٱلْـمَكْتَبِ هِيَ وَمِحْفَظَةً أَنِيقَةً وَأَخْرَجَ مِنْهَا وَرَقَةً وَأَخَذَ يَسْرُدُ أَسْمَاءً :

ـ « الطَّاهِر » كَذَا ... عَلِي كَذَا ... الـخ ... كُلُّ الأَسْـمَـاءِ ٱلْـمُمْضِيَةِ فِي الْعَرِيضَةِ . وَخَرَجَ أَصْحَابُ هَذِهِ الأَسْـمَـاءِ مِنَ ٱلْقِسْـمِ بِأَمْـرٍ مِنَ الْـمُتَفَقِّـدِ فِي لَـهْجَةٍ ، صَارِمَةٍ وَلَكِنَّ قَلْبَ « الطَّاهِر » كَانَ يَطِيرُ فَرَحًـا لأَنَّ سَاعَـةَ الانْعِتَـاقِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ تَدْنُو بِسُرْعَةٍ فَائِقَةٍ .

وَبَدَأَ الاسْتِنْطَاقُ ، عَنِيفًا ، مِلْحَاحًا ، مُوَجَّهًا إِلَى إِدَانَةِ التَّلاَمِذَةِ أَكْثَرَ مِنْهُ إِلَى الْبَحْثِ عَنِ الْحَقِيقَةِ . وَأَيُّ حَقِيقَةٍ تُرْجَى مِنْ وَرَاءِ هَؤُلاَءِ الْعَرَبِ ٱلْكَذَّابِينَ الأَفَّاكِينَ فِي نَظَرِ أَسْيَادِ الْبِلاَدِ « وَٱلْـحَامِينَ » لَهَا .

قَالَ « الطَّاهِر » فِي نَفْسِه :

ـ لَوْ تَنْكَشِفُ الْـحَقِيقَةُ لَفَسَدَتْ ٱلْـخُطَّةُ وَلَكِنْ أَيْنَ الانْصَافُ عِنْدَ هَؤُلاَءِ ؟ إِنَّ ظُلْمَهُمْ مَعْرُوفٌ وَإِنِّي أَطْلُبُ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَبْقَوْا فِي ضَلاَلِـهِمْ وَإِلاَّ كَيْفَ الْعَمَلُ لِلْخُرُوجِ مِنَ ٱلْوَرْطَةِ ؟

صَاحَ ٱلْـمُتَفَقِّدُ فِي « الطَّاهِر » قَائِلاً :

ـ كَيْفَ تَتَجَرَّأُ وَتَتَّهِمُ مُدِيرَكَ بِالتَّقَاعُسِ وَٱلْحَالُ أَنَّ الرِّسَالَةَ مَكْتُوبَةٌ بِلُغَةٍ فَرَنْسِيَّةٍ صَحِيحَةٍ . لَوْلاَ حَزْمُ ٱلْـمُدِيرِ لَـمَا وَصَلْتُمْ إِلَى هَذِهِ الدَّرَجَةِ مِنَ التَّعْبِـيرِ وَلَبَقِيتُـمْ أُمِّيِيـنَ ، لاَ تَعْرِفُونَ إِلاَّ « الْـهَبْهَبَةَ » فِي ٱلْكُتَّابِ وَمَـحْوَ الأَلْوَاحِ فِي الأَوْسَاخِ ،

وَشَمَّ بَعْضِكُمْ لِفُسَاءِ بَعْضٍ فَوْقَ الْحُصُرِ الْمَلِيئَةِ بِالْبَرَاغِيثِ . أَنْتُمْ لاَ تَعْتَرِفُونَ بِالْجَمِيلِ وَتَتَنَكَّرُونَ لِرِسَالَةِ فَرَنْسَا التَّمَدُّنِيَّةِ . إِنَّكُمْ سَتُطْرَدُونَ .

قَالَ « الطَّاهِرِ » فِي نَفْسِهِ :

ـ الآنَ بَلَغْتُ الْمَقْصُودَ .

وَأَرْدَفَ الْمُتَفَقِّدُ :

ـ وَلَكِنَّكُمْ سَتُسْجَنُونَ حَتَّى يَكُونَ لَكُمْ السِّجْنُ دَرْسًا فِي حَيَاتِكُمْ فَلاَ تُفَكِّرُوا أَبَدًا فِي الْعِصْيَانِ ، إِنَّ فَرَنْسَا قَوِيَّةٌ ...

قَالَ « الطَّاهِرِ » بِلَهْجَةٍ حَادَّةٍ :

ـ وَلَكِنْ مَاذَا فَعَلْنَا حَتَّى نُسْجَنَ ؟ .

ـ وَقَاحَةٌ . سَتَرَى مَاذَا فَعَلْتَ .

وَخَطَرَتْ بِبَالِ « الطَّاهِرِ » صُورَةُ ابْنِ عَمِّهِ ، وَهْوَ يَدْخُلُ تُونِسَ فِي الأَغْلاَلِ وَقَالَ فِي نَفْسِهِ :

نَعَمْ كُلُّنَا سُخَفَاءُ ، ضُعَفَاءُ ... نَعَمْ خُلِقْنَا لِنَكُونَ كَذَلِكَ . « الرُّومِي » خَلَقَهُ اللَّهُ لِيَكُونَ سَيِّدًا وَأَهْلُ تُونِسَ جَعَلَهُمْ اللَّهُ عُظَمَاءَ أَمَّا نَحْنُ فَإِنَّنَا خُلِقْنَا عِنْدَمَا أُغْلِقَ « بَابُ الْعَرْشِ » كَمَا تَقُولُ جَدَّتِي .

وَسِيقَ الْجَمَاعَةُ إِلَى الْبُرْجِ وَبَقُوا فِي سَاحَتِهِ يَوْمًا وَلَيْلَةً ثُمَّ أُخْلِيَ سَبِيلُهُمْ .

* * *

لَمْ يَبْقَ « لِلطَّاهِرِ » إِلاَّ أَنْ يُنَفِّذَ خُطَّتَهُ وَأَنْ يُعْلِمَ أُمَّهُ بِأَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى تُونِسَ لِيُشَارِكَ فِي اِمْتِحَانٍ يُنْجِيهِ عِنْدَ النَّجَاحِ مِنَ « النُّزُولِ » بِالْعَسْكَرِ . وَالنُّزُولُ بِالْعَسْكَرِ هُوَ أَعْظَمُ مَا يُصِيبُ أُمًّا فِي وَلَدِهَا . لَيْسَتِ الأُمَّهَاتُ التُّونِسِيَّاتُ جَمِيعُهُنَّ يُصَبْنَ بِهَذِهِ الْكَارِثَةِ فِي أَوْلاَدِهِنَّ لأَنَّ كُلَّ مُتَحَصِّلٍ عَلَى الشَّهَادَةِ الابْتِدَائِيَّةِ هُوَ مُعْفًى مِنَ الْجُنْدِيَّةِ وَكُلَّ الشُّبَّانِ الْمَوْلُودِينَ فِي خَمْسِ مُدُنٍ أَوْ سِتٍّ مِنَ « الايَالَةِ التُّونِسِيَّةِ » لاَ يُدْعَوْنَ إِلَى الْعَسْكَرِ : تُونِسُ الْعَاصِمَةُ ، وَسُوسَةُ ،

وَالْقَيْرَوَانُ ، وَصَفَاقُسُ ، وَالْـمُنَسْتِيرُ .

وَخَوْفُ « الطَّاهِرِ » الأَكْبَرُ هُوَ أَنْ يَفْطَنَ إِلَى ذَلِكَ وَالِدُهُ لأَنَّهُ يَعْرِفُ أَنْ لاَ نَصِيبَ لِـهَذَا الامْتِحَانِ مِنَ الصِّحَّةِ وَلَكِنَّ نَصِيبَ حِيلَتِهِ مِنَ النَّجَاحِ كَبِيرٌ لأَنَّ وَالِدَهُ كَثِيرُ التَّرْحَالِ ، لاَ يَسْتَقِرُّ بِالْبَلْدَةِ وَخَاصَّةً فِي مَوْسِمِ الزَّيْتُونِ .

أَدَارَ مِزْلاَجَ الْبَابِ الصَّغِيرِ فِي الرِّتَاجِ وَدَفَعَ الْبَابَ فَانْفَتَحَ لَهُ فِي صَوْتٍ يُشْبِهُ خُوَارَ ثَوْرٍ . تَعَوَّدَ « الطَّاهِرِ » بِذَلِكَ وَتَعَوَّدَ أَهْلُ الدَّارِ وَاسْتَطَابُوا هَذَا الصَّوْتَ الْمُنَبِّهَ الْمُعَوِّضَ لِلطَّرْقِ . وَدَخَلَ فَتَلَقَّاهُ نَهِيقُ الْحِمَارِ الْـمَرْبُوطِ فِي رُكْنٍ مِنْ أَرْكَانِ الْبَهْوِ . فَلَعَنَ الشَّيْطَانَ وَنَهَرَ الْحِمَارَ وَتَطَيَّرَ مِنَ الْـمَوْقِفِ . وَاتَّجَهَ نَحْوَ وَسَطِ الدَّارِ غَيْرِ الْـمُبَلَّطِ .

وَلَكِنَّ أُمَّهُ تَلَقَّتْهُ بِالتَّرْحَابِ وَالزَّغْرَدَةِ بَعْدَ أَنْ عَلِمَتْ بِإِطْلاَقِ سَرَاحِهِ مِنَ السِّجْنِ وَنَسِيَ نَهِيقَ الْحِمَارِ وَقَبَّلَ وَالِدَتَهُ وَعَانَقَهَا طَوِيلاً .

لَعَلَّهُ الْخَوْفُ مِنَ الْفِرَاقِ وَتَوَقِّي اللَّحْظَةَ الَّتِي سَيُغَادِرُ فِيهَا بَلْدَتَهُ . وَلَكِنَّهُ لَطَالَمَا وَجَدَ الدِّفْءَ عِنْدَ أُمِّهِ وَظَفَرَ بِالطُّمَأْنِينَةِ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ الَّذِي يُخَبِّئُ لَهُ الْوَيْلاَتِ . كُلُّ شَيْءٍ لاَ يَبْعَثُ عَلَى الارْتِيَاحِ : الْحَيَاةُ فِي الْقَرْيَةِ ، وَالْـمَصَائِبُ الْـحَافَّةُ بِهَا ، وَالْحِكَايَاتُ الْمُحْزِنَةُ الْمُتَلَقَّفَةُ مِنْ أَفْوَاهِ النَّاسِ . كُلُّ هَذَا يُصَوِّرُ لَهُ الْـمُسْتَقْبَلَ حَالِكًا كَهَذِهِ الدَّجَاجَةِ السَّوْدَاءِ الَّتِي تَجْهَدُ فِي أَنْ يَصِلَ مِنْقَارُهَا إِلَى مَا فِي « الْعَجَّانِي » مِنْ عَجِينٍ أُعِدَّ « لِـحَمْيِ » الْـخُبْزِ فِي « الطَّابُونَةِ » . إِنَّهَا تَبْدُو لَهُ وَكَأَنَّهَا الْغُرَابُ فِي هُجُومِهِ عَلَى الْجِسْمِ الَّذِي فَارَقَتْهُ الرُّوحُ يَنْهَشُهُ نَهْشًا وَيُـحِيلُهُ عَظْمًا . لَكَأَنَّهُ الْقَبْرُ يَحْتَضِنُ الْـمَيِّتَ فَيُنْسِيهِ بِأَكْلِ لَحْمِهِ وَدَمِهِ عَذَابَ الدُّنْيَا وَآلاَمَ الْـجُرُوحِ الَّتِي أَثْخَنَتْ الْـجَسَدَ (؟) .

رَأَى الدَّجَاجَةَ السَّوْدَاءَ مِنْ فَوْقِ كَتِفِ أُمِّهِ ، وَهُوَ يُعَانِقُهَا ، وَأَطَالَ عِنَاقَهَا وَأَحَسَّ بِأَنَّهَا تَبْكِي ، فَوَاجَهَهَا بِالْـمُوَاسَاةِ وَمَسَحَ أَدْمُعَهَا وَقَالَ :

ـ لاَ تَبْكِي يَا أُمِّي ، فَإِنَّ ابْنَكِ مُسْتَعِدٌّ لِيَخُوضَ الْحَيَاةَ شُجَاعًا مِقْدَامًا كَجَدِّهِ تَمَامًا .

ـ وَلَكِنَّ ٱلْحَيَاةَ صَعُبَتْ ، وَالأَخْطَارَ تَعَدَّدَتْ ، وَأَنَا أَخَافُ عَلَيْكَ مِنَ « الرّومِي » وَمِنَ « النُّزُولِ فِي الْعَسْكَرِ » . « الرُّومِي » لاَ يَرْحَمُكَ يَا وَلَدِي . يَقُولُونَ إِنَّ فَرَنْسَا تُجَنِّدُ أَوْلاَدَ النَّاسِ مِنَ « التَّوَانِسَة » لِتَدْفَعَهُمْ إِلَى ٱلْحَرْبِ فِي الصَّفِّ الأَوَّل لِيَحْصِدَهُمْ الْمَوْتُ حَصْدًا .

ـ لاَ تَخَافِي يَا أُمِّي فَأَنَا سَأَذْهَبُ إِلَى تُونِسَ لأُجْرِيَ اِمْتِحَانًا يَقِينِي مِنَ الدُّخُولِ إِلَى الْجُنْدِيَّةِ .

ـ إِلَى تُونِسَ ؟

ـ نَعَمْ .

ـ وَمِنْ أَيْنَ ثَمَنُ التَّذْكِرَةِ ؟

ـ أَنَا دَبَّرْتُ الأَمْرَ .

ـ وَأَبُوكَ ؟

ـ سَأَرْجِعُ مِنْ تُونِسَ قَبْلَ مَجِيئِهِ وَهْوَ لاَ يَسْأَلُ عَنِّي فِي ٱلْعَادَةِ . أُسْبُوعٌ وَاحِدٌ فَقَطْ .

ـ يَا لَيْتَكُمْ أَيُّهَا الأَوْلاَدُ تَبْقَوْنَ صِغَارًا نَحْتَضِنُكُمْ نَحْنُ الأُمَّهَاتِ كَالدَّجَاجَةِ تَحْتَضِنُ فِرَاخَهَا . وَلَكِنْ مَا لَنَا حِيلَةٌ .

وَأَخَذَتْ أُمُّهُ تَبْكِي وَرَجَعَتْ إِلَى مُعَانَقَتِهِ بِشِدَّةٍ حَتَّى آلَمَهُ « ٱلْخَلاَل » الَّذِي يَشُدُّ « مَلْيَتَهَا » عَلَى صَدْرِهَا فَتَأَلَّمَ بِلُطْفٍ وَفَهِمَتْ أُمُّهُ ذَلِكَ فَأَطْلَقَتْ سَبِيلَهُ وَأَمْسَكَتْ بِيَدَيْهِ وَقَرَّبَتْهُ إِلَيْهَا وَأَخَذَتْ تُقَبِّلُهُ بَاكِيَةً مِنْ جَدِيدٍ .

لَمْ يَعُدْ « الطَّاهِر » يَشْعُرُ بِمَا كَانَ يَشْعُرُ بِهِ قَبْلَ ذَلِكَ : تَصْمِيمًا عَلَى مُغَادَرَةِ ٱلْقَرْيَةِ وَالاِلْقَاءِ بِنَفْسِهِ فِي مُغَامَرَةٍ لاَ يَعْرِفُ مَآلَهُ فِيهَا . فَهَذِهِ أُمُّهُ تَشُدُّهُ إِلَيْهَا ، أَيْ

إِلَى الْقَرْيَةِ ، وَتُزَعْزِعُ عَزْمَهُ ، وَتَتْرُكُهُ مُمَزَّقًا بَيْنَ الْبَقَاءِ وَالرَّحِيلِ . إِنَّهُ يُحِبُّ أُمَّهُ حُبًّا شَدِيدًا وَيَعْمَلُ جَاهِدًا لِلتَّرْوِيحِ عَنْهَا ، وَتَفْرِيجِ كُرْبَتِهَا مِنَ الْعَنَتِ الَّذِي يُصِيبُهَا مِنْ دَارِ « الْجَمَاعَة » وَتَعْقِيدِ الْحَيَاةِ فِيهَا ، وَمِنْ قَسْوَةِ وَالِدِهِ وَغِلْظَتِهِ وَجَبَرُوتِهِ .

وَلَكِنْ مَاذَا يُفِيدُ بَقَاؤُهُ ؟ وَهُوَ الَّذِي لاَ يَقْدِرُ عَلَى تَحْوِيلِ مَجْرَى الأُمُورِ وَإِصْلاَحِ مَا يُصِيبُ أُمَّهُ مِنْ جَوْرِ الْعَائِلَةِ . إِنَّ غَايَةَ مَا يَسْتَطِيعُهُ هُوَ أَنْ يُخَفِّفَ مِنَ الْكَابُوسِ الْجَاثِمِ عَلَيْهَا ، وَيُسَرِّيَ عَنْهَا وَيُضْحِكَهَا بِلَطَائِفِهِ الَّتِي يَلْتَقِطُهَا مِنْ هُنَا وَهُنَاكَ ، وَيُجَمِّلُهَا ، وَيُتْقِنُ الْقَوْلَ فِيهَا حَتَّى يَشْعُرَ أَنَّ لَهُ قُدْرَةً عَجِيبَةً عَلَى حِذْقِ فَنِّ الْحِكَايَةِ وَتَنْمِيقِهِ .

إِنَّهُ لاَ مَحَالَةَ سَيُحْرَمُ مِنَ النَّظَرِ إِلَى أُمِّهِ وَمِنْ مُتْعَةِ تَوْشِيحِ الأَخْبَارِ ،وَسَتُمْنَعُ عَلَيْهِ أُمُّهُ بِالْفِرَاقِ وَالْبُعْدِ وَتَفْقِدُ ذَاكَ الْحَنَانَ الْغَامِرَ لِقَلْبِهَا عِنْدَ رُؤْيَتِهِ وَالاسْتِمَاعِ إِلَى حَدِيثِهِ . عُزْلَةٌ وَاحِدَةٌ سَتَنْشَطِرُ كُتْلَتَيْنِ تَتَبَاعَدَانِ وَتَتَبَاعَدَانِ إِلَى حِينٍ أَوْ إِلَى الأَبَد ، فَيُكْتَبُ لَهُمَا إِمَّا الالْتِئَامُ مِنْ جَدِيدٍ أَوِ الْفِرَاقُ الدَّائِمُ .

فَلْيَكُنْ إِذَنْ الانْشِطَارُ . وَصَمَّمَ عَلَى ذَلِكَ تَصْمِيمًا . وَلَكِنَّ قَلْبَهُ بَقِيَ صَامِدًا وَأَحَسَّ بِهِ قَوِيًّا فِي صَلاَبَةِ الْحَجَرِ . وَقَرَّرَ الرَّحِيلَ مَهْمَا كَلَّفَهُ ذَلِكَ مِنْ أَخْطَارٍ .

* * *

الْقِطَارُ سَيُقْلِعُ عَلَى السَّاعَةِ الْعَاشِرَةِ صَبَاحًا . وَعَلَى « الطَّاهِر » أَنْ يَقْطَعَ مَسَافَةَ اثْنَيْ عَشَرَ كِيلُومِتْرًا رَاجِلاً . اِلْتَقَى مَعَ ابْنِ عَمِّهِ « عَبْد اللَّه » فِي الْمَكَانِ الْمُقَرَّرِ قَبْلاً . وَسَارَا مَعًا فِي اتِّجَاهِ الْمَحَطَّةِ ، وَالشَّمْسُ مَا تَزَالُ نَائِمَةً وَرَاءَ الزَّيَاتِينِ الْمُصْطَفَّةِ ، الْخَضْرَاءِ ، الدَّاكِنَةِ . وَالْجَوُّ فِيهِ نَوْعٌ مِنَ النَّدَى الْعَطِرِ الْمُنْبَعِثِ مِنَ الْحَشَائِشِ وَكَأَنَّهُ اسْتَعَدَّ لاِسْتِقْبَالِ أَشِعَّةِ الشَّمْسِ ، وَأَسْرَعَ لِلارْتِوَاءِ مِنْ لُيُونَةِ اللَّيْلِ قَبْلَ أَنْ تُبَدِّدَهَا الْحَرَارَةُ .

لاَ نَأمةَ فِي الطَّرِيقِ اللَّهُمَّ إلاَّ نُبَاحُ ٱلْكِلاَبِ الْبَعِيدَةِ . كِلاَبُ الطَّرِيقِ أعَدَّ لَهَا « الطَّاهِر » عَصًا غَلِيظَةً وَضَعَهَا عَلَى كَتِفِهِ وَعَلَّقَ فِي طَرَفِهَا قُفَّتَهُ ٱلْخَفِيفَةَ ٱلْوَزْنِ : فِيهَا بُرْنُسٌ وَقَمِيصٌ وَسِرْوَالٌ وَحِذَاءٌ وَخُبْزَةُ « طَابُونَة » وَ « حُكَّةٌ » مِنَ الزَّيْتُونِ « وَبَسِيسة » أمَّا جُبَّتُهُ مِنَ ٱلْكَتَّانِ الأبْيَضِ فَقَدْ لَبِسَهَا بَيْنَمَا وَضَعَ تَحْتَ إبِطِهِ « بَلْغَتَهُ » وَسَارَ حَافِيَ ٱلْقَدَمَيْنِ .

مَشَيَا مَسَافَةً طَوِيلَةً وَلَمْ يَنْبِسْ وَاحِدٌ مِنْهُمَا بِكَلِمَةٍ . وَلَكِنَّ قَلْبَيْهِمَا كَانَا فِي حَدِيثٍ مُسْتَرْسَلٍ :

ـ لَوْلاَكَ يَا « طَاهر » لَمَا أقْدَمْتُ عَلَى الْهُرُوبِ مِنْ حَيَاةِ الذُّلِّ وَٱلْعُبُودِيَّةِ الَّتِي أحْيَاهَا . إنَّ عَيْشِي مُقْتَرِنٌ بِالْبَغْلِ وَ « الْكَرِّيطَة » وَلَكِنَّ ٱلْبَغْلَ وَ « الكَرِّيطة » يَجِدَانِ مَكَانًا فِي مَنْزِلِ أعْمَامِي أمَّا أنَا ٱلْيَتِيمُ فَمَكَانِي فِي ٱلْمَقْهَى أبِيتُ فِيهِ وَأسْكُنُ وَفِي النَّهَارِ يَنْحَصِرُ عَالَمِي فِي الطَّرِيقِ وَغَابَةِ الزَّيْتُونِ وَجَمْعِ « الخَدَّامَة » .

ـ لَسْتُ أدْرِي كَيْفَ صَبَرْتَ يَا « عبد اللّه » عَلَى هَذِهِ ٱلْحَيَاةِ . وَالْحَالُ أنَّ أُخْتَكَ تَسْكُنُ بِتُونِسَ وَطَالَمَا دَعَاكَ زَوْجُهَا لِلْعَمَلِ بِجَانِبِهِ . وَلَكِنَّكَ خَمُولٌ يَا « عَبْدَ اللّه » وَتَتَعَلَّلُ دَائِمًا بِأنَّهُ لَيْسَ لَكَ مَالٌ لِلسَّفَرِ . إنَّكَ دَائِمًا تَحْتَاجُ إلَى مَنْ يَدْفَعُكَ دَفْعًا . وَقَدْ وَجَدْتُ لَكَ ٱلْحَلَّ بِبَيْعِ « حَرَامِك » وَهُوَ غِطَاؤُكَ الْوَحِيدُ فِي ٱشْتِدَادِ ٱلْبَرْدِ ، وَأثْنَاءَ النَّوْمِ أوِ ٱلْيَقَظَةِ .

ـ سَيَفْطَنُ أعْمَامِي بِهَرَبِي عِنْدَمَا يَرَوْنَ ٱلْبَغْلَ مَرْبُوطًا فِي « الزَّرِيبَةِ » وَبِجَانِبِهِ « الكَرِّيطَة » . سَيَقْلِبُونَ الدُّنْيَا بَحْثًا عَنِّي . وَضَحِكَ « عَبْدُ اللّه » مُتَصَوِّرًا الْحَالَةَ الَّتِي سَيَكُونُ عَلَيْهَا أعْمَامُهُ عِنْدَمَا لاَ يَظْفَرُونَ بِهِ . كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ سَيَلْبَسُهُ الشَّيْطَانُ وَتَظْهَرُ سِحْنَتُهُ مُضْحِكَةً : هَذَا كَالْقِرْدِ الْمُكَشِّرِ عَنْ أنْيَابِهِ وَذَاكَ كَوَجْهِ الْقِطِّ ٱلْمُتَحَفِّزِ لِلْوُثُوبِ وَالثَّالِثُ كَالْكَلْبِ النَّابِحِ الْمُسْتَعِدِّ لِلْعَضِّ .

وَأفَاقَ « الطَّاهِر » مِنْ تَهْوِيمَتِهِ بِضَحْكَةِ « عَبْدِ اللّه » وَبَسْمَةِ الشَّمْسِ الْمُطِلَّةِ مِنْ أعْلَى الرَّبْوَةِ الَّتِي وَصَلاَهَا فِي ذَلِكَ ٱلْحِينِ وَقَالَ :

ـ مَا بَالُكَ تَضْحَكُ ؟ كَأنَّكَ ذَاهِبٌ إِلَى الجَنَّةِ أَوْ كَأنَّكَ ٱلْـمَيِّتُ الَّذِي سَمِعَ بِالْجَنَّةِ فَضَـرَطَ فِي النَّعْشِ كَمَا يَقُولُ وَالِدِي .

ـ تَذَكَّرْتُ أَعْمَامِي .

ـ لَوْ بَكَيْتَ عَلَيْهِمْ لَكَانَ أَفْضَلَ .

وَتَرَاءَتْ لَـهُمَا مِنْ بَعِيدٍ مَحَطَّةُ ٱلْقِطَارِ وَلَكِنْ لَنْ يَصِلاَ إِلَيْهَا إِلاَّ بَعْدَ أَكْثَرِ مِنْ نِصْفِ سَاعَةٍ .

قَالَ « الطَّاهِر » :

ـ يَا لَتَعْسِ حَظِّنَا ! لَقَدْ جِئْنَا يَا « عَبْد اللَّه » فِي زَمِنٍ ٱخْتَلَّتْ فِيهِ الأُمُـورُ وَأَصْبَحَ الْكِبَارُ عَاجِزِينَ عَنْ تَرْبِيَتِنَا ، مُتَهَرِّبِينَ مِنَ الْـمَسْؤُولِيَّةِ . لَسْتُ أَدْرِي مَا الَّذِي شَغَلَهُمْ عَنَّا . هُمْ دَائِماً فِي تَنَقُّلٍ لِلْبَحْثِ عَمَّـا يُيَسِّرُ لَـهُمْ أَمْرَهُمْ . كَأَنَّ الدُّنْيَا تَغَيَّرَتْ . لَقَدْ مَضَى ذَلِكَ الزَّمَانُ الَّذِي حَدَّثَنِي عَنْهُ جَدِّي وَوَالِدِي .

ـ الأَنَانِيَّةُ يَا « طَاهِر » . لَوْ كَانَ أَبِي حَيًّا لَـمَا وَجَدْتَنِي فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالَةِ . أَعْمَامِي لاَ يُرَاقِبُونَ اللَّهَ فِـيَّ . كَانَ النَّاسُ يَرْدَعُهُـمْ الـدِّينُ وَيَخَافُـونَ الشُّيُوخَ وَيُقَدِّرُونَهُمْ وَيَسْتَفْتُونَهُمْ أَمَّا الآنَ فَإِنَّهُمْ تَرَكُوهُمْ جَانِبًا يَسْمَعُونَهُـم وَلاَ يَأْتَـمِـرُونَ بِأَوَامِرِهِمْ .

وَمَضَيَا فِي مِثْلِ هَذَا ٱلْحَدِيثِ يَبْكِيَانِ زَمَانَهُمَا ٱلْخَائِبَ وَيَتَوَجَّسَـانِ خِيفَـةً مِنَ ٱلْـمُغَامَرَةِ الَّتِي يَقُومَانِ بِهَا وَلَيْسَ لَـهُمَا مِنْ مُعِينٍ .

وَصَلاَ إِلَى الْـمَحَطَّةِ وَدَفَعَا ثَمَنَ التَّذْكِرَتَيْـنِ . سِتَّةٌ وَثَلاَثُونَ فَرَنْكًا : قَدْرٌ كَبِيرٌ . وَلَكِنَّهُمَـا لَمْ يَتَرَدَّدَا . وَاخْتَطَفَا مِنْ يَدِ ٱلْعَوْنِ التَّذْكِرَتَيْنِ فِي لَـهْفَةٍ وَقَفَزَا فِي ٱلْعَرَبَةِ ٱلْـمُخَصَّصَةِ لِلرُّكَّابِ . وَبَقِيَا يَنْتَظِرَانِ ، وَٱلْجَوُّ قَدْ مُلِىءَ دُخَانًا وَصُرَاخًا يَنْبَعِثَانِ مِنَ الْقَاطِرَةِ ...

إِنَّهُمَـا عَلَى أَحَرَّ مِنَ الْـجَمْرِ لاَ يَنْبِسَانِ بِكَلِمَةٍ وَيَكْتَفِيَانِ بِالنَّظَرِ إِلَى الرُّكَّابِ وَإِلَى كَرَاسِي ٱلْعَرَبَةِ وَحَرَكَةِ النَّاسِ ، وَأَعْوَانِ الشَّـرِكَةِ عَلَى الرَّصِيفِ .

وَفِي نَظْرَةٍ عَابِرَةٍ إِلَى بَابِ ٱلْعَرَبَةِ لَمَحَ « عَبْد اللّه » عَمَّهُ مُنْتَصِبًا كَأَنَّهُ عِفْرِيتٌ خَرَجَ مِنْ تَحْتِ الْقَاطِرَةِ فَصُعِقَ وَلَمْ يَتَرَدَّدْ عَمُّهُ فِي أَخْذِ الشَّابَيْنِ مِنْ تَلاَبِيبِهِمَا وَالنُّزُولِ بِهِمَا إِلَى الرَّصِيفِ مُهَدِّدًا مُرْعِدًا مُزْبِدًا بَعْدَ أَنْ رَمَى مِنَ النَّافِذَةِ الْقُفَّتَيْنِ .

وَلَمْ يَسَعْهُمَا إلاَّ الامْتِثَالُ ، لأَنَّهُ هَدَّدَهُمَا بِالشُّرْطَةِ . وَافْتَكَّ مِنْهُمَا التَّذْكِرَتَيْنِ وَبَاعَهُمَا ثُمَّ أَرْكَبَهُمَا « كَرُّوسَة » ووضع بَقِيَّةَ ٱلْمَبْلَغِ ، فِي جَيْبِهِ عِقَابًا لَهُمَا .

وَسَارَتْ « ٱلْكَرُّوسَةُ » بِسُرْعَةٍ . وَتَذَكَّرَ « الطَّاهِر » أَنَّهُ نَسِيَ عَصَاهُ فِي الْقِطَارِ وَلَمْ يَعْرِفْ لِمَاذَا تَذَكَّرَهَا فِي ذَلِكَ ٱلْمَوْقِفِ وَلَكِنَّهُ تَبَيَّنَ أَنَّ رَأسَ عَمِّهِ « عَبْدِ اللّه » الْجَالِسِ أَمَامَهُ وَٱلْمُتَحَرِّكِ عَلَى إِيقَاعَاتِ سَيْرِ الْخَيْلِ جَدِيرٌ بِضَرَبَاتٍ مِنْ عَصَاهُ . وَقَالَ فِي نَفْسِهِ :

ـ مَا أَقْدَرَهُمْ عَلَى الشَّرِّ ، وَإِذَايَةِ النَّاسِ . وَمَا أَسْرَعَهُمْ فِي التَّنْفِيذِ ، وَأَعْرَفَهُمْ بِتَحَرُّكَاتِ الْبَشَرِ . لَوْ كُنَّا فِي خَطَرٍ لَتَوَانَوْا فِي مَعْرِفَةِ مَكَانِنَا وَلَمَا أَنْقَذُونَا . إِنَّ وَاحِدًا مِنْ سُكَّانِ ٱلْبَلْدَةِ لَمْ يَتَحَرَّكْ عِنْدَمَا سُجِنَّا يَوْمًا وَلَيْلَةً .

ثُمَّ نَظَرَ إِلَى « عَبْد اللّه » وَقَالَ فِي نَفْسِهِ :

ـ طَالِعُهُ نَحْسٌ هَذَا الْمِسْكِينُ ، لَوْ لَمْ آخُذْهُ مَعِي لَكُنْتُ الآنَ فِي طَرِيقِي إِلَى تُونِسَ . لَقَدْ رَفَقْتُ بِهِ وَحَسِبْتُ حِسَابًا أَصْبَحَ خَاطِئًا . كُنْتُ أَقُولُ فِي نَفْسِي إِنَّهُ يُفِيدُنِي عِنْدَمَا نَصِلُ إِلَى تُونِسَ لأَنَّهُ سَيَجِدُ أُخْتَهُ تَفْتَحُ لَهُ الْبَابَ وَذِرَاعَيْهَا

وَلَيْسَ مِنَ الْـمَعْقُولِ أَنْ يَتَخَلَّى عَنِّي « عبْد اللَّه » أَمَّا الآنَ فَقَدْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيَّ أَنْ أَذْهَبَ وَحْدِي وَإِنِّي مُصَمِّمٌ عَلَى ذَلِكَ . وَلَكِنْ لَيْسَ فِي الْـمُسْتَطَاعِ أَنْ أَرْكَبَ فِي هَذِهِ المَرّةِ الْقِطَارَ بَلْ نَصِيبِي هُوَ « الكَرِّيطَةُ » .

وَوَصَلاَ الْقَرْيَةَ وَأَخَذَا نَصِيبَهُمَا مِنَ التَّوْبِيخِ وَالتَّأْنِيبِ وَشُدِّدَتِ الْـحِرَاسَةُ عَلَى « عَبْد اللَّه » .

* * *

بَحَثَ « الطَّاهِر » عَنِ « الكَرِّيطَةِ » الْـمُتَّجِهَةِ إِلَى تُونِسَ فِي اللَّيْلَةِ الْقَادِمَةِ . فَعَرَفَ صَاحِبَهَا وَأَعْطَاهُ سِتَّةَ فَرَنْكَاتٍ وَهُوَ مِقْدَارُ أُجْرَتِهِ وَثَمَنُ الأَكْلاَتِ ، وَاسْتَحْلَفَهُ أَنْ لاَ يُذِيعَ أَمْرَ سَفَرِهِ حَتَّى لا يُفْسِدَ عَلَيْهِ أَهْلُهُ خُطَّتَهُ فِي هَذِهِ المَرَّةِ . وَاتَّفَقَ مَعَ « الْكَرَارِطِي » على أَنْ يَنْتَظِرَهُ فِي مَدْخَلِ الْبَلْدَةِ عَلَى السَّاعَةِ الرَّابِعَةِ صَبَاحًا . وَاتَّفَقَ مَعَ « عَبْد اللَّه » على أَنْ يُعْلِمَ أَهْلَهُ مِنَ الْغَدِ ، فَوَعَدَهُ بِذَلِك وَالْيَأْسُ سَاكِنٌ بِعَيْنَيْهِ لِبَقَائِهِ فِي الْقَرْيَةِ لأَنَّهُ أَعْجَزُ مِنْ أَنْ يَتجَرَّأَ عَلَى تَحَدِّي أَعْمَامِهِ . إِنَّهُ يَنْتَظِرُ مَنْ يَدْفَعُهُ إِلَى ذَلِكَ . وَلَكِنَّ « الطَّاهِر » يَعْلَمُ أَنَّ ذَلِكَ يَقْتَضِي مِنْهُ أَيَّامًا وَهُوَ لَيْسَ مُسْتَعِدًّا ، فِي هَذِهِ الْـمَرَّةِ ، إِلَى أَنْ يُؤَخِّرَ مَوْعِدَ رَحِيلِهِ مِنْ أَجْلِ « عَبْد اللَّه » وَلَكِنَّهُ أَسَرَّهَا فِي نَفْسِهِ وَأَصَرَّ عَلَى إِنْقَاذِ رَفِيقِهِ ، بِخُطَّةٍ يُدَبِّرُهَا مِنْ تُونِسَ .

قَالَ مُوَدِّعًا :

ـ لاَ عَلَيْكَ يَا « عَبْد اللَّه » ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ مُفَرِّجُ الْكُرُوبِ .

كَانَ ٱلْوَقْتُ إِلَى الْغُرُوبِ . وَالشَّمْسُ تُسْرِعُ إِلَى الاخْتِفَاءِ وَرَاءَ الأَكَمَاتِ ٱلْـمُخْضَرَّةِ ، حَمْرَاءَ كَوَجْنَتَيْ فَتَاةٍ جَمِيلَةٍ ، غَلَبَهَا الْخَجَلُ ، مُدَوَّرَةً ، تَحُفُّ بِهَا سَمَاءٌ مِنَ السُّحُبِ الصَّفْرَاءِ ، كَقِطْعَةٍ نَقْدِيَّةٍ رُمِيَ بِهَا عَلَى أَرْضٍ أُثْخِنَتْ حَرْثًا وَعَزْقًا .

الشَّمْسُ تُوَدِّعُ الْقَرْيَةَ فِي خَجَلٍ وَاحْتِشَامٍ ، مُعْلِنَةً قُدُومَ غَدٍ شَدِيدِ الْحَرَارَةِ . وَالنَّاسُ يُسْرِعُونَ ، مُتْعَبِينَ ، إِلَى مَنَازِلِهِمْ بِدَوَابِّهِمْ ، وَمَاشِيَتِهِمْ ، وَمَحَارِيثِهِمْ ،

وَآلاَتِهِمْ الفِلاَحِيَّةِ ، وَمَحَاصِيلِ عَمَلِهِمْ الْيَوْمِيِّ ، مُتَهَيِّئِينَ ، مُسْتَعِدِّينَ لِخَوْضِ غِمَارِ الْغَدِ . فَكَأَنَّ الشَّمْسَ وَالنَّاسَ فِي سِبَاقٍ ، هَذِهِ إِلَى خِدْرِهَا وَأُولَئِكَ إِلَى دُورِهِمْ ، وَهْيَ إِلَى الطُّلُوعِ مِنْ جَدِيدٍ ، مُشْرِقَةً حَارَّةً ، وَهُمْ إِلَى الْخُرُوجِ فِي الْفَجْرِ ، نَشِطِينَ ، مُقْبِلِينَ عَلَى الْجُهْدِ ، وَالاجْهَادِ ، وَانْصِبَابِ الْعَرَقِ .

إلاّ « الطَّاهِر » فَقَدْ وَدَّعَ شَمْسَ الْقَرْيَةِ ، مِنْ دُونِ أَمَلٍ فِي رُؤْيَتِهَا مِنَ الْغَدِ . إِنَّهُ سَيَعْرِفُ شَمْسًا أُخْرَى ، وَلاَ يَدْرِي كَيْفَ سَتَكُونُ مُعَامَلَتُهَا لَهُ ، شَمْسًا لَمْ يَتَعَوَّدْهَا ، وَلَمْ يَأْلَفْ سُلُوكَهَا مَعَهُ . وَالسَّمَاءُ هَذِهِ الضَّحُوكُ الْمُشْرِقَةُ ، الدَّائِمَةُ الصَّفَاءِ هَلْ سَتَكُونُ سَمَاءُ تُونِسَ مِثْلَهَا ؟ إِنَّهُ يَشْعُرُ وَكَأَنَّهَا تَحْتَضِنُهُ ، دَافِئَةً مُنْذُ أَنْ عَرَفَهَا وَفَتَحَ عَيْنَيْهِ فِيهَا . إِنَّ الدِّفْءَ الَّذِي يَجِدُهُ عِنْدَمَا تَحْتَضِنُهُ أُمُّهُ هُوَ نَفْسُهُ الَّذِي شَعُرَ بِهِ تَحْتَ سَمَاءِ الْقَرْيَةِ فِي الصَّحْوِ وَفِي اشْتِدَادِ الْغَيْمِ ، فِي الصَّيْفِ ، وَفِي الشِّتَاءِ . مَنْ سَيَحْتَضِنُهُ إِذَنْ عِنْدَمَا يَكُونُ فِي تُونِسَ ؟

وَصَلَ أَمَامَ بَابِ الْمَنْزِلِ ، فَدَفَعَهُ ، فَصَاتَ ذَلِكَ الصَّوْتَ الْمَأْلُوفَ وَنَهَقَ الْحِمَارُ فَلَعَنَهُ مِثْلَ الْعَادَةِ وَلَمَحَ وَالِدَتَهُ نَشِيطَةً عَلَى غَيْرِ عَادَتِهَا فِي مِثْلِ تِلْكَ السَّاعَةِ . فَتَوَقَّفَ ، وَوَجَّهَ نَظَرَهُ إِلَى الْغُرْفَةِ فَلَمَحَ « بَلْغَةَ » أَبِيهِ أَمَامَ الْبَابِ . قَالَ فِي نَفْسِهِ :

ـ اَلْبَعْرَةُ تَدُلُّ عَلَى الْبَعِيرِ كَمَا يَقُولُ وَالِدِي . وَأَيُّ بَعِيرٍ هَذَا الَّذِي سَيُفْسِدُ عَلَيَّ خُطَّتِي .

دَخَلَ اَلْغُرْفَةَ ، فَوَجَدَ وَالِدَهُ جَالِسًا يَنْتَظِرُ طَعَامَ الْعَشَاءِ . فَانْحَنَى عَلَيْهِ ، وَقَبَّلَهُ فِي خُشُوعٍ ، وَانْثَنَى رَاجِعًا عَلَى أَعْقَابِهِ يُرِيدُ الافْلاَتَ مِنْ سَلاَطَةِ لِسَانِ أَبِيهِ . وَلَكِنَّهُ أَوْقَفَهُ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ :

ـ أَيْنَ أَنْتَ يَا « سِي » الشَّبَاب .

ـ إِنِّي هُنَا .

ـ أَظُنُّك شَمَمْتَ صُنَانَ إِبِطَيْكَ فَأَصْبَحْتَ تَدْخُلُ السِّجْنَ وَتَرْكَنُ إِلَى الْهُرُوبِ .

وَدَخَلَتْ وَالِدَتُهُ حِينَذَاكَ بِالطَّعَامِ ، وَقَدْ فَاحَتْ رَائِحَةُ اللَّحْمِ مِنْهُ . فَتَنَشَّقَهَا فِي لَهْفَةٍ وَتَنَشَّقَهَا وَالِدُهُ وَقَالَ :

ـ عَلَى كُلٍّ فَإِنَّ الْوَقْتَ لَيْسَ لِلْكَلاَمِ . فَلاَ كَلاَمَ عَلَى طَعَامٍ . سَأَعْرِفُ كَيْفَ أُرَبِّيكَ . اِذْهَبْ الآنَ . وَخَرَجَ الطَّاهِرُ وَهُوَ يَعْرِفُ أَنَّ وَالِدَه سَيَخْرُجُ إِلَى « الْحَوَانِيتِ » وَسَيَنْهَمِكُ فِي الْحَدِيثِ وَإِطَالَةِ لِسَانِهِ عَلَى أَصْدِقَائِهِ وَقَصِّ النَّوَادِرِ وَالأَخْبَارِ وَلَعِبِ الْوَرَق .

وَعَسْعَسَ اللَّيْلُ ، وَتَمَدَّدَ الطَّاهِرُ عَلَى فِرَاشِهِ فِي الْغُرْفَةِ الْمُقَابِلَةِ . وَلَكِنَّ النَّوْمَ لَمْ يَدْخُلْ جَفْنَيْهِ ، وَهُوَ فِي هَوَاجِسِهِ وَخَوْفِهِ مِن فَسَادِ خُطَّتِهِ . حَتَّى جَاءَتْ السَّاعَةُ الْوَاحِدَةُ وَدَقَّتْ هَذِهِ الْمَرَّةَ بِصَوْتِ الْبَابِ يُفْتَحُ وَلَهُ صَلِيلٌ مُزْعِجٌ فِي اللَّيْلِ ، وَلَكِنَّ الْحِمَارَ لَمْ يَنْهَقْ ، فَعَرَفَ « الطَّاهِر » بِذَلِكَ أَنَّ وَالِدَهُ هُوَ الدَّاخِلُ لأَنَّ الْحِمَارَ يَخْشَى سَيِّدَهُ وَيَخَافُ صَوْتَهُ الْمُجَلْجِلَ ، وَضَرَبَاتِ عَصَاهُ ، فَيَسْكُتُ عَلاَمَةَ الاحْتِرَامِ وَالتَّبْجِيلِ . وَإِنّ وَالِدَهُ هُوَ الآمِرُ وَالنَّاهِي وَلاَ مَرَدَّ لأَحْكَامِهِ فِي الْمَنْزِلِ ، وَطَاعَتُهُ وَاجِبَةٌ وَنَافِذَةٌ عَلَى الكُلِّ : بَشَرًا وَحَيَوَانًا وَمَتَاعًا كَسَيِّدِنَا سُلَيْمَان أَوْ أَكْثَر .

وَجَاءَتِ السَّاعَةُ الثَّالِثَةُ بَعْدَ انْتِظَارٍ طَوِيلٍ . فَقَامَ وَلَبِسَ جُبَّتَهُ ، وَأَخَذَ الْقُفَّةَ ، وَلَمَحَ عَلَى ضَوْءِ الْقَمَرِ عَصَا وَالِدِهِ ، وَقَدْ أَسْنَدَهَا فِي رُكْنٍ مِنْ أَرْكَانِ الزَّرِيبَةِ . وَعَصَا وَالِدِهِ لَيْسَتْ كَالْعِصِيِّ . إِذْ لَهَا ثَلاَثَةُ فُرُوعٍ صَغِيرَةٍ فِي أَسْفَلِهَا تَزِيدُ عَنِ الْمَآرِبِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْقُرْآنِ فَهِيَ صَالِحَةٌ لاقْتِطَافِ التِّينِ الْهِنْدِيِّ مِنَ « الطَّوَابِي » وَمُسْتَعْمَلَةٌ كَفَرَامِلَ لِحِمَارِ الْوَالِدِ وَلَهَا غَيْرُ ذَلِك مِنَ الْمَصَالِحِ ، لأَنَّ هَذِهِ الدَّابَّةَ لاَ تَحْتَاجُ إِلَى لُغَةِ الْحَمِيرِ مِنْ « إِرْ » وَغَيْرِهَا مِنَ الْكَلاَمِ الَّذِي أَخْنَى عَلَيْهِ الدَّهْرُ وَأَصْبَحَ عَلاَمَةً مِنْ عَلاَمَاتِ الْقُرُونِ الْوُسْطَى بَلْ إِنَّ حِمَارَ الْوَالِدِ دَخَلَ عَصْرَ الآلَةِ مِنَ الْبَابِ الْكَبِيرِ وَاسْتَغْنَى عَنِ الْكَلاَمِ الْمُخِلِّ بِالْكَرَامَةِ. فَكُلَّمَا كَانَتْ الْعَصَا مَرْكُوزَةً عَلَى الأَرْضِ بَيْنَ أَرْجُلِ الْحِمَارِ اعْتَبَرَهَا صَاحِبُنَا ، الْحِمَارُ طَبْعًا ،

فَرَامِلَ وَإِذَا هِيَ رُفِعَتْ إِلَى مُسْتَوَى الأُذُنِ الْيُمْنَى ، فَذَاكَ عَلاَمَةُ السَّيْرِ ، وَهِيَ نَفْسُهَا الْمِقْوَدُ فَإِذَا دَغْدَغَتِ الرَّقَبَةَ مِنَ الْجِهَةِ الْيُمْنَى فَالانْعِطَافُ عَلَى الْيَسَارِ وَالْعَكْسُ بِالْعَكْسِ .

وَفِي هَذِهِ الْمَرَّةِ فَإِنَّ لَهَا مَآرِبًا آخَرَ . فَقَدِ اسْتَعَانَ بِهَا « الطَّاهِر » عَلَى الْقَفْزِ فَوْقَ الْجِدَارِ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَفْضَحَ أَمْرَهُ الْبَابُ . وَلَمَّا أَنِ ابْتَلَعَهُ الطَّرِيقُ ، تَنَفَّسَ « الطَّاهِر » الصُّعَدَاءَ وَأَيْقَنَ أَنَّ « بَابَ الْعَرْشِ » فُتِحَ لَهُ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ وَدَلَّهُ عَلَى اتِّجَاهٍ وَاحِدٍ هُوَ اتِّجَاهُ تُونِسَ .

* * *

بَعْدَ السَّاعَةِ أَوْ بِضْعِ السَّاعَةِ كَانَ « الطَّاهِر » فِي أَعْلَى « الْكَرِّيطَة » فَوْقَ صُنْدُوقَيْنِ مَمْلُوأَيْنِ بَيْضًا يَتَمَايَلُ يَمْنَةً وَشِمَالاً عَلَى إِيقَاعِ « الْكَرِّيطَة » :

طَقْ ... طَطَقْ .. طَقْ ...

هُوَ فِي أَعْلَى « الكَرِّيطَة » لأَنَّ عُلُوَّ الصُّنْدُوقَيْنِ يُنَاهِزُ الْمِتْرَ وَالنِّصْفَ وَهُوَ مُنْبَطِحٌ وَوَجْهُهُ إِلَى خَشَبِ الصُّنْدُوقَيْنِ ، قَدْ شُدَّ بِحَبْلٍ فِي مُسْتَوَى الْكَتِفَيْنِ ، وَبِحَبْلٍ آخَرَ مِنْ مُؤَخَّرَتِهِ ، خَوْفًا عَلَيْهِ مِنَ السُّقُوطِ أَثْنَاءَ النَّوْمِ ، خَاصَّةً وَأَنَّ الْمَرْحَلَةَ تَدُومُ ثَمَانِيَ سَاعَاتٍ ، مُتَوَالِيَةً ، مِنَ الرَّابِعَةِ لَيْلاً إِلَى مُنْتَصَفِ النَّهَارِ . ثُمَّ تَكُونُ فَتْرَةُ الاسْتِرَاحَةِ وَتَدُومُ أَرْبَعَ سَاعَاتٍ ؛ فِيهَا يَرْتَاحُ الْمُرَافِقُونَ « لِلْكَرِّيطَة » وَيَأْكُلُونَ مَرْقَةَ « الْبَطَاطَا » وَدَائِماً هِيَ الرَّائِجَة فِي الْفَنَادِقِ ، وَفِيهَا أَيْضًا يُقَدِّمُونَ لِلْبِغَالِ عَلَفَهَا ، وَيَسْقُونَهَا الْمَاءَ ، وَيُرِيحُونَهَا فَتْرَةً مِنَ الزَّمَنِ ، ثُمَّ يَسْتَأْنِفُونَ السَّيْرَ مِنَ الرَّابِعَةِ بَعْدَ الظُّهْرِ إِلَى مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ .

وَدَامَتِ الرِّحْلَةُ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ، وَ« الطَّاهِر » يُفَكُّ رِبَاطُهُ فِي كُلِّ مَرْحَلَةٍ مِثْلَ بَغْلِ « الْكَرِّيطَة » وَيُعَادُ شَدُّهُ عِنْدَ انْطِلاَقِ الْقَافِلَةِ . وَالْقَافِلَةُ تَعُدُّ بَيْنَ ثَمَانِي « كَرَارِط » أَوْ عَشْرٍ تَسِيرُ مُجْتَمِعَةً خَوْفًا مِنْ قُطَّاعِ الطَّرِيقِ .

لَمْ يَدْرِ كَيْفَ مَضَتْ هَذِهِ الأَيَّامُ الثَّلاَثَةُ بِلَيَالِيهَا ، وَهْوَ مَشْدُودٌ إِلَى الصَّنَادِيقِ كَمَا شُدَّ الْبَغْلُ إِلَى « الْكَرِّيطة » وَلَكِنَّ الْبَغْلَ يُجْهِدُ نَفْسَهُ ، وَيُسْرِعُ فِي السَّيْرِ أَمَّا هُوَ فَسَاكِنُ الْحَرَكَةِ ، مَحْكُومٌ عَلَيْهِ أَنْ يَبْقَى مَشْلُولَ الأَعْضَاءِ ، مُخَدَّرَهَا ، وَلَيْسَ لَهُ إِلاَّ أَنْ يَنْظُرَ بِعَيْنَيْهِ ، وَيَسْمَعَ بِأُذُنَيْهِ وَيَشُمَّ بِأَنْفِهِ . لَمْ يَكُنْ قَبْلُ لِيَشْعُرَ بِقِيمَةِ هَذِهِ الْحَوَاسِّ أَوْ هُوَ لَمْ يَعِ وُجُودَهَا الْوَعْيَ الصَّحِيحَ . كَانَ كُتْلَةً حَيَّةً مُتَمَتِّعَةً بِالصِّحَّةِ ، عَاشَتْ فِي مِثْلِ عَفْوِيَّةِ الطَّبِيعَةِ لاَ تَعْرِفُ التَّفْصِيلَ وَالأَجْزَاءَ ، بَلْ كَانَ جُمْلَةً تَتَحَرَّكُ ، وَتَحْيَا بِكُلِّيَتِهَا ، مُنْصَبَّةً انْصِبَابًا ، إِذَا فَرِحَتْ أَوْ غَضِبَتْ فَبِكُلِّ الْحَوَاسِّ ، وَالْكِيَانِ أَجْمَعِهِ ، وَإِذَا أَحَبَّتْ أَوْ كَرِهَتْ فَسَيْلٌ جَارِفٌ لاَ يَعْرِفُ التَّوَقُّفَ أَوِ الاعْتِدَالَ ، وَإِذَا خَافَتْ أَوْ تَشَجَّعَتْ فَالانْقِيَادُ إِلَى الْفَنَاءِ بِالْجُبْنِ الْقَاتِلِ أَوْ التَّهَوُّرِ الْمُهْلِكِ .

أَمَّا الآنَ فَهْوَ عَيْنٌ فَقَطْ وَخَاصَّةً إِذَا سَكَنَ اللَّيْلُ وَتَوَغَّلَ الْمُسَافِرُونَ فِي الْبَرَارِي ، وَانْقَطَعَ هُبُوبُ الرِّيحِ . وَحَتَّى طَقْطَقَاتُ الْكَرَارِطِ الْمُدَوِّيَةُ صَمَّتْ عَنْهَا أُذُنُهُ لِرَتَابَتِهَا وَتَعَطَّلَتْ حَاسَّةُ الشَّمِّ عِنْدَهُ لانْقِطَاعِ كُلِّ رِيحٍ وَرَائِحَةٍ . هُوَ عَيْنٌ تَمْسَحُ الطَّرِيقَ وَجَوَانِبَهُ خَوْفَ هُجُومِ قَاطِعِي السَّبِيلِ وَهْوَ عَيْنٌ تَنْعَكِسُ فِيهَا أَشِعَّةُ الْقَمَرِ أَوْ فَوَانِيسُ بَعْضِ السَّيَّارَاتِ الْقَلِيلَةِ وَالْقَلِيلَةِ جِدًّا . وَهْوَ عَيْنٌ تَنْغَلِقُ تَعَبًا مُسْتَسْلِمَةً لِلنَّوْمِ الشَّافِي .

ثُمَّ هُوَ إِذَا تَأَزَّمَتْ الأَحْوَالُ فِي الطَّرِيقِ يُصْبِحُ أُذُنًا فَقَطْ ، تَسْمَعُ فِي تَضْخِيمٍ صَوْتًا لاَ مَثِيلَ لَهُ ، صُرَاخَ « الْجَنْدَرْمَةِ » وَضَرْبَهُمْ بِالسَّوْطِ سُوَّاقَ « الْكَرَارِطِ » وَهُمْ فِي نَوْمِهِمْ ، وَسَبَّهُمْ لَهُمْ سَبَّ الْمَجُوسِ بِعِبَارَاتٍ فِيهَا احْتِقَارٌ لِلْعَرَبِ وَجِنْسِهِمْ . وَهْوَ أُذُنٌ فَقَطْ تُنْصِتُ إِلَى غِنَاءِ بَعْضِهِمْ الذِي يَشُقُّ الْجَوَّ فِي نَغْمَةٍ حَزِينَةٍ ، بَاكِيَةٍ ، تَنْفَذُ إِلَى أَعْمَاقِ الأَسْمَاعِ وَتَسْكُنُ فِيهَا حَتَّى عِنْدَمَا يُخَيِّمُ الصَّمْتُ مِنْ جَدِيدٍ . وَهْوَ أُذُنٌ فَقَطْ ، لَيْسَ لَهُ إِلاّ أَنْ يَطْرُقَ سَمْعَهُ صُرَاخُ السُّوَّاقِ وَهُمْ يُحَرِّضُونَ بِغَالَهُمْ عَلَى تَخَطِّي الْعَقَبَةِ ، وَمَا أَكْثَرَ الْعَقَبَاتِ فِي هَذِهِ الطَّرِيقِ ! أَوْ يَتَنَادَوْنَ عِنْدَ الْخَطَرِ فِي

لـهْجَةٍ حَادَّةٍ تَخْوِيفًا لِـمَنْ طَمِعَ فِي أَمْوَالِـهِمْ وَحَدَّثَتْهُ نَفْسُهُ بِالْـهُجُومِ عَلَيْهِمْ .

ثُمَّ هُوَ مَرَّةً أُخْرَى أَنْفٌ فَقَطْ يَتَحَسَّسُ أَجْوَاءَ الطَّبِيعَةِ ، فَيَتَـأَذَّى مِنْ رَوَائِحِ السَّبْخَاتِ وَالـمُسْتَنْقَعَـاتِ أَوْ يَرْتَـاحُ إِلَى نَفَحَـاتِ الْبَسَاتِـينِ أَوْ شَذَى حَشَـائِشِ الطَّبِيعَةِ .

لَمْ يَعْرِفْ كَيْفَ مَضَتْ هَذِهِ الأَيَّامُ الثَّلاَثَةُ إلاَّ عِنْدَمَا أَشْرَفَ ، مِنْ بَعِيدٍ عَلَى رَبْوَةٍ مُخْضَرَّةٍ ، تَعْلُوهَا بِنَايَةٌ بَيْضَاءُ . قَالُوا لَهُ : إِنَّهُ ضَرِيحُ سَيِّدِي « بِلْحَسَن الشَّاذِلِي » . وَتَوَقَّفَتِ الْقَافِلَةُ وَأُنْزِلَ « الطَّاهِر » مِنَ « الْكَرِّيطَة » وَعَرَفَ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَسِيرَ عَلَى الْقَدَمَيْنِ لأَنَّهُ مَمْنُوعٌ رُكُوبُ « الكَرِّيطَة » دَاخِلَ تُونِسَ .

نَظَرَ إِلَى هَيْئَتِهِ ، فَوَجَدَ الْجُبَّةَ سَوْدَاءَ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ بَيْضَاءَ ، فَأَحَسَّ بِالْقَرَفِ وَأَبَى أَنْ يَدْخُلَ تُونِسَ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ . فَاخْتَطَفَ قُفَّتَهُ مِن عَلَى الْعَرَبَةِ وَسَارَ خُطْوَتَيْنِ وَإِذَا بِسَائِقِ الْعَرَبَةِ يَصِيحُ بِهِ :

- إِلَى أَيْنَ ؟ إِنَّكَ لاَ تَعْرِفُ الطَّرِيقَ ؟

- لاَ ! إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُبْدِلَ هَذِهِ الأَوْسَاخَ .

- وَوَجْهُكَ هَلْ يُـمْكِنُ لَكَ أَنْ تُبْدِلَهُ ، إِنَّهُ أَصْبَحَ أَسْوَدَ مُخِيفًا ؟ الطَّرِيقُ لاَ يَحْتَمِلُهَا إلاَّ الرِّجَالُ الْفُحُولُ الصَّنَادِيدُ .

وَحَزَّتْ فِي نَفْسِهِ هَذِهِ الْكلِمَـاتُ وَلَمْ يَدْرِ مَا يُـجِيبُ بِهِ هَذَا الْـجِلْفَ الَّذِي أَصْبَحَ قِطْعَةً مِنَ « الْكَرِّيطة » وَبَغْلِهَا : صَلاَبَةٌ فِي السَّحْنَةِ ، وَقَسْوَةٌ فِي الْقَلْبِ ، وَسَلاَطَةٌ فِي اللِّسَانِ كَالسَّوْطِ الَّذِي فِي يَدِهِ . بِمَاذَا يُجِيبُ وَهُوَ الَّذِي تَعَطَّلَتِ الْكَلِمَـاتُ فِي فَمِهِ طِيلَةَ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ . فَسَكَتَ عَلَى مَضَضٍ وَانْتَحَى نَاحِيَةً وَرَاءَ شَجَرَةٍ كَبِيرَةٍ ، وَلَبِسَ قَمِيصًا وَسِرْوَالاً وَهَرْوَلَ حَتَّى لَحِقَ بِالْقَافِلَةِ .

وَدَخَلَ « بَابَ عَلِيوَه » وَارْتَاحَ إِلَى الْحَرَكَةِ الْـمَوْجُودَةِ بِالشَّوَارِعِ حَتَّى وَصَلَ إِلَى « فُنْدُق بَابِ الْجَزِيرَة » الْـمُخَصَّصِ لِلْقَوَافِلِ الآتِيَةِ مِنَ السَّاحِلِ .

كَانَتِ السَّاعَةُ الْوَاحِدَةُ بَعْدَ الظُّهْرِ أحَسَّ فِيهَا بِالْجُوعِ يَأْكُلُ أحْشَاءَهُ ، وَبِالخَدَرِ يَسْكُنُ مَفَاصِلَهُ . فَهُوَ فِي حَاجَةٍ إِلَىَ أنْ يُرْكِضَ أسْنَانَهُ وَرِجْلَيْهِ . فَسَأَلَ عَنْ مَدْرَسَةِ « سيدي الْعَجْمِي » بِنَهْجِ « الرَّكَاجِ » حَيْثُ يَسْكُنُ ابْنُ عَمِّهِ الشَّيْخُ « حَسَن » فَوَجَدَ صُدْفَةً مِنَ الْـمُسَافِرِينَ مَنْ هُوَ فِي حَاجَةٍ إِلَىَ قَرِيبِهِ . فَتَرَافَقَا وَفِي الطَّرِيقِ أكَلَ صَحْفَةَ « شَمِنْكَةَ » بِأرْبَعَةِ « صُورِدِي » هُوَ وَرَفِيقُهُ .

دَخَلاَ الْـمَدْرَسَةَ وَاتَّجَهَا إِلَىَ غُرْفَةِ الشَّيْخ « حَسَن » وَدَفَعَا الْبَابَ فَوَجَدَا الْـمَكَانَ خَالِيًا ، سَاكِنًا إلاّ مِنْ حَرَكَةٍ آتِيَةٍ مِنَ السَّقْفِ . وَنَظَرَا ، فَوَجَدَا الشَّيْخ حَسَنَ عَلَىَ « سِدَّةٍ » عَالِيَةٍ يَنْظُرُ فِي بَعْضِ الأوْرَاقِ الصَّفْرَاءِ عَلَىَ نُورٍ ضَئِيلٍ آتٍ مِنْ كُوَّةٍ وَرَاءَهُ .

ـ خُذَا مَكَانَكُمَـا ، عَلَىَ سَلاَمَتِكُمَـا ، كَيْفَ حَالُ الْبَلَدِ .

ـ بِخَيْرٍ .

قَالَ مُرَافِقُ « الطَّاهِر » :

ـ هَذِهِ رِسَالَةُ مِنْ أخِيكَ ، فِيهَا بَعْضُ الْـمَؤُونَةِ ، وَإِنِّي أُبْقِيكَ بِخَيْرٍ لأنَّ لِي بَعْضَ الْـمَآرِبِ .

وَنَاوَلَ الرِّسَالَةَ « الطَّاهر » لِيُسَلِّمَهَا إِلَىَ الشَّيْخ « حَسَن » الَّذِي لَمْ يَتَحَرَّكْ مِنْ مَكَانِهِ وَخَرَجَ مُسَلِّماً .

كَانَ عَلِي يَنْظُرُ إِلَىَ الْغُرْفَةِ وَيُسَائِلُ نَفْسَهُ كَيْفَ أمْكَنَ لاِبْنِ عَمِّهِ الصُّعُودُ إِلَىَ هَذِهِ « السِّدَّة » وَلَيْسَ فِي الْـمَكَانِ سُلَّمٌ وَلاَ مَا يُشْبِهُهُ .

وَقَالَ فِي نَفْسِهِ :

ـ صَحِيحٌ ، إنَّ ابْنَ عَمِّي فِي هُزَالِهِ وَضَآلَةِ جِسْمِهِ شَبِيهٌ بِالْقِرْدِ ، وَهُوَ فِي الْبَلَدِ قَادِرٌ عَلَىَ أنْ يَقْفِزَ فَوْقَ « طَابِيَةِ هِنْدِي » عَالِيَةٍ .

وَمَا أنْ خَطَرَتْ بِبَالِهِ هَذِهِ الْخَاطِرَةُ حَتَّى وَجَدَ الشَّيْخَ « حَسَن » بِجَانِبِـهِ يُسَلِّمُ

عَلَيْهِ . لَمْ يَعْرِفْ كَيْفَ أمْكَنَ لَهُ أنْ يَقْفِزَ إلىَ الأرْضِ مُسْتَعِينًا بِمُتَّكَإٍ « الْبَنْكِ » .

قَالَ الشَّيْخ « حَسَن » :

ـ عَلَىَ سَلاَمَتِكَ يَا ابْنَ عَمِّي ، اِبْقَ هُنَا مَا تَشَاءُ ، الْغُرْفَةُ لأوْلاَدِ « الْبِلاَدِ » مَا أمْكَنَ لَهَا أنْ تَضُمَّ مِنَ الأشْخَاصِ . أمَّا « السِّدَّة » فَهِيَ لِي . وَدَبِّرْ رَأسَكَ كَيْفَ تَجِدُ مَكَانًا هُنَا . وَنَظَرَ إلىَ ابْنِ عَمِّهِ فَوَجَدَهُ لاَبِسًا عَمَامَةً بَيْضَاءَ ، عَلاَمَةَ التَّحْصِيلِ فِي جَامِعِ الزَّيْتُونَةِ وَعَلَى عَيْنَيْهِ نَظَّارَاتٌ طَوْقُهَا مِنْ سِلْكٍ رَقِيقٍ جِدًّا وَلَمْ يَدْرِ لِمَاذَا دَفَعَهُ إلَى الضَّحِكِ فِي قَرَارَةِ نَفْسِهِ .

لَبِسَ الشَّيْخُ « حَسَن » جُبَّتَهُ وَبَلْغَتَهُ وَقَالَ لِلطَّاهِرِ :

ـ اِبْقَ هُنَا إنِّي سَأذْهَبُ إلىَ قَضَاءِ بَعْضِ الشُّؤُونِ وَسَآتِي بَعْدَ سَاعَةٍ .

لَمْ يَتَمَالَكِ « الطَّاهر » مِنْ أنْ يُبْدِيَ فِي سِرِّهِ اسْتِغْرَابَهُ لِمَا وَجَدَهُ فِي ابْنِ عَمِّهِ مِنْ تَصَنُّعٍ فِي الْحَرَكَاتِ وَالْكَلاَمِ وَالْـهَيْئَةِ بَعْدَ غَيْبَةٍ طَوِيلَةٍ عَنِ الْقَرْيَةِ .

لَمْ يَعُدْ يَقِفُ الشَّيْخُ « حَسَن » وِقْفَةً طَبِيعِيَّةً مِثْلَ جَمِيعِ النَّاسِ ، لأنَّهُ بَقِيَ سَنَوَاتٍ وَسَنَوَاتٍ يَغْتَرِفُ مِنْ عِلْمِ الْمَشَائِخِ الذَّائِعِي الصِّيتِ ، فَرَأسُهُ الْحَامِلُ لِعَمَامَةٍ لُفَّتْ دَائِمًا عَلَى عَجَلٍ ، لَمْ يَعُدْ ، بِمَا احْتَوَى عَلَيْهِ مِنْ مَعْرِفَةِ الأوَائِلِ وَالأوَاخِرِ ، قَادِرًا عَلىَ الاسْتِوَاءِ بَيْنَ كَتِفَيْهِ بَلْ يَمِيلُ بِهِ شَيْئًا مَا نَحْوَ الْيَسَارِ ، فَيَتَّجِهُ ذَقْنُهُ إلىَ الْيَمِينِ وَتَرْتَفِعُ كَتِفُهُ الْيُمْنَى وَتَرْتَخِي يَدُهُ الْيُسْرَى لِتَلْتَقِيَ عَلَى خَطٍّ وَاحِدٍ مَعَ الاصْبَعِ الْكَبِيرَةِ لِرِجْلِهِ الْيُسْرَى . فَكَأنَّ مَرْكَزَ ثِقَلِ الأرْضِ تَحَوَّلَ عِنْدَهُ ، إلىَ نُقْطَةٍ أُخْرَى لَقَدْ آلَىَ عَلىَ نَفْسِهِ ألاَّ يُجَابَهَ بِرَأيٍ إلاَّ رَفَضَهُ أوَّلاً وَآخِرًا ، لأنَّ كُلَّ مَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا مَقْلُوبٌ فَقَلْبُ الْـمَقْلُوبِ هُوَ الصَّوَابُ . وَلِـهَذَا فَهَيْأتُهُ يَجِبُ أنْ تَكُونَ تَسْفِيهًا لِلسُّنَّةِ الطَّبِيعِيَّةِ الَّتِي رَضِيَ بِهَا النَّاسُ جَمِيعًا .

أمَّا إذَا تَكَلَّمَ فَلاَ تَبْحَثْ عَنْ شَبِيهٍ بِهِ لأنَّهُ اِرْتَضَى أنْ يَأخُذَ مِنَ الدِّيكِ « سَرْدَكَتَهُ » وَمَدَّ عُنُقِهِ وَهَزَّ جَنَاحَيْهِ . وَلاَ يَذْهَبَنَّ بِكَ الظَّنُّ أنَّهُ سَيُغَيِّرُ مِنْ هَيْئَتِهِ

وَيَرْجِعَ إِلَى مَرْكَزِ الثِّقَلِ الْعَادِيِّ بَلْ هُوَ سَيَتَحَرَّكُ بِحَسَبِ الْخُطُوطِ الْمَرْسُومَةِ لَهُ ، فَيُؤَذِّنُ مَا شَاءَ لَهُ أَنْ يُؤَذِّنَ ، وَيَمُدُّ « عَنْكُوشَهُ » فِي الاتِّجَاهِ الْمُعَيَّنِ ، وَيَهُزُّ كَتِفَيْهِ بِحَسَبِ إِيقَاعَاتِ الْكَلَامِ الْمُتَحَذْلِقِ ، الْمُتَفَيْهِقِ . وَعِنْدَمَا يَنْتَهِي فَإِنَّهُ لاَ يَسَعُكَ إِلاَّ أَنْ تَقْتَنِعَ بِرَأْيِهِ لأَنَّ الدُّنْيَا كُلَّهَا اهْتَزَّتْ لِحُجَجِهِ ، وَأَدِلَّتِهِ ، فَمَا بَالُكَ لاَ تَهْتَزُّ وَلاَ تَرْضَى ، وَجَوْلَةٌ أُخْرَى مِنْهُ كَفِيلَةٌ بِأَنْ تَبْعَثَ الدُّوَارَ فِي رَأْسِكَ وَتَدْفَعَكَ إِلَى الاسْتِسْلاَمِ وَإِلْقَاءِ السِّلاَحِ .

* * *

لاَ شَيْءَ يَسْتَحِقُّ الذِّكْرَ فِي حَيَاةِ « الطَّاهِرِ » مُدَّةَ ثَلاَثِ سَنَوَاتٍ قَضَاهَا بَيْنَ رِحَابِ جَامِعِ الزَّيْتُونَةِ ، يَتَنَقَّلُ مِنْ حَلَقَةٍ إِلَى حَلَقَةٍ يَتَعَرَّفُ إِلَى دَقَائِقِ التَّعْلِيمِ وَنَوَادِرِ الْمَشَايِخِ وَالتَّلاَمِيذِ ، وَلَكِنَّ الْحَيَاةَ فِي غُرْفَةِ الشَّيْخِ « حَسَن » ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ فِي وَكَالَةِ « التُّوتَه بِالسَّكَّاجِين » فِيهَا مَا صَرَفَ « الطَّاهِر » إِلَى الْعُزُوفِ عَنْ هَذِهِ التَّجْرِبَةِ الَّتِي اعْتَقَدَ أَنَّهَا لاَ تُثْمِرُ شَيْئًا .

هِيَ لَمْ تُثْمِرْ شَيْئًا لاَ مَحَالَةَ ، وَلَكِنَّهُ لاَقَى فِيهَا مِنَ الذُّلِّ ، وَالْمَهَانَةِ ، وَضِيقِ الْعَيْشِ مَا جَعَلَهُ يُفَكِّرُ مَرَّاتٍ عَدِيدَةً فِي الرُّجُوعِ إِلَى قَرْيَتِهِ ، وَلَكِنَّ خَوْفَهُ مِنْ ضَحِكِ النَّاسِ هُنَاكَ أَبْعَدَ عَنْهُ هَذِهِ الْفِكْرَةَ . وَبَلَغَتْ بِهِ الذِّلَّةُ أَنَّهُ وَقَفَ ذَاتَ مَرَّةٍ بِبَابِ الْبَحْرِ يَنْظُرُ إِلَى الرَّخَاءِ عِنْدَ الأُورُبِّيِّينَ وَإِذَا بِهِ يُحِسُّ بِبَلَلٍ عَلَى سَاقِهِ ، فَالْتَفَتَ فَوَجَدَ كَلْبًا لامْرَأَةٍ أُرُوبِيَّةٍ يَتَبَوَّلُ عَلَيْهِ فَنَهَرَهُ عَلَى نَبَرَاتِ ضَحِكَاتِ الْمَرْأَةِ السَّاخِرَةِ ، وَاسْتَاءَ لِذَلِكَ كَثِيرًا وَحَكَى الْحَادِثَةَ إِلَى الشَّيْخِ « حَسَن » فَقَالَ لَهُ : أَبْشِرْ ، فَإِنَّكَ مُقْبِلٌ عَلَى خَيْرٍ كَثِيرٍ وَمَا بَعْدَ هَذِهِ الْمَذَلَّةِ مِنْ مَذَلَّةٍ . اِشْتَدِّي أَزْمَةُ تَنْفَرِجِي .

فَقَرَّرَ وَحْدَهُ وَبِدُونِ أَيَّةِ اسْتِشَارَةٍ ، مِثْلَمَا دَأَبَ عَلَى ذَلِكَ مُنْذُ سَنَوَاتٍ أَنْ يَشُقَّ دَرْبَ الْحَيَاةِ ، وَيَكْسِبَ قُوتَهُ بِصُورَةٍ أُخْرَى وَلاَ يَبْقَى عَالَةً عَلَى أُمِّهِ بِمَا تُرْسِلُهُ إِلَيْهِ مِنْ مُؤُونَةٍ وَصُبَابَةِ مَالٍ .



أبي محمد

شرِكَةُ « التَّرَامْوَاي » تَقْبَلُ مَنْ فِي سِنِّهِ وَبِسُهُولَةٍ وَلَكِنْ بِشَرْطِ دَفْعِ الثَّمَنِ أيْ الرَّشْوَةِ . وَهَذَا نَصَحَهُ بِهِ أَحَدُ أَصْدِقَائِهِ ، وَعَرَّفَهُ بِالْمُسَمَّى يُوسُفَ ، كَاتِبَ الْمتَفَقِّد الْفِرَنْسِيِّ . وَالثَّمَنُ لَيْسَ بَاهِضًا : ثَلاَثَةُ « سَرَادِك » صِغَارٍ وَرُبعُ مِائَةٍ مِنَ الْبَيْضِ . وَلَكِنْ مِنْ أَيْنَ لَهُ أَنْ يَأْتِي بِخَمْسَةِ فرنْكَاتٍ ؟ أَخَذَ يَسْتَعْرِضُ فِي ذِهْنِهِ أَقْرِبَاءَهُ وَأَصْدِقَاءَهُ الْقَادِرِينَ عَلَى إِعَارَتِهِ هَذَا الْمَبْلَغَ . وَاهْتَدَى إِلَى اِبْنِ عَمٍّ آخَرَ لَهُ يُدْعَى « مُحَمَّد » يَعْمَلُ بِالْبَرِيدِ . فَذَهَبَ تَوًّا إِلَيْهِ ، وَشَرَحَ لَهُ الْمَوْضُوعَ فَقَالَ لَهُ :

ـ أَمْهِلْنِي ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ وَفِي الْيَوْمِ الرَّابعِ إيتِنِي إِلَى هُنَا سَتَجِدُ الْمَبْلَغَ .

ـ بَارَكَ اللَّهُ فِيكَ يَا ابْنَ عَمِّي وَكَثَّرَ مِنْ أَمْثَالِكَ .

فَنَظَرَ إِلَيْهِ « مُحَمَّد » نَظْرَةً اِسْتَغْرَبَهَا « الطَّاهِر » وَلَمْ يَفْهَمْ مَعْنَاهَا .

وَفِي الْيَوْمِ الرَّابعِ كَانَ وَالِدُ « الطَّاهر » فِي الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ يَطْرُقُ غُرْفَةَ ٱبْنِهِ ، وَيَصِيحُ بِهِ أَنِ افْتَحْ . فَقَامَ « الطَّاهر » مِنْ فِرَاشِهِ هَلِعَ الْفُؤَادِ وَكَأَنَّهُ فِي حُلْمٍ وَفَتَحَ الْبَابَ فَوَجَدَ أَبَاهُ بِقَامَتِهِ الطَّوِيلَةِ ، مُنْتَصِبًا أَمَامَهُ وَصَوْتُهُ يُجَلْجِلُ قَائِلاً :

ـ تُرِيدُ أَنْ تَدْخُلَ مَدْرَسَةَ الْفَسَادِ ، مَا شَاءَ اللَّهُ ، يَا تَبَارَكَ اللَّهُ ، شرِكَةُ التَّرَامْوَاي وَأَعْوَانُهَا . لَمْ يَبْقَ لَكَ إِلاَّ أَنْ تَكْرَعَ مِنْ عِلْمِهِمْ .

ـ وَمَنْ أَعْلَمَكَ بِـهَذَا ؟

قَالَ ذَلِكَ « الطَّاهِر » فِي وَجَلٍ كَبِيرٍ .

ـ مَنْ أَعْلَمَنِي ! ابْنُ عَمِّكَ « مُحَمَّد » ، أَرْسَلَ إِلَيَّ بَرْقِيَّةً يَسْتَشِيرُنِي فِي ذَلِكَ ، ٱبْنُ عَمِّكَ يَسْتَشِيرُنِي وَأَنْتَ تَفْعَلُ مَا تُرِيدُ . مِنَ الآنَ فَصَاعِدًا لاَ أَسْمَحُ لَكَ بِأَنْ تَتَحَرَّكَ بِدُونِ إِذْنِي ، تَرَكْتُكَ فِي الْـمَرَّةِ الأُولَى لأَنِّي قُلْتُ فِي نَفْسِي : يُرِيدُ أَنْ يُوَاصِلَ تَعَلُّمَهُ ، لاَ بَاسَ . أَمَّا الآنَ فَقَدْ فَاضَ الْكَأْسُ . اِبْقَ فِي الْوَكَالَةِ فِي هَذَا الْيَوْمِ ، لاَ تُفَارِقْهَا سَآتِيكَ بَعْدَ حِينٍ .

وَخَرَجَ يُلَفْلِفُ « حَرَامَهُ » (أَيْ عَبَاءَتَهُ) وَيُسَوِّي « زَمَالَةَ » شَاشِيَتِهِ وَيَتَعَثَّرُ فِي بَلْغَتِهِ .

لَمْ تَمْضِ بِضْعُ سَاعَاتٍ حَتَّى رَجَعَ وَالِدُ « الطَّاهِرِ » وَبِيَدَيْهِ صُرَّةٌ فَتَحَهَا وَأَخْرَجَ مِنْهَا جُبَّةً زَرْقَاءَ ، وَقَمِيصًا بِرَقَبَةٍ قَصِيرَةٍ وَ «سِدْرِيَّة » وَ « فَرْمَلَة » كَتَّانٍ وَبَلْغَةً وَشَاشِيَةً وَزَمَالَة (عِمَامَة) وَأَمَرَ ابْنَهُ بِلِبَاسِهَا حَالاً رَيْثَمَا يَشْرَبُ قَهْوَةً بِالْمَقْهَى الْمُجَاوِرِ وَقَالَ لَهُ وَهُوَ مُتَّجِهٌ إِلَى الْبَابِ :

ـ كَانَ عَلَيَّ أَنْ أُمَسِّدَكَ بِتِلْكَ الْعَصَا . وَنَظَرَ إِلَى عَصَاهُ الَّتِي أَخَذَهَا مِنْهُ « الطَّاهِرِ » مُنْذُ ثَلاَثِ سَنَوَاتٍ عِنْدَمَا غَادَرَ الْقَرْيَةَ وَقَد احْتَفَظَ بِهَا لَيْسَ يَدْرِي لِمَاذَا ؟ .

وَجَدَ « الطَّاهِر » نَفْسَهُ أَمَامَ هَذِهِ الثِّيَابِ الْجَدِيدَةِ ، وَانْدَهَشَ لِسَخَاءِ وَالِدِهِ ، وَلاَحَظَ أَنَّ السِّرْوَالَ غَيْرُ مَوْجُودٍ وَلَكِنَّهُ تَذَكَّرَ أَنَّ أَهْلَ بَلْدَتِهِ لَمْ يَعْرِفُوا بَعْدُ السَّرَاوِيلَ ، وَقَرَّرَ أَنْ يَلْبَسَ بَنْطَلُونَهُ وَيَطْوِيَهُ إِلَى فَوْقٍ فَلاَ يَظْهَرُ مِنْ تَحْتِ الْجُبَّةِ .

وَسُرَّ لاَمُحَالَةَ بِهَذَا الْهِنْدَامِ الْجَدِيدِ ، عِنْدَمَا سَوَّى فِي آخِرِ الأَمْرِ الشَّاشِيَةَ مَعَ الْعِمَامَةِ ، وَلَكِنَّهُ بَقِيَ مَشْغُولَ الْبَالِ بِقَصْدِ وَالِدِهِ ، مِنْ كُلِّ هَذَا السَّخَاءِ الَّذِي لَمْ يَعْرِفْهُ مِنْهُ مِنْ قَبْلُ .

غَيْرَ أَنَّ وَالِدَهُ لَمْ يُمْهِلْهُ كَثِيرًا ، فَقَدْ نَادَاهُ مِنْ بَعِيدٍ فَمَا كَانَ مِنَ « الطَّاهِر » إِلاَّ أَنْ أَغْلَقَ بَابَ غُرْفَتِهِ وَسَارَعَ إِلَى الْبَابِ الْخَارِجِيِّ مِنَ « الْوَكَالَة » فَوَجَدَ أَبَاهُ مَعَ نَفَرَيْنِ يَعْرِفُهُمَا مِنْ قَدِيمٍ فَحَيَّاهُمَا وَبَادَرَهُ وَالِدُهُ قَائِلاً :

ـ الآنَ سَنَذْهَبُ إِلَى « بَارْدُو » لِنَتَغَدَّى عِنْدَ الْفَرِيكِ (جِنِرَال) مُصْطَفَى وَهُوَ صَدِيقٌ لِي يُرِيدُ أَنْ يَعْرِفَكَ وَيَتَحَاوَرَ مَعَكَ وَيَتَبَيَّنَ دَرَجَةَ عِلْمِكَ .

قَالَ الطَّاهِرِ فِي نَفْسِهِ :

ـ هُوَ امْتِحَانٌ أَمْ غَدَاءٌ ؟ .

وَلَكِنَّهُ بَاشَرَ وَالِدَهُ قَائِلاً :

ـ دَرَجَةُ عِلْمِي ظَاهِرَةٌ عَلَى وَجْهِي وَبَيِّنَةٌ مِنْ ثِيَابِي وَعِمَامَتِي .

وَكَأَنَّ ثُفَايَةً مِنَ الْغُرُورِ أَلَـمَّتْ بِالطَّاهِر ، وَقَارَنَ بَيْنَ لِبَاسِهِ هُوَ وَلِبَاسِ وَالِدِهِ ، وَرَفِيقَيْهِ ، هُوَ بِجُبَّتِهِ وَكُلُّ مَا يَتَمَاشَى مَعَهَا مِنْ تَوَابِعَ وَوَالِدُهُ بِقَمِيصِهِ (سُورِيَّةٌ مُدَوَّرَةٌ) بِدُونِ يَاقَةٍ وَالْـمُسْتَرْسِلِ إِلَى الْكَعْبَيْنِ « وَبِحَرَامِهِ » (عَبَاءَتِهِ) وَبَلْغَتِهِ ، وَشَاشِيَتِهِ « الْـمُزَمَّلَةِ » بِعَمَامَةِ « تِبْرُورِي » (قُمَاشٌ مُحَبَّبٌ) وَهُوَ لِبَاسُ الْعَامَّةِ .

وَصَلاَ إِلَى « بَاب سُوِيقَة » وَهْيَ تَعِجُّ بِالنَّاسِ وَبَطْحَاؤُهَا تَـمُـوجُ بِالْعَرَبَـاتِ (الْكَرَارِس) وَبِالبَرَاوِطِيَّةِ الَّذِينَ يَتَفَنَّنُون فِي وَصْفِ سِلَعِهِمْ مِنْ بَطَاطَا وَطَمَاطِم ، وَرُمَّانٍ ، وَدِقْلَـة وَمَادَلِينَـة وَقَسْطَـلٍ وَمَـوْزٍ وَ « الشِّيَاتَـة » يَغْـدُونَ وَيَرُوحُـونَ وَالتِّرَامْوَاي يَئِزُّ بِصَوْتِهِ الْمَأْلُوفِ ، وَالنَّاسُ يَتَسَاقَطُونَ عَلَيْهِ كَالذُّبَابِ الْحَافِلِ قُرْبَ عَرَاجِين « الدِّقْلَة » الْـمُعَلَّقَة فِي وَاجِهَاتِ دَكَاكِينِ الْغِلاَلِ ، أَوِ اللاَّصِقِ بِطَوَابِقِ اللَّحْمِ الْـمُزَيَّنَةِ لِحَوَانِيتِ الْجَزَّارِينَ .

اِنْدَفَعَ الْجَمَاعَةُ نَحْوَ « التِّرَامْوَاي » الذَّاهِبِ إِلَى « بَارْدُو » وَصَعِدُوا إِلَيْهِ بِصُعُوبَة ، وَحَاوَلُوا إِيجَادَ مَكَانٍ لِلْجُلُوسِ فَلَمْ يَقْدِرُوا ، وَلَمَحَ وَالِدُ « الطَّاهِر » فِي أَقْصَى الْعَرَبَةِ مَقْعَدًا ، فَاتَّجَهَ إِلَيْهِ يَدْفَعُ النَّاسَ دَفْعًا . وَصَلَ أَخِيرًا إِلَى الْمَكَانِ الشَّاغِرِ الْمُخَصَّصِ لِلرَّاكِبِيـنَ . وَلَكِـنَّ اِمْرَأَةً بَدِينَةً ، مُلْتَحِفَةً أَخَذَتْ مِنْهُ ثَلاَثَةَ أَرْبَاعِ الْمِسَاحَةِ . قَالَ لَهَا وَالِدُ « الطَّاهِر » :

ـ إِفْسَحِي لِي مَكَانًا أَيَّتُهَا الْـمَرْأَةُ .

ـ اِجْلِسْ وَلاَ عَلَيْكَ .

ـ أَحَسِبْتِنِي عُصْفُورًا حَتَّى أَجْلِسَ فِي هَذَا الشِّبْرِ مِنَ الْكُرْسِـيِّ .

ـ يَا سَلاَمَةَ فَمِهِ ! رَجُلٌ يُسَقِّفُ بَيْتًا وَمَعْصَرَةً وَيَحْسِبُ نَفْسَهُ عُصْفُـورًا وَهُـوَ مَلْفُوفٌ فِي « حَرَامِهِ » كَأَنَّهُ « سَرَّافَةٌ » (سُلَّمٌ طَوِيلٌ) .

ـ أَمَّا أَنْتِ يَا أَيَّتُهَا الْـمَرْأَةُ الرَّشِيقَةُ الْقَوَامِ ، « التَّحْفُونَةُ » الَّتِي تُوضَـعُ عَلَى الْكَفِّ فَتَطِيرُ . لُـمِّي نَفْسَكِ شَيْئًا مَا ، وَاقْتَصِـدِي فِي الشَّخِـيرِ يَرْحَمُـكِ اللَّـهُ ، فَالتِّرَامْوَاي لَيْسَ سَقِيفَةَ دَارِكِ .

وَبَدَأ الضَّحِكُ فِي الْعَرَبَة وَالانْصَاتُ إلىَ هَذَا الْحِوَار الَّـذِي أظْهَـرَ فِيهِ وَالِـدُ « الطَّاهِرِ » بَرَاعَةً كَبِيرَةً وَمَيْلاً إلىَ النُّكْتَةِ ، وَحِذْقًا فِي تَنْمِيقِ الـكَلاَمِ بِلَهْجَـةِ « البَلْدِيَّةِ » مَعَ مُبَالَغَةٍ فِيهَا .

وَأخِيرًا أفْحَمَ الْـمَرْأةَ فَسَكَتَتْ ثُمَّ قَامَتْ لِتَنْزِلَ فِي مَحَطَّةٍ . وَبَقِيَ الرُّكَابُ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إلىَ بَعْضٍ « وَالْخَلاَّصُ » يَـمُرُّ بَيْنَهُمْ طَالِبًا ثَمَنَ التَّذَاكِرِ . وَ « الطَّاهِر » يَنظُرُ إِلَيْهِ وَيَقُولُ فِـي نَفْسِهِ :

ـ لِمَاذَا أنْكَرَ عَلَيَّ وَالِدِي الْعَمَلَ مِثْلَ هَذَا الشَّابَّ فِي هَذِهِ الشرِكَةِ ؟ قَالَ : إنَّهَا مَدْرَسَةُ الْفَسَادِ . أيَظُنُّ أنَّنِي سَأنْسَاقُ بِسُهُولَةٍ إلىَ مُعَاشَرَةِ الطَّائِشِينَ ؟ ألَمْ يَعْرِفْ أنَّ « عَبْد اللَّه » ابْنَ عَمِّي يَعِيشُ الآنَ وَسَطَ « الشّيخَاتِ » ؟ وَدَعَانِي مَرَّاتٍ عَدِيدَةً وَلَكِنِّي أنْكَرْتُ عَلَىَ نَفْسِي أنْ آتِيَ إلىَ تُونِسَ وَأنْسَاقَ إلىَ مِثْلِ هَذِهِ الأمُورِ . لَقَدْ بَذَلْتُ جُهْدًا كَبِيرًا مَعَ أُخْتِهِ لِتَأْتِـيَ بِهِ إلىَ تُونِسَ وَخَرَجَ مِنْ ذَلِكَ الْجَحِيمِ الَّذِي دُفِعَ إلَيْهِ دَفْعًا . وَوَجَدَ مِنَ الْيَسِيرِ عَلَيْهِ أنْ يَعْمَلَ فِي مَقْهَـى صِهْـرِهِ ، وَأنْ يَقْضِـيَ لَيَالِيَهُ فِي الْحَفَلاَت ، وَالْـمُلْهِيَاتِ وَيَـنْسَاقَ إلىَ هَذِهِ الْحَيَاةِ ، حَيَاةِ الدَّعَةِ وَالْفَنِّ وَالْغَرَامِ وَقَرْعِ كَاسَاتِ الْـمُدَامِ . يَا سُبْحَانَ اللَّهِ ! بَعْدَ الْبَغْلِ وَ « الكَرِّيطة » وَخَدَّامَةِ الزَّيْتُونِ وَلِبَاسِ « الْكَدْرُون » يَنْقَلِبُ « عَبْد اللَّه » شَخْصًا آخَـرَ يَنْعَـمُ بِجَمَالِ الرَّاقِصَاتِ ، والْـمُغَنِّيَاتِ ، وَالْـمُمَثِّلاَتِ ، وَيَنْصَهِرُ فِي عَالَـمِ الْـمَسْرَحِ وَالْغِنَاءِ . غَرِيبٌ أمْرُ هَذِهِ الدُّنْيَا كُلِّهَا اشْتَدَّتْ بِالانْسَانِ ، وَأذَاقَتْهُ مَرَارَةَ الْعَيْشِ ، وَسَقَتْهُ مِنَ الذِّلَّةِ وَالْـمَهَانَةِ ألْوَانًا وَألْوَانًا ، وَصَبَرَ عَلىَ ذَلِكَ ، وَقَدَرَ عَلىَ الصُّمُودِ إلاَّ وَانْتَشَلَتْهُ فِي آخِرِ الأمْرِ وَبَدَّلَتْ عُسْرَهُ يُسْرًا . الشَّرْطُ الْوَحِيدُ هُوَ الصُّمُودُ ، وَالدَّوَامُ ، وَالْوُقُوفُ فِي وَجْهِ الْكَوَارِثِ مِنْ دُونِ التَّرَدِّي فِي هُوَّتِهَا وَالاسْتِسْلاَمِ لَهَا كَهَذِهِ الْحَنَايَا الْـمَائِلَةِ عَلىَ مَرِّ الدَّهْرِ .

وَمَرَّ « التَّرَامْوَاي » بِالْحَنَايَا الْقَرِيبَةِ مِنْ «بَابِ سَعْدُون » وَوَقَفَ فِي مُسْتَوَاهَا ،

وَصَعِدَ مُرَاقِبُ الشرِكَةِ وَهُوَ فِرَنسِيٌّ ، وَبَدَأَ فِي طَلَبِ التَّذَاكِرِ ، وَهُوَ شَامِخٌ بِأَنْفِهِ كَأَنَّهُ قَائِدُ حَمْلَةٍ مِنْ حَمَلاَتِ الاسْتِعْمَارِ .

لَمْ يُعِرْهُ اِهْتِمَامًا كَبِيرًا لأَنَّ التَّذَاكِرَ عِنْدَ وَالِدِهِ . وَاسْتَطَابَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ مُنَبِّهَ التَّرَامْوَاي :

ـ تِنْ ... تِنْ تِنْ تِنْ ... تِنْ .

فَقَامَ وَاقْتَرَبَ مِنَ السَّائِقِ ، فَوَجَدَهُ يَضْرِبُ بِطَرَفِ قَدَمِهِ مِسْمَارًا ، رَأْسُهُ كَبِيرٌ ، فَيُحْدِثُ ذَلِكَ الصَّوْتَ الَّذِي اسْتَطَابَهُ ، وَيُحَرِّكُ بِخِفَّةٍ حَدِيدَةً ، تَزِيدُ وَتُنْقِصُ فِي السُّرْعَةِ ثُمَّ هُوَ إِذَا أَرَادَ تَوْقِيفَ « التَّرَامْوَاي » أَخَذَ يُدِيرُ فِي حَرَكَةٍ سَرِيعَةٍ مِقْبَضًا وَكَأَنَّ أَمَامَهُ رَحًى ، يَرْحِي بِهَا حَبًّا . فَتَسْمَعُ لِلْعَجَلاَتِ أَزِيزًا ، فَيَتَبَاطَأُ سَيْرُ « التَّرَامْوَاي » ثُمَّ يَشْتَدُّ ضَغْطُ الرَّحَى فَيَقِفُ « التَّرَام » .

قَالَ « الطَّاهِر » فِي نَفْسِهِ :

ـ مَنْ لاَ يَقْدِرُ عَلَى هَذَا ؟ إِنَّهَا لُعْبَةٌ وَاللَّهِ . لَوْ تَرَكُونِي ، لَكُنْتُ الْيَوْمَ أَحَدَ الرَّجُلَيْنِ : الخَلاَّصَ أَوِ السَّائِقِ ، لَكِنْ سَامَحَ اللَّهُ وَالِدِي . إِنَّهُ دَائِماً يَجْرِي وَرَاءَ عُظَمَاءِ تُونِسَ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَنَلْ مِنْ خُلْطَتِهِ شَيْئًا وَلَوْ حَتَّى مَظَاهِرَ الْعَظَمَةِ .

وَأَحَسَّ بِأَنَّ فِي زَوَايَا نَفْسِهِ بَقَايَا مِنَ الطُّفُولَةِ ، جَعَلَتْهُ يَسْتَطِيبُ رُكُوبَ « التَّرَام » وَيَتَلَهَّى بِصَوْتِ الْمُنَبِّهِ وَبِحَرَكَاتِ السَّائِقِ ، وَوَدَّ لَوْ أَنَّهُ يُجَرِّبُ حَظَّهُ ، غَيْرَ أَنَّ صَوْتًا صَاحَ :

ـ آخِرُ مَحَطَّة ... « تَرمِينُوسْ » ... بَارْدُو ...

نَزَلَ الجَمَاعَة فِي مَحَطَّةِ « بَارْدُو » أَمَامَ مَقْهَى صَغِيرٍ . قَالَ وَالِدُ « الطَّاهِر » :

ـ بَعْدَ رُبع سَاعَةٍ نَصِلُ إِلَى مَنْزِلِ الْفَرِيكِ مُصْطَفَى ...

وَسَارَ الْقَوْمُ بِضْعَةَ أَمْتَارٍ ثُمَّ عَرَّجُوا نَحْوَ اليَمِينِ . وَوَلَجُوا بَقَايَا بَاب قَدِيمٍ . قَالَ « أَبِّي مُحَمَّد » وَالِدُ « الطَّاهِر » :

ـ هَذَا بَابُ « بَارْدو » الَّذِي كَانَتْ تُعَلَّقُ عَلَيْهِ الرُّؤُوسُ . ثُمَّ سَارُوا قَلِيلاً وَقَالَ لَـهُمْ :

ـ هَذَا قَصرُ بَارْدُو يَأْتِيهِ الْبَايُ فِي الأَعْيَادِ . وَهَذَا هُوَ الـمَسْجِدُ الَّذِي يُصَلِّي فِيهِ (مُشِيرًا إِلَى الْمَسْجِدِ الْمُقَابِلِ) وَهَذِهِ دَارُ الْعَجَائِبِ فِيهَا أَخْبَارُ الأَوَّلِينَ .

وَلَمَّا فَاتُوا قَلِيلاً الـمَسْجِدَ مُتَّجِهِينَ نَحْوَ « قَصر السَّعِيدِ » وَجَدُوا ثَكْنَةً أَمَامَهَا جُنْدِيٌّ يَحْرُسُهَا فَقَالَ « أَبَّـيْ مُحَمَّد » :

ـ هَذِهِ قِشْلَةُ « الطُّبْجِيَّة » ثَكْنَةُ الـمَدْفَعِيَّة حَيْثُ كَانَ عَمُّكَ يَا « طَاهر » يُدَرِّبُ الْعَسْكَر . وَهَذَا الـمَكَانُ الـمُقَابِلُ الَّذِي فِيهِ بِئْرٌ وَحَدِيقَةٌ صَغِيرَةٌ مَسْكُونٌ مِنَ الْجِنِّ . عِنْدَمَا زُرْتُ عَمَّكَ عَامَ سِتَّةَ وَانْتَظَرْتُهُ ، لَيْلاً هُنَا ، خَرَجَ لِي مَيِّتٌ بِأَكْفَانِهِ يَـمْشِي عَلَى رِجْلَيْهِ ، وَأَخَذَ يَطُولُ حَتَّى ارْتَفَعَ إِلَى مُسْتَوَى هَذِهِ الشَّجَرَةِ . وَلَوْلاَ رَبَاطَـةُ جَأْشِي ، وَشَجَاعَتِي لَكُنْتُ أُصَابُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ بِـمَسٍّ مِنَ الْجُنُونِ . وَلَكِنَّنِـي مُتَعَوِّدٌ هَذِهِ الأُمُورَ فِي « جنَانِي » بِالْبَلَد مَعَ الْغُولَةِ « حَلِيمَة » وَلِـهَذَا فَإِنَّنِي لاَ أَخْشَى شَيْئًا مِنَ الْجِنِّ . وَلَعَلَّ « حَلِيمَة » هِيَ الَّتِي تَحْمِينِي مِنْ إِخْوَانِهَا .

وَعَرَفَ « الطَّاهِر » أَنَّ وَالِدَهُ لاَ يَتَوَقَّفُ أَبَدًا ، إِلاَّ ، بِجُهْدٍ جَهِيدٍ ، عِنْدَمَا يَدْخُلُ هَذَا الْبَحْرَ وَلَكِنَّهُ يَسْتَطِيبُ حِكَايَاتِهِ ، لأَنَّهَا مِنْ نَسْجِ الْخَيَالِ ، وَفِيهَا حُبْكَةٌ لاَ يَقْدِرُ عَلَيْهَا إِلاَّ وَالِدُهُ . وَمَا أَنْ عَرَّجُوا نَحْوَ طَرِيقِ « مَاطِر » وَسَارُوا خُطُوَاتٍ حَتَّى أَشَارَ لَـهُمْ بِإِصْبِعِهِ إِلَى قَصرٍ كَبِيرٍ وَقَالَ :

ـ هَذَا قَصْـرُ السَّعِيدِ ـ هُوَ قَصْـرُ الشُّؤْمِ ... هُنَا أُمْضِيَتْ مُعَاهَـدَةُ الْحِمَايَةِ مِنْ طَرَفِ الصَّادِقِ بَايْ وَالآنَ أَصْبَحَ خَالِيًا إِلاَّ مِنْ بَعْضِ الْحُـرَّاسِ أَوْ الـمُكَلَّفِـينَ بِخِدْمَةِ « السَّانِيَة » ... لَمْ يَبْـقَ لَنَـا إِلاَّ مَسِـيرَةُ عَشْرِ دَقَائِـقَ لِنَصِـلَ إِلَى قَصرِ « الْفَرِيك مُصْطَفَى » ....

* * *

وَقَفَتْ الجَمَاعَةُ أَمَامَ بِنَايَةٍ ظَهَرَتْ « للطَّاهِرِ » عَظِيمَةً شَامِخَةً فِي السَّمَاءِ ، لَهَا بَابٌ كَبِيرٌ جِدًّا وَأَمَامَهُ « كَرُوسَةٌ » وَبِجَانِب ذَلِكَ الْبَاب بَابٌ أَصْغَرُ مِنْـهُ قَالَ « أُبَـيٌ مُحَمَّد » :

ـ هَذَا لَيْسَ هُوَ الْـمَدْخَلُ الرَّئِيسِيُّ ... الْـمَدْخَلُ الرَّئِيسِـيُّ مِنَ الجَانِبِ الآخَرِ ، وَيَجِبُ أَنْ نَـمُرَّ مِنَ « السَّانِيَة » ... تَعَوَّدَ الجَمِيعُ الدُّخُولَ مِنْ هُنَا وَهُوَ أَيْسَرُ .. إِلاَّ فِي الْـمُنَاسَبَاتِ الْكَبِيرَةِ ، فَالدُّخُولُ مِنْ بَابِ الْقَصْـرِ .

وَدَلَفَ الجَمَاعَةُ نَحْوَ الْبَابِ الصَّغِيرِ ، وَصَعِدُوا ثَلاَثَ دَرَجَاتٍ ، فَوَجَدُوا غُرْفَةً عَنِ الْيَمِينِ فِيهَا حَارِسٌ مَغْرِبِـيٌّ سَلَّمَ عَلَيْهِمْ وَمَشَى أَمَامَهُمْ خُطُـوَاتٍ ثُـمَّ صَعِدَ مَدْرَجًا عَنِ الْيَسَارِ ، فَتَبِعُوهُ وَوَصَلُوا بِسُرْعَةٍ إِلَى بَهْوٍ بِهِ نَافِذَةٌ تَفْتَحُ عَلَى الطَّرِيقِ الَّتِي أَتَوْا مِنْهَا . هُنَاكَ اسْتَقْبَلَهُمْ « الْفَرِيك مُصْطَفَى » بِالتَّرْحَابِ :

ـ عَلَى سَلاَمِتْكُمْ ، زَارَتْنَا الْبَرَكَةُ .

ـ اللَّهُ يُسَلِّمُكُمْ ... هَذَا ابْنِي « الطَّاهِر » .... وَهَذَانِ صَدِيقَانِ لِي أَرَادَا مَعْرِفَتَكَ وَمَعْرِفَةَ أَكْلِ « الْبَلْدِيَّة » .

ضَحِكَ « الْفَرِيك مُصْطَفَى » ضِحْكَةً تَدُلُّ عَلَى طِيبَتِهِ وَسُمُوِّ أَخْلاَقِـهِ ، وَهُـوَ رَجُلٌ ، مَدِيدُ الْقَامَةِ ، بَهِيُّ الطَّلْعَةِ ، مُدَوَّرُ الْوَجْهِ ، تَظْهَرُ عَلَيْهِ شَمَائِلُ الْـمُـرُوءَةِ وَالْكَرَمِ وَالنُّبْلِ ، يَلْبَسُ « شَاشِيَّةً » ذَاتَ « كُبِّيتَة » طَوِيلَةٍ ، وَجُبَّةً وَ « بَدْعِيَّةً » وَ « كُنْتَرَة » فِي رِجْلَيْهِ وَبِيَدِهِ « بَاكِيتَة » مُحَلَّبَةٌ بِالْفِضَّةِ .

ـ تَفَضَّلُوا ... تَفَضَّلُوا .

وَأَشَارَ « الْفَرِيك مُصْطَفَى » إِلَى بَابٍ عَنِ الْيَمِينِ ، بَيْنَمَا لَمَحَ « الطَّاهِر » قُبَالَتَهُ مَمَرًّا وَاسِعًا يُبْلَغُ إِلَيْهِ بَعْدَ صُعُودِ أَرْبَعِ دَرَجَاتٍ ، فِيهِ حَرَكَةٌ نَشِيطَةٌ ، وَوُجُوهٌ نِسَائِيَّةٌ تَظْهَرُ وَتَخْتَفِي لِرُؤْيَةِ الْقَادِمِينَ .

دَخَلَ الْقَوْمُ الْبَابَ ، وَعَرَفُوا أَنَّ هَذَا هُوَ « مَقْعَدُ » الْفَرِيك فِيهِ بَعْضُ الْغُرَفِ ،

وَفِيهِ تَظْهَرُ عَلَى الْيَسَارِ مَكْتَبَةٌ جَلِيلَةٌ ، بَابُهَا مَفْتُوحٌ ، وَأَمَامَهُمْ نَافِذَةٌ كَبِيرَةٌ تُشْرِفُ عَلَى « السَّانِيَةِ » بِجَابِيَتِهَا الْمُتَّسِعَةِ الْمَلأَنَةِ مَاءً .

قَالَ الْفَرِيك ، وَقَدْ خَطَا خُطُوَاتٍ نَحْوَ مَمَرٍّ فَسِيحِ الأَرْجَاءِ فِي رُكْنٍ مِن مَطْبَخٍ مَهْجُورٍ :

ـ أُنْظُرُوا إِلَى هَذِهِ الْجَابِيَةِ ... إِنَّ لَهَا عُيُونًا لاَ تَكِفُّ عَنِ الْجَرَيَانِ . هِيَ بُنِيَتْ عَلَى نَمَطٍ فِسْقِيَّةِ الأَغَالِبَة .... وَمِنَ الْعَسِيرِ جِدًّا تَفْرِيغُهَا وَتَنْظِيفُهَا ... وَلِـهَذَا فَهْيَ تَظْهَرُ وَسِخَةً بِهَذَا الْحَزِّ وَلَكِنِّي حَلَّلْتُ مَاءَهَا وَوَجَدْتُهُ صَالِحًا لِلشَّرَابِ وَمَعَ ذَلِكَ فَنَحْنُ لاَ نَشْرَبُ مَاءَهَا .

قَالَ وَالِدُ « الطَّاهر » :

ـ لاَ عَلَيْكَ ... وَاللَّهِ لَوْ شَرِبْتُ مَاءَ الْغَدِيرِ الآنَ لَنَالَهُ مِنِّي مَا يَسُوءُهُ وَلاَعْتَلَّ عِلَّةً يَحْتَارُ فِيهَا الأَطِبَّاءُ . أَمَّا هَذَانِ « الْعَصْرُوطَانِ » فَإِنَّ الْمـاءَ الصَّافِي يُضِرُّ بِهِمَـا .

فَضَحِكَ الْفَرِيك حَتَّى دَمَعَتْ عَيْنَاهُ ، وَفَهِمَ « الطَّاهر » أَنَّ وَالِدَهُ حَاذِقٌ فِي إِدْخَالِ الْـمَرَحِ عَلَى هَذَا السَّيِّدِ وَإِشَاعَةِ جَوٍّ مِنَ الانْشِرَاحِ حَتَّى بِأَبْسَطِ النَّوَادِرِ .

عَالَـمَانِ إِثْنَانِ الْتَقَيَا فِي هَذَيْنِ الشَّخْصَيْنِ : عَالَمِ « الْبَلْدِيَّة » وَعَالَمِ سَاكِنِي الأَرْيَافِ هُمَا رَكِيزَتَانِ لِتُونِسَ الْخَالِدَةِ ، إِمْتَزَجَا مُنْذُ الدُّهُورِ ، وَبَقِيَا عَلَى طَبَائِعِهِمَا تَتَلاَقَفُهُمَا أَمْوَاجُ الأَحْدَاثِ ، وَتُفَرِّقُ بَيْنَهُمَا حِينًا وَلَكِنَّهُمَا مَحْكُومٌ عَلَيْهِمَا بِالتَّلاَقِـي وَالتَّفَاعُلِ وَالانْدِمَاجِ .

« الْفَرِيك مُصْطَفَى » فِي رِقَّتِهِ ، وَعُلُوِّ ثَقَافَتِهِ ، وَسُمُوِّ مَقَامِهِ ، وَجِدِّهِ ، وَانْشِغَالِهِ بِشُؤُونِ الْبِلاَدِ . وَ « أَبِي مُحَمَّد » فِي عَفْوِيَّتِهِ ، وَبَسَاطَتِهِ ، وَخُشُونَتِهِ ، وَمَعْرِفَتِـهِ الذَّكِيَّةِ لأَحْوَالِ النَّاسِ ، وَثَقَافَتِهِ الشَّعْبِيَّةِ ، وَتَـمَرُّسِهِ بِوَاقِعِ الْجُمْهُورِ .

« الْفَرِيك مُصْطَفَى » يُمَثِّلُ الطَّبَقَةَ الْعُلْيَا مِنَ « الْبَلْدِيَّةِ » وَ « أَبِي مُحَمَّد » هُوَ مِنْ تِلْكَ الْفَصِيلَةِ الْقَادِرَةِ عَلَى تَزَعُّمِ الطَّبَقَاتِ الشَّعْبِيَّةِ وَالْوُقُوفِ مَوْقِفَ النِّدِّ لِلنِّدِّ مَعَ أَمْثَالِ « الْفَرِيك » .

رَجَعَ الْجَمْعُ إِلَى « الْـمَقْعَدِ » وَبُـهِرَ « الطَّاهِر » بِالزَّرَابِي الْـمَبْثُوثَـةِ وَالْـكَرَاسِي « وَالأَبْنَاكِ » الأَنِيقَةِ ، وَالْحِيطَانِ الْـمُغَطَّاةِ بِالْجَلِيزِ الاسْبَانِـيِّ الْبَنَفْسَجِـيِّ وَاللَّوْحَاتِ الْغَالِيَةِ الثَّمَنِ ، فِيهَا الآيَاتُ الْقُرْآنِيَّةُ ، وَالْحِـكَمُ الْـمُذَهَّبَـةُ الْـمَكْتُوبَـةُ بِالْخَـطِّ الْجَمِيلِ ، وَفِيهَا أَيْضًا الْـمَنَاظِرُ الطَّبِيعِيَّةُ الْخَلاَّبَةُ وَبَعْضُهَا احْتَـوَى عَلَى رُسُـوم زَيْتِيَّةٍ لِشَخْصِيَّاتٍ لَمْ يَعْرِفْهَا .

اِتَّجَهَ « الْفَرِيك مُصْطَفَى » فِي كِيَاسَةٍ وَأَدَبٍ إِلَى « الطَّاهِر » وَقَـالَ لَهُ : هَذَا أَخُوكَ « الْعَادِل » فِي الْـمَكْتَبَةِ يُطَالِعُ أُنَادِيهِ لَكَ لِتَعْرِفَهُ وَيَعْرِفَكَ وَنَادَى :

ـ عَادِل ... عَادِل .

ـ نَعَمْ « سَيِّدِي » .

وَدَخَلَ فِي الْحِينِ شَابٌّ فِي عُمُرِ « الطَّاهِر » وَسِيمَ الطَّلْعَةِ مُدَوَّرَ الْوَجْهِ ، كَأَنَّهُ قَمَرُ لَيْلَةَ تَمَامِهِ ، بِلِحْيَةٍ شَقْرَاءَ لاَ طَوِيلَةٍ وَلاَ قَصِيرَةٍ ، فِي عَيْنَيْهِ دَعَجٌ ، يَلْبَسُ جُبَّةً مِثْلَ وَالِدِهِ وَشَاشِيَّةً عَلَى النَّمَطِ نَفْسِهِ .

ـ هَذَا « أَبِّيْ مُحَمَّد » تَعْرِفُهُ وَهَذَانِ صَدِيقَانِ لَهُ مِنَ الْبَلَدِ ، وَهَذَا أَخُوكَ « الطَّاهر » سَتَتَفَّقَانِ وَلاَبُدَّ . فَرِّجْهُ عَلَى الْـمَكْتَبَةِ ثُمَّ « السَّانِيَة » وَالْتَحِقَا بِنَا .

وَتَصَافَحَا ، وَوَقَعَتْ فِي نَفْسِ « الطَّاهِر» عِبَارَةُ « سَتَتَفِقَـانِ وَلاَبُـدَّ » مَوْقِعًـا غَرِيبًا . إِنَّهُ اعْتَادَ أَنْ يُدَبِّرَ الأُمُورَ بِنَفْسِهِ ، وَيُوضَعَ فِي ظُرُوفٍ لاَ تَقْـرَأُ حِسَابًـا لِـمَصَالِحِهِ ، فَتَشْتَبِكُ لَدَيْهِ السُّـبُلُ وَيُضْطَرُّ إِلَى إِعْمَالِ فِكْرِهِ الْكَدِيدِ ، وَمُوَاجَهَةِ حَالاَتٍ مُتَنَاقِضَةٍ تَتَجَاذَبُهُ ، وَتُكَدِّرُ عَلَيْهِ نَفْسَهُ ، فَيَتْرُكُهَا تَعْمَلُ عَمَلَهَا مَا دَامَ غَيْرَ قَادِرٍ عَلَى الْـمُوَاجَهَةِ . أَمَّا فِي هَذِهِ الْـمَرَّةِ فَإِنَّهُ يَجِدُ نَفْسَهُ مُحَاطًا بِعِنَايَةٍ كَبِيرَةٍ ، مُجْبَرًا عَلَى قَبُولِ خُطَّةٍ حِيكَتْ لِصَالِحِهِ . قَالَ فِي نَفْسِهِ :

ـ صَدَقَ « الشَّيْخُ حَسَن » عِنْدَمَا أَكَّدَ لِي فِي حَادِثَةِ بَوْلِ الْكَلْبِ عَلَى سَاقِي : اشْتَدِّي أَزْمَةُ تَنْفَرِجِي ... لَقَدْ فُتِحَ لِي « بَابُ الْعَرْشِ » وَبَدَأْتُ أَشُمُّ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ ...

ثُمَّ رَاجَعَ نَفْسَهُ وَقَالَ :

- لِمَاذَا هَذَا التَّعَجُّلُ فِي الاسْتِبْشَارِ ؟ .. كَلِمَةٌ فَقَطْ فَاهَ بِهَا « الْفَرِيك مُصْطَفَى » لَعَلَّهَا تَدُلُّ عَلَى أَنَّنِي وَابْنَهُ فِي نَفْسِ السِّنِّ نَتَّفِقُ فِي الْـمُيُولِ وَفِي الْحَدِيثِ ... مَا بَالِي أَتَوَاكَلُ هَكَذَا عَلَى النَّاسِ ؟ وَأَظُنُّ أَنِّي مِحْوَرُ شَوَاغِلِهِمْ وَالدُّرَّةُ الثَّمِينَةُ الَّتِي يَتَحَتَّمُ عَلَيْهِمُ التَّخْطِيطُ لَهَا ... مَا أَسْخَفَنِي وَأَتْفَهَ أَحْلاَمِي ..! بِئْسَ الْيَوْمُ الَّذِي خُلِقْتُ فِيهِ وَعَرَفْتُ هَذَا الْعَالَمَ الْـمُمَزَّقَ ، الْـمُتَنَاقِضَ الَّذِي وَجَدَتْ فِيهِ فِئَةٌ نَفْسَهَا مُعْدَمَةً ، فَقِيرَةً وَأُخْرَى فَتَحَتْ عَيْنَيْهَا عَلَى الْخَيْرَاتِ السَّبْعِ ... وَمَا هِيَ هَذِهِ الْخَيْرَاتُ السَّبْعُ الَّتِي تَقُولُ عَنْهَا أُمِّي ... لَمْ يَعُدَّهَا أَحَدٌ أَمَامِي وَلاَ أَعْرِفُ مَا هِيَ ؟ .. وَبَابُ الْعَرْشِ هَذَا الَّذِي يَتَحَدَّثُ عَنْهُ النَّاسُ مَا هُوَ ؟

لَحَظَاتٌ مَرَّتْ عَلَى « الطَّاهِرِ » وَهُوَ يَصْعَدُ دَرَجَاتٍ ، قَلِيلَةً ، مُتَوَجِّهًا إِلَى الْمَكْتَبَة وَرَاءَ « عَادِل » ... لَحَظَاتٌ غَرِقَ فِيهَا فِي لُجٍّ مِنَ الأَفْكَارِ وَالْـهَوَاجِسِ .

- هَذِهِ مَكْتَبَةُ أَبِي وَرِثَهَا عَنْ وَالِدِهِ وَأَثْرَاهَا بِالْكُتُبِ الْفَرَنْسِيَّةِ وَالْـمَخْطُوطَاتِ ... هِيَ مَكْتَبَةٌ نَادِرَةُ الْوُجُودِ ...

- نَعَمْ هِيَ عَظِيمَةٌ ...

وَأَخَذَا يَـمُرَّانِ أَمَامَ الْخَزَائِنِ وَ « الطَّاهِرِ » يَنْظُرُ إِلَى الْكُتُبِ ، وَيُحَاوِلُ أَنْ يَقْرَأَ عَنَاوِينَهَا وَلَكِنَّهُ مَشْغُولُ الْخَاطِرِ . لَقَدْ تَعَطَّلَتْ حَوَاسُّهُ فَهُوَ يَنْظُرُ وَلاَ نَظَرَ ، وَيَسْمَعُ وَلاَ سَمْعَ ، وَيَشُمُّ وَلاَ شَمَّ ، وَتَذَكَّرَ تِلْكَ الْحَالَةِ الَّتِي وَجَدَ نَفْسَهُ فِيهَا فَوْقَ « الْكَرِّيطة » وَهُوَ فِي طَرِيقِهِ إِلَى تُونِسَ .

وَلَكِنَّهُ فِي هَذِهِ الْـمَرَّةِ وَبَعْدَ مِحْنَتِهِ الَّتِي دَامَتْ ثَلاَثَ سَنَوَاتٍ ، حِرْمَانًا وَجُوعًا ، وَبَرْدًا وَمَهَانَةً ، وَجَدَ أَنَّ حَوَاسَّهُ قَدْ تَعَطَّلَتْ وَعَوَّضَتْهَا هَذِهِ الأَحْلاَمُ وَالْـهَوَاجِسُ وَالأَفْكَارُ الَّتِي لاَ تُسْمِنُ وَلاَ تُغْنِي مِنْ جُوعٍ ... كَادَ أَنْ يَكُونَ مُجَرَّدَ هَبَاءَةٍ تَتَقَاذَفُهَا أَفْكَارٌ طَائِشَةٌ .

أَحَسَّ بِنَفْسِهِ أَنَّهُ فِي حَالٍ تُشْبِهُ مَا قَرَأَهُ مِنْ حَالاَتِ الشُّعَرَاءِ أَوِ الأَنْبِيَاءِ ... يُحَلِّقُ فِي سَمَوَاتِ الْخَلْقِ وَالْوَحْيِ ... وَلَكِنَّهُ مِنْ أَيْنَ لَـهُ الْجَنَاحَانِ لِيَطِيرَ بِـهِمَا !؟ وَتَذَكَّرَ عَبَّاسَ بْنَ فِرْنَاسَ الْعَالِمَ الْعَرَبِـيَّ الَّذِي حَاوَلَ أَنْ يَطِيرَ وَلَكِنَّهُ وَقَعَ عَلَى الأَرْضِ وَكُسِرَتْ رِجْلاَهُ .

- يَا سَتَّـار يَا جَبَّـار... آ ... لاَ بَأْسَ ... لاَ بَأْسَ ! صَاحَ بِـهَـذِهِ الْعِبَـارَاتِ « عادل » عِنْدَمَا رَأَى « الطَّاهِر » يَسْقُطُ وَقَدِ انْزَلَقَ فَوْقَ رُخَامِ الْقَاعَةِ وَأَخَذَ بِيَدِهِ وَهُوَ يَقُولُ :

- لَكَمْ قُلْتُ لَـهُمْ : أَنْ يُغَطُّوا هَذَا الْمَكَانَ بِزَرْبِيَّةٍ وَلَكِنَّهُمْ يَرَوْنَ أَنَّ ذَلِكَ يُفْقِدُ أَرْضِيَّةَ الْقَاعَـةِ التَّنَاسُـقَ وَالانْسِجَـامَ مَعَ الأَرْكَانِ الأُخْـرَى ..! أَذْوَاقٌ يَا سِي « الطَّاهِر » .

نَهَضَ « الطَّاهِر » يَنْفُضُ جُبَّتَهُ وَيُسَوِّي هَيْئَتَهُ وَيَقُولُ فِي نَفْسِهِ :

- هَذَا الْعَامُ الَّذِي بَالَ عَلَيَّ فِيهِ الْكَلْبُ ... لاَ خَيْرَ فِيهِ ... هُوَ عَامُ الْعَثَرَاتِ .

وَأَحَسَّ بِقُوَّةٍ تَجْذِبُهُ إِلَى الْبَابِ وَتَقُولُ لَهُ فِي إِلْحَاحٍ وَهُوَ يَسْمَعُ صَوْتَهَا يَنْهَشُ نَفْسَهُ :

- أَنْجُ بِنَفْسِكَ يَا « طَاهِر » ... إِنَّكَ بَقِيتَ إِلَى الْيَوْمِ مُسْتَقِيمًا . خُضْتَ أَجْوَاءً عَشَّشَ فِيهَا الْفَسَادُ وَلَمْ تَنْسَقْ إِلَيْهَا ، أَجْوَاءً كَانَتْ مَجْهُولَةً عِنْدَكَ وَلَكِنَّ الْـهَاوِيَةَ لَمْ تَلْتَقِفْكَ وَلَمْ تَتَّبِعْ شَهَوَاتِ نَفْسِكَ ، وَالآنَ تُرِيدُ أَنْ تَلِجَ أَوْ أَرَادَ وَالِدُكَ أَنْ يُقْحِمَكَ فِي أَجْوَاءِ الْبَذَخِ وَالرَّفَاهِ وَحَيَاةِ عِلْيَةِ الْقَوْمِ ... إِنَّ قَدَمَكَ سَتَزِلُّ بِكَ يَا « طَاهِر » .. أَنْجُ بِنَفْسِكَ ... أَنْجُ بِنَفْسِكَ !!

وَتَوَجَّهَ إِلَى الْبَابِ وَ « عَادِل » وَرَاءَهُ يَقُولُ لَهُ :

- يُـمْكِنُ لَنَا أَنْ نَذْهَبَ إِلَى « السَّانِيَة » مِنْ بَابٍ آخَرَ فِي الْـمَكْتَبَةِ . غَيْرَ أَنَّ « الطَّاهِر » تَخَطَّى الدَّرَجَاتِ الثَّلاَثَ وَوَجَدَ نَفْسَهُ فِي الْبَهْوِ وَكَأَنَّهُ رَامَ أَنْ يَخْرُجَ وَيُطْلِقَ سَاقَيْهِ إِلَى الرِّيحِ إِلاَّ أَنَّ صَوْتًا مُجَلْجِلاً تَلَقَّفَهُ ، هُوَ صَوْتُ أَبِيهِ الْجَالِسِ فِي



الفريك

مَقْصُورَةٍ تَفْتَحُ عَلَى ٱلْبَهْوِ وَصَاحَ بِهِ :

ـ يَا « طَاهِر » أَرَأَيْتَ حَيَاةَ « ٱلْبَلْدِيَّة » ..؟ هُوَ النَّعِيمُ الَّذِي طَالَـمَا قَرَأْتَـهُ فِي ٱلْقُرْآنِ وَلَمْ تَذُقْ مِنْهُ شَيْئًا .. « الْفَرِيك مُصْطَفَى » فِي جَنَّةٍ ... ٱلْجَنَّةُ الَّتِي وَعَدَ بِهَا اللَّهُ الْـمُتَّقِينَ . إِنَّ اللَّهَ أَعْطَاهُ عَلَى قَدْرِ قَلْبِهِ ... وَنَحْنُ أَعْطَانَا اللَّهُ عَلَى قَدْرِ قُلُوبِنَا الْـمُوحِشَةِ ٱلْقَاسِيَةِ ...

ضَحِكَ « الْفَرِيك مُصْطَفَى » حَتَّى دَمَعَتْ عَيْنَاهُ وَنَـادَى « الطَّاهِـر » وَعَـادِل وَقَالَ :

ـ أَنْتُـمَا أَخَوَانِ ... مِنْ هُنَا فَصَاعِدًا لَيْسَ لِي وَلَدٌ وَاحِدٌ بَلْ إِثْنَانِ ، يُعَاوِنَانِي عَلَى هَمِّ الزَّمَانِ ، فَأَنَا لَمْ أَعُدْ أَقْدِرُ عَلَى الْوُقُوفِ عَلَى هَذَا الـرِّزْقِ الَّـذِي خَلَّفَـهُ لِي الْجُدُودُ ... أَنْتَ مُوَافِقٌ يَا « طَاهِر » أَنْ تَكُونَ إِبْنِي ؟

وَصَمَتَ « الطَّاهِر » وَصَمَتَ وَالِدُهُ وَلَكِنَّ صَدِيقَ وَالِدِهِ نَطَقَ وَكَأَنَّهُ أَصْبَحَ لاَ يَفْقَهُ مَا يَقُولُ :

ـ تَكَلَّمْ يَا « صَمَامَة » ... لَمْ أَرَ فِي حَيَاتِي إِنْسَانًا تُعْرَضُ عَلَيْهِ الْجَنَّةُ فَيَتَرَدَّدُ ... مَا هَذِهِ « الضَّنْوَةُ » يَا « أَبِيْ مُحَمَّد » ..؟ وَلَدُكَ فُتِحَ بَابُ ٱلْعَرْشِ فِي وَجْهِهِ وَهُوَ « يَتَصَهْمَمُ » !

وَضَحِكَ ٱلْجَمِيعُ وَقَالَ « الطَّاهِر » فِي غَمْغَمَةٍ لاَ تُفْهَمُ مِنْهَا إِلاَّ بَعْضُ ٱلْكَلِمَاتِ :

ـ بَارَكَ اللَّهُ فِيكَ يَا « سِيدِي مُصْطَفَى » ... أَنَا وَاللَّه لَسْتُ أَدْرِي مَا ... أَقُولُهُ .

ـ لاَ تَقُلْ شَيْئًا أَنْتَ إِبْنِي مِنَ الآنَ فَصَاعِدًا . قَالَ « أَبِيْ مُحَمَّد » :

ـ لاَ « تُحَشِّمْنِي » يَا « طَاهِر » مَعَ « سِيدِي مُصْطَفَى » .. نَحْنُ عِشْـرَةٌ مُنْذُ زَمَانٍ قَبْلَ أَنْ تُولَدَ أَنْتَ بِقَرْنٍ ... أَلَيْسَ كَذَلِكَ يَا « سِيدِي مُصْطَفَى » ... نَحْنُ مِنْ أَهْلِ الْكَهْفِ ... بَلْ مَعَاذَ اللَّهِ أَنَا مِنْ أَهْلِ ٱلْكَهْفِ بِلِبَاسِي هَذَا ... أَمَّا أَنْتَ فَلِبَاسُكَ عَصرِي ... وَلَكِنَّ ٱلْكَلْبَ غَيْرُ مَوْجُودٍ ... ٱلْكَلْبُ ... لاَ ... هُوَ هَذَا .

وَأَشَارَ إِلَى صَدِيقِهِ الثَّانِي الْقَابِعِ عَلَى « الْبَنْكِ » قَائِلاً :

ـ بِاللَّهِ عَلَيْكَ . أَلاَ يُشْبِهُ ٱلْكَلْبَ ... إِنَّهُ وَفِـيٌّ ... لاَ مَحَالَةَ وَلَكِنْ لَوْ تَكَلَّمَ لَنَبَحَ .

وَضَحِكَ « سِيدِي مُصْطَفَى » ضِحْكَةً عَالِيَةً وَكَادَ أَنْ يَسْقُطَ مِنْهَا وَأَجَابَ صَاحِبُ « أَبِّيْ مُحَمَّد » مُنْفَعِلاً :

ـ أَلاَ تَسْتَحِ ... الشَّيْبُ وَٱلْعَيْبُ ... أَنَا ظَلَمْتُ نَفْسِي عِنْدَمَا أَتَيْتُ مَعَكَ .

وَعِنْدَ ذَلِكَ جَاءَ مَنْ يُخْبِرُ بِأَنَّ طَعَامَ ٱلْغَدَاءِ قَدْ حَضَرَ . وَوَقَفَ « سِيدي مُصْطَفَى » وَخَرَجَ مِنَ الْبَابِ الَّذِي دَخَلَ مِنْهُ ٱلْجَمَاعَةُ وَاتَّجَهُوا نَحْوَ ٱلْبَهْوِ ٱلْوَاسِعِ وَصَعِدُوا ثَلاَثَ دَرَجَاتٍ فَوَجَدُوا عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ ٱلْيَسَارِ مِصْعَدًا فِي نَفْسِ ٱلْعُلُوِّ . قَالَ ٱلْفَرِيك :

ـ هَذَا مَنْزِلُ ابْنِي » عَادِل » ، عَنِ ٱلْيَسَارِ ٱلْـمَدْخَلُ الرَّئِيسِـيُّ وَعَنِ ٱلْيَمِـينِ « الْـمَقْعَدُ » الَّذِي يُفْضِي إِلَى ٱلْـمَنْزِلِ أَيْضًـا ...

وَتَقَدَّمَ خُطُوَاتٍ فِي ٱلْـمَمَرِّ ٱلْـمُظْلِمِ شَيْئًا مَا وَقَالَ :

ـ هَذَا بَابُ الْـمَكْتَبَةِ عَنِ الْيَمِينِ ... وَهُنَا الْفِنَاءُ . وَتَوَسَّطَ ٱلْجَمْعُ فِنَاءً لَهُ سَقْفٌ مُقَامٌ عَلَى سَوَارٍ أُسْطُوَانِيَّةِ الشَّكْلِ مِنْ رُخَامٍ وَتُحِيطُ بِهِ مِنْ فَوْقٍ نَوَافِذُ ، بِلَوْرُهَا مُزَوَّقٌ ، يَدْخُلُ مِنْهُ نُورُ الشَّمْسِ بِأَلْوَانٍ زَاهِيَةٍ مُخْتَلِفَةٍ . تَنْعَـكِسُ عَلَى الْجُـدْرَانِ الْـمَكْسُوَّةِ بِالْجَلِيزِ الاسْبَانِيِّ ، فَتُعْطِي ، وَهْـيَ الْخَضْرَاءُ اللَّـوْنِ ، ظِلاَلاً مُتَبَايِنَـةَ الأَلْوَانِ .

سَحَرَ هَذَا الْفِنَاءُ « الطَّاهِر » وَارْتَاحَ إِلَى هَنْدَسَتِهِ وَانْشَرَحَ لأَلْوَانِهِ ، وَأَخَذَ يَتَأَمَّلُهُ فِي هَيْئَةِ ٱلْـمُتَذَوِّقِ لِلْجَمَالِ . وَٱلْجَمَالُ مَوْجُودٌ فِي هَذِهِ الدَّارِ إِذْ لَـمَحَهُ مِنْ بَعْضِ الشَّبَابِيك أَو الأَبْوَابِ ٱلْـمُنْفَرِجَةِ .

وَدَخَلَ ٱلْجَمَاعَةُ إِلَى ٱلْغُرْفَةِ ٱلْـمُقَابِلَةِ لِلْمَمَرِّ . فَوَجَدُوا مَائِدَةً مَلَكِيَّةً تَحَلَّبَ لَهَا فَمُ « أَبِّيْ مُحَمَّد » وَصَاحِبَيْهِ ، وَأُعْجِبَ « الطَّاهِر » خَاصَّةً بِالطَّرِيقَةِ الَّتِي نُظِّمَتْ عَلَيْهَا أَصْنَافُ الطَّعَامِ . وَأَخَذَ كُلٌّ مَكَانَهُ وَبَعْدَ بِضْعِ دَقَائِقَ سُمِعت « لأَبِّـيْ مُحَمَّـد »

كحكَحَةٌ أمسَكَ صَاحِبَاهُ عَلَى إثرِهَا عَنِ الطَّعَامِ وَتَرجَّاهُمَا « سِيدِي مُصْطَفَى » وَحَلَفَ عَلَيْهِمَا أنْ يُوَاصِلاَ الأكلَ ، فَأبَيَا شَدِيدَ الابَاءِ وَبَقِيَ « أبّـي » « الطَّاهِر » يَأكُلُ بِشَهِيَّةٍ حَتَّى ألَحَّ ٱلْـمُضَيِّفُ لِمَعْرِفَةِ سَبَبِ إمْسَاكِهِمَا فَقَالَ صَاحِبُهُمَا :

ـ هَذِهِ عَادَتُهُمَا إنَّهُمَا لاَ يَقْوَيَانِ عَلَى أكلِ الدَّسِمِ مِنَ الطَّعَامِ فَهُوَ يَخْنُقُهُمَا .

عِنْدَ ذَلِكَ ٱنْفَجَرَ أحَدُهُمَا قَائِلاً :

ـ لاَ تُصَدِّقْهُ ، فَهُوَ الَّذِي أشَارَ عَلَيْنَا بِذَلِكَ وَقَالَ لَنَا لاَ تُحَشِّمَانِي أمَامَ « الْبَلْدِيَّة » وَلاَ تُظْهِرَا اللَّهْفَةَ وَإذَا كَحْكَحْتُ أمْسِكَا عَنِ الطَّعَامِ .

وَكَانَتْ الضَّحْكَةُ ٱلْعَالِيَةُ لِسِيدِي « مُصْطَفَى » وَدَمَعَانُ عَيْنَيْهِ ، وَاتِّـكَاؤُهُ عَلَى ٱلْكُرْسِيِّ ، مِمَّا أوْشَكَ بِهِ أنْ يَشْرِقَ وَاسْتَرْسَلَ الأكْلُ فِي ٱلْـمَرَحِ وَالضَّحِكِ ، وَ « الطَّاهِر » صَامِتٌ يَنْظُرُ إلَى كُلِّ هَذِهِ الْحَرَكَةِ وَهُوَ مُنْشَغِلٌ بِالْحَيَاةِ الَّتِي هُيِّئَتْ لَهُ وَبِبَابِ ٱلْعَرْشِ الَّذِي فُتِحَ فِي وَجْهِهِ كَمَا قِيلَ لَهُ .

وَانْتَهَتِ الضِّيَافَةُ وَاتَّفَقَ « سِيدِي مُصْطَفَى » مَعَ الطَّاهِرِ عَلَى أنْ يَأتِيَهُ فِي الْغَدِ ، وَيُبَاشِرَ عَمَلَهُ هُنَا . وَعِنْدَ ٱلْخُرُوجِ دَخَلَ الْجَمَاعَةُ « ٱلْـمَقْعَـدَ » مِنْ جَدِيدٍ ، وَاتَّجَـهَ الْفَرِيك إلَى غُرْفَةٍ كَبِيرَةٍ ذَاتِ قَبْوٍ وَمَقَاصِرَ وَقَالَ « لِلطَّاهِر » :

ـ هَذِهِ غُرْفَتُكَ ... أمَّا ٱلْغُرْفَةُ ٱلْـمُجَاوِرَةُ فَهِيَ مَكْتَبَتُكَ ...

بَابُ "الخُضْرَة"

رَجعَ ٱلْجَمْعُ إِلَىَ تُونِسَ بَعْدَ هَذِهِ الْفُسْحَةِ فِي بَارْدُو. وَرَاحَ وَالِدُ « الطَّاهِرِ » فِي حَالِ سَبِيلِهِ، وَدَخَلَ « الطَّاهِرِ » غُرْفَتَهُ فِي « ٱلْوَكَالَة » بَعْدَ أَنْ رَتَّبَ أَدْبَاشَهُ، وَهَيَّأَ نَفْسَهُ لِمُغَادَرَةِ هَذِهِ الثُّقْبَةِ إِلَىَ حَيَاةِ الْقُصُورِ.

لَمْ يَنَمْ تِلْكَ اللَّيْلَةَ إِلاَّ قَلِيلاً، وَتَمَكَّنَ مِنْهُ الأَرَقُ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لِيَعْرِفَهُ مِنْ قَبْلُ. وَكَانَ يَهْمِزُهُ هَمْزًا كُلَّمَا رَاوَدَ جَفْنَيْهِ النُّعَاسُ وَيَقُولُ: أَنْتَ يَا « طَاهِر » كُنْتَ لاَ تَعْرِفُ مِنْ لَذَّةٍ إِلاَّ النَّوْمَ، تَدْفَعُهُ فَيَهْجِمُ عَلَيْكَ، وَتَضرِبُـهُ بِسِيَاطِ ٱلْيَقَظَـةِ، فَيَتَنَمَّـرُ، وَيَكْتَسِحُكَ، لِتَغْرَقَ فِي الأَحْلاَمِ أَوِ النَّوْمِ الثَّقِيلِ.

الأَرَقُ يَخِزُكَ وَخْزًا يَا « طَاهِر » وَيُصَوِّرُ لَكَ ٱلْحَيَاةَ خِضَماً لَمْ تَكُنْ لِتَعْرِفَهُ، وَهْيَ الْبَسِيطَةُ فِي نَظَرِكَ، الرَّخِيصَةُ، الضَّالَةُ الْمُضَلَّلَةُ. وَإِذَا بِهَا تَبْدُو لَكَ بَعْدَ رِحْلَـةِ بَارْدُو، بَحْرًا طَامِيًا، جَبَلاً شَامِخًا، هُوَّةً عَمِيقَةً، بَشَرُهَا لَيْسَ كَالْبَشَـرِ.

وَتَبَادَرَتْ إِلَىَ ذِهْنِهِ حَالاَتٌ، كَانَ يَذْكُرُهَا أَهْلُ الْقَرْيَةِ لِبَعْضِ أَقْرِبَائِهِ أَوْ مَعَارِفِهِ. وَكَيْفَ لَمْ يَتَمَكَّنُوا مِنْ دُخُولِ ٱلْحَيَاةِ ٱلْجَدِيدَةِ، وَغَرِقَ مَرْكَبُهُمْ فِي جَهْلِهِمْ وَعَدَمِ تَقْدِيرِهِمْ لِلأُمُورِ.

ثُمَّ عَاوَدَتْهُ فِكْرَةٌ طَالَمَا شَعُرَ بِـهَا، وَهْيَ قَسَاوَةُ حَيَاةِ ٱلْحَضَـرِ، وَانْغِلاَقُ حَلَقَاتِهِمْ عَلَىَ أَنْفُسِهِمْ، وَاسْتِغْلاَلُـهُمْ لِكُلِّ قَادِمٍ فِيهِ حَيَوِيَّةُ الطَّبِيعَـةِ، وَطَفْرَتُهَـا، وَفِيهِ عَفْوِيَّةُ حَيَاةِ الرِّيفِ وَطَلاَقَتُهَا.

وَتَذَكَّرَ ٱبْنَ خَلْدُونَ، وَتَحْلِيلَهُ لِلْبَدْوِ وَٱلْحَضرِ، وَقِيَامَ الدُّوَلِ وَانْهِيَارَهَا، وَلَكِنَّـهُ تَذَكَّرَ أَنَّ تُونِسَ كُلَّهَا بِكُلِّ سُكَّانِهَا هِيَ الْيَوْمَ خَارِجَةٌ عَنِ التَّارِيخِ، تَعِيشُ عَلَىَ هَامِشِهِ، هَمُّ أَهْلِهَا أَنْ يَحْصُلُوا عَلَىَ الْقُوتِ، وَيَظْفَرُوا بِالْبَقَاءِ. فَأَيْنَ هُمْ مِنْ بِنَاءِ الدُّوَلِ وَصُنْعِ التَّارِيخِ؟

وَمَاذَا يَكُونُ دَوْرُهُ مَعَ أَبْنَاءِ جِلْدَتِهِ مِنْ عِلْيَةِ الْقَـوْمِ سِوَى تَعَلُّـقِ ٱلْغَـرِيقِ بِالْغَرِيقِ؟

وَقَصَفَ الرَّعْدُ فِي تِلْكَ الآوِنَةِ ، وَنَزَلَ الْـمَطَرُ .. وَكَأَنَّ السَّمَاءَ ثُقِبَتْ ثَقْبًا . وَكَأَنَّ ٱلْغُرْفَةَ مَرْكَبٌ تَدَافَعَتْهُ ٱلْـمِيَاهُ ، تُلْقِي بِهِ عَلَى الصُّخُورِ النَّاتِئَةِ ٱلْحَادَّةِ . وَغَمَرَ « الطَّاهِرَ » التَّعَبُ وَنَامَ فِي تِلْكَ الزَّعَازِعِ نَوْمَةً ، فَفَلَتَتْ بَابَ نَوْمَاتِهِ ٱلْقَدِيمَةِ ، لِتُلْقِيَ بِهِ فِي عَالَمٍ آخَرَ جَدِيدٍ .

اِسْتَيْقَظَ مُبَكِّرًا ، وَجَمَعَ أَدْبَاشَهُ ، وَدَفَعَ كِرَاءَ الْغُرْفَةِ ، وَخَرَجَ مِنَ « الْوَكَالَةِ » فِي ذَلِكَ الْجَوِّ ٱلْـمُمْطِرِ .

لَمْ يَكُنْ لِيُحِسَّ شَآبِيبَ ٱلْـمَطَرِ ، وَهْيَ تَنْزِلُ عَلَى بُرْنُسِهِ ، وَلَمْ يَكْتَرِثْ لِلْحُفَرِ ٱلْمَلآنَةِ مَاءً وَطِينًا ، يَغْرِقُ فِيهَا حِذَاءُهُ ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا مُصَوِّتًا ، لِيَضُجَّ ٱلْسَمَاءَ الْـمُلْتَقَفَ فِي شِبْهِ مُوسِيقَى رَتِيبَةٍ وَقِحَةٍ .

وَتَوَجَّهَ إِلَى « بَابِ سُوَيْقَة » وَرَكِبَ « التَّرَام » وَبَقِيَ مُنْتَبِهًا فِي كُلِّ وَقْفَةٍ ، خِشْيَةَ الاَّ يَفطِنَ إِلَى ٱلْـمَحَطَّةِ الْـمَطْلُوبَةِ . وَلَكِنَّهُ ، عِنْدَمَا قَرُبَ مِنْ « بَارْدُو » زَادَ ٱلْـمَطَرُ فِـي النُّزُولِ وَأَصْبَحَ « التَّرَام » يَسِيرُ فِي بَحْرٍ مِنَ ٱلْـمِيَاهِ وَكَأَنَّهُ مَرْكَبٌ يَشُقُّ عُبَابَ ٱلْمحيط .

لَعَنَ ٱلْيَوْمَ الَّذِي صَادَفَ دُخُولَهُ لأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي ٱلْعَمَلِ ، وَقَالَ فِي نَفْسِهِ هُوَ ٱلْيَوْمُ « ٱلْـمَبْرُوكُ » الَّذِي يَخَافُهُ «ٱلْبَلْدِيَّةُ» وَلاَ يَذْكُرُونَهُ بِاسْمِهِ ، وَهُوَ ٱلْيَوْمُ الَّذِي يَسْتَقْبِلُ فِيهِ الْبَـايُ الأَعْيَانَ ، وَتُقَـدَّمُ لَهُ الأَوَامِـرُ لِطَابَعِـهِ السَّعِيدِ كَمَا قَالَ « الْفَـرِيك مُصْطَفَى » الْبَارِحَةَ . يَوْمُ ٱلْخَمِيسِ : لاَ يَذْكُرُهُ أَهْلُ تُونِسَ بِاسْمِهِ صَرَاحَةً لأَنَّهُمْ لاَ يَنْطِقُونَ بِعَدَدِ خَمْسَة ، وَكُلِّ مُشْتَقَّاتِهِ ، خَوْفًا مِنَ ٱلْعَـيْنِ « وَالْعَـيْنُ حَقٌّ وَالطِّـيَرَةُ بَاطِلٌ » . « الْفَرِيك مُصْطَفَى » سَيَذْهَبُ مُبَكِّرًا الْيَوْمَ إِلَى قَصرِ ٱلْبَايِ لِحُضُورِ حَفْلِ الطَّابَعِ وَلِهَذَا فَإِنِّي لَنْ أَجِدَهُ فِي إِلْبَيْتِ وَسَأَلْتَقِي بِابْنِهِ « الْعَادِل » .. « الْعَادِل » .. كَيْفَ هُوَ ؟ ... إِنَّهُ مُثَقَّفٌ مُهَذَّبٌ كَيِّسٌ وَدُودٌ ... هَلْ صَحِيحٌ مَا يَقُولُهُ لِي وَالِدِي . إِيَّاكَ أَنْ تَغْتَرَّ بِمَعْسُولِ ٱلْكَلاَمِ ، وَخَاصَّةً مِنَ ٱلْحَضَرِ . فَفِي اللِّسَانِ حَلاَوَةٌ وَطَلاَوَةٌ

وَلَكِنَّهَا تَعْقُبُهَا الْمَرَارَةُ ..؟ لاَ إِنَّ هَذِهِ الْعَائِلَةَ مِنْ عِلْيَةِ الْقَوْمِ وَهِيَ لاَ تُشْبِهُ غَيْرَهَا ... وَسَأَتَعَلَّمُ مِنْهَا الْكَثِيرَ وَالْكَثِيرَ وَأَتَمَتَّعُ بِالْعَيْشِ اللَّيِّنِ وَالطَّعَامِ الشَّهِيِّ وَالْفِرَاشِ الْمَبْسُوطِ ... وَالْمَكْتَبَةُ مَلاَنَةٌ كُتُبًا ... سَأَقْرَأُ وَسَأَكُونُ مِنَ الْمَرْمُوقِينَ بَيْنَ أَصْحَابِي ... وَلَكِنَّ الْعَمَلَ مَاذَا سَيَكُونُ هَلْ هُوَ مُرْهِقٌ ؟

وَفِي ذَلِكَ الْوَقْتِ وَصَلَ « التَّرَامِ » إِلَى « بَارْدُو » وَنَزَلَ « الطَّاهِرِ » فِي الْبَحْرِ الطَّامِي ، وَشَمَّرَ سِرْوَالَهُ وَأَبْقَى حِذَاءَهُ لأَنَّهُ أَخَذَ مِنَ الْمَاءَ مَا لاَ يَخَافُهُ عَلَيْهِ . وَاتَّجَهَ نَحْوَ قَصْرِ « الْفَرِيك مُصْطَفَى » مُحَاوِلاً الابْتِعَادَ عَنِ الْحَفِيرِ .

كَانَ الْمَطَرُ رَذَاذًا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ . وَلَكِنَّ الْمَاءَ يَجْرِي كَالنَّهْرِ ، وَخَاصَّةً عِنْدَمَا اتَّجَهَ نَحْوَ طَرِيقِ « مَاطِر » حَيْثُ قَصْرُ « الْفَرِيك » . كَانَ لَوْنُ هَذَا النَّهْرِ أَصْفَرَ طَفْلِيًّا ، يَجُرُّ الْحِجَارَةَ ، وَأَغْصَانَ الأَشْجَارِ فِي قُوَّةٍ كَبِيرَةٍ ، وَيَتَلَوَّى الِتِوَاءَاتٍ كَانَ « الطَّاهِرِ » يَخَافُهَا وَيُحَاذِيهَا ، مُقْتَفِيًا أَثَرَ بَعْضِ الْمَارَّةِ الْمُتَعَوِّدِينَ عَلَى هَذَا الْخِضَمِّ .

وَلَمَحَ مِنْ بَعِيدٍ عَرَبَةً فَخْمَةً تَجُرُّهَا أَرْبَعَةُ خُيُولٍ ، تَتَقَدَّمُ بِبُطْء ، وَتُحَاوِلُ أَنْ تَبْتَعِدَ عَنِ التَّيَّارِ الدَّافِقِ نَحْوَ الْحَفِيرِ وَلَكِنَّهُ تَعَجَّبَ عِنْدَمَا رَآهَا تَمِيلُ بِسُرْعَةٍ ، وَتَزْلَقُ خُيُولُهَا فِي اتِّجَاهِ الْخَنْدَقِ وَتَتَهَاوَى فَاقِدَةً تَوَازُنَهَا ، وَالسَّائِقُ مُمْسِكٌ بِالْمِقْوَدِ ، وَهُوَ يُحَاوِلُ إِنْهَاضَ الْخُيُولِ بِدُونِ جَدْوَى . وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ قَفَزَ إِلَى الْجِهَةِ الْمُعَاكِسَةِ ، الْقَلِيلَةِ الْمَاءِ نِسْبِيًّا ، وَفَتَحَ بَابَ الْعَرَبَةِ ، وَحَمَلَ مِنْهَا رَجُلاً طَوِيلَ الْقَامَةِ وَوَضَعَهُ فِي الْمَاءِ قَبْلَ أَنْ تَنْجَرَّ الْعَرَبَةُ نَحْوَ الْهَاوِيَةِ مِنْ دُونِ أَنْ يَمْنَعَ شَاشِيَةَ الرَّجُلِ مِنْ أَنْ تَسْقُطَ فِي الْوَحَلِ .

وَصَلَ « الطَّاهِرِ » وَبَعْضُ الْمَارَّةِ إِلَى مَكَانِ الْحَادِثِ فَرَأَى إِلَى جَانِبِ السَّائِقِ « الْفَرِيك مُصْطَفَى » فِي ثِيَابِهِ الْفَخْمَةِ وَنَيَاشِينِهِ اللاَّمِعَةِ وَشَاشِيَّتِهِ الْمُلَطَّخَةِ بِالطِّينِ ، وَهُوَ غَارِقٌ إِلَى رُكْبَتَيْهِ فِي هَذَا الْمَاءِ الْمَخْلُوطِ الأَصْفَرِ اللَّزِجِ .

لَمْ يَتَصَوَّر « الطَّاهِر » أنْ يَـجِـدَ فِي اسْتِقْبَالِـهِ « الْفَـرِيك » فِي هَذِهِ الْحَالَـةِ الْـمُزْرِيَةِ ، وَلَمْ يجِدْ بُدًّا مِنَ السَّلاَمِ عَلَيْهِ مَعَ الاسْتِلْطَافِ ، فَمَا كَانَ مِنَ « الْفَرِيك مُصْطَفَى » إلاَّ أنْ قَالَ :

ـ « مُعَوَّمَةٌ » نَحْنُ نَنْتَظِرُ مُنْذُ زَمَانٍ هَذِهِ « الْـمَطْرَةِ » وَقَدْ أنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا بِهَا .

وَمَا كَانَ مِنَ « الطَّاهِر » إلاَّ أنْ أخَذَ بِيَدِ « الْفَرِيك » وَتَرَكَ السَّائِقَ يُعَالِجُ ٱلْعَرَبَةَ وَٱلْخُيُولَ وَاتَّجَهَا بِصعُوبَةٍ نَحْوَ ٱلْقَصْـرِ . وَلَكِنَّهُمَا لَمْ يَخْطُوَا خُطُوَاتٍ حَتَّى سَمِعَـا صَوْتَ غَرِيقٍ يُنَادِي :

ـ « غَاقْ » ... « غَاقْ » ... إجْرُوا لِي ... « وَاكْ » ... « وَاكْ » ....

وَلَمَحَ « الطَّاهِر » رَجُلاً فِي ٱلْحَفِيرِ ٱلْـمُقَابِلِ ، قَدْ ٱنحَلَّتْ عِـمَامَتُهُ ، وَطَفَـتْ عَلَى سَطْـحِ ٱلْـمَاءِ ، وَلاَ يَظْهَرُ مِنْهُ إلاَّ الرَّأْسُ فِي بَعْضِ الأحْيَانِ . فَلَمْ يَتَمَـالَكْ أنْ قَفَزَ إلَيْهِ وَرَمَى لَهُ بِطَرَفِ ٱلْعِمَامَةِ وَحَرَّضَهُ عَلَى مَسْكِهَا بِقُوَّةٍ وَجَذَبَهُ جَذْبَةً أخْرَجَهُ بِهَا مِنَ ٱلْحَفِيرِ .

وَلَـمَّا هَدَأَ النَّاسُ مِنْ رَوْعِ ٱلْغَرِيقِ ، وَأبْعَدُوهُ عَنِ ٱلْـمَاءِ الطَّامِي عَرَفُوا فِيهِ « مُؤَدِّبَ » بَارْدُو . فَقَالَ « الطَّاهِر » فِي نَفْسِهِ :

ـ أيُّ يَوْمٍ هَذَا غَرِقَ فِيهِ « ٱلْعِلْمُ » وَ« الْجَاهُ » ....

وَضَحِكَتِ السَّمَـاءُ عِنْدَ ذَلِكَ لَـمَّا أطَلَّتِ الشَّمْسُ مِنْ وَرَاءِ السُّحُبِ ، حَمْـرَاءَ كَالْـجَمْـرَةِ الْـمُتَوَقِّدَةِ.. وَهَبَّتِ الرِّيحُ قَوِيَّةً ، تُبَعْثِرُ السُّحُبَ فَهْيَ تَجْرِي كَالْـمَرْكَبِ الْـمَفْتُوحِ الشِّرَاعِ بِألْوَانٍ عَدِيدَةٍ ، بَيْضَاءَ وَرَمَادِيَّةٍ وَسَوْدَاءَ . وَمِنْ بَعِيدٍ ظَهَرَ قَوْسُ قُزَحٍ زَاهِيَ الألْوَانِ ، فَتَعَجَّبَ « الطَّاهِر » لأنَّهُ لاَ يَعْرِفُ السَّمَاءَ فِي هَذَا الْـمَظْهَرِ إلاَّ عِنْدَ ٱلْغُـرُوبِ . وَانْعَكَسَـتْ أشِعَّـةُ الشَّمْسِ عَلَى الـمَاءِ الْـمُتَرَامِي . وَأعْطَتْ لِلَوْنِهِ الطِّفْلِـيِّ بَرِيقَ الْفَخَّارِ عِنْدَمَا يَخْرُجُ مِنَ الْفُرْنِ وَقَالَ فِي نَفْسِهِ :

ـ شَمْسُهُمْ لَيْسَتْ كَشَمْسِنَا ، وَسَمَاؤُهُمْ غَيْرُ سَمَائِنَـا وَقَـوْسُ قُزَحِهِـمْ أخْتَـارَ الصَّبَـاحَ عَلَى ٱلْغُرُوبِ .

وَتَوَجَّهَ « الطَّاهِر » وَ« الْفَرِيك » عَلَى تِلْكَ الْحَالَةِ إلَى الْقَصْـرِ ، وَالنَّاسُ يَسْتَلْطِفُونَ لَهُ . وَمَا

لَبِثَ أَنْ سَمِعَ بِذَلِكَ ٱلْخَدَمُ فَهَرَعُوا وَمَعَهُمْ ٱلْخَيْلُ فَأَرْكَبَ أَحَدُهُمْ « الْفَرِيكَ » وَقَدَّمُوا إِلَى « الطَّاهِرِ » بَغْلاً فَرَكِبَهُ بِخِفَّةٍ . وَفَهِمَ فِي ذَلِكَ ٱلْوَقْتِ أَنَّ حَالَهُ قَدْ تَبَدَّلَ ، وَأَنَّهُ أَصْبَحَ خَيْرًا مِنْ أَبِيهِ الَّذِي لاَ يَعْرِفُ مِنَ الدَّوَابِّ إِلاَّ حِمَارَهُ الْفُلْكُلُورِيَّ .

وَدَخَلاَ ٱلْقَصْـرَ وَأَهْلُهُ يَتَعَجَّبُونَ كَيْفَ تَتَطَاوَلُ الطَّبِيعَةُ عَلَى « الْفَرِيك » وَتَجْعَلُهُ فِي هَذِهِ ٱلْحَالَةِ الرَّثَّةِ !؟ إِنَّ هَذَا يُنْبِئُ بِشَرٍّ كَثِيرٍ ... وَصَادَفَ أَيْضًا مَجِيءَ « الطَّاهِرِ » ... وَفَهِمَ لِمَ كَانَ أَهْلُ ٱلْقَصْـرِ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ نَظْرَةً فِيهَا شَيْءٌ مِنَ ٱلْكُرْهِ ...

قَالَ فِي نَفْسِهِ : مَتَى كُنْتُ أَجِدُ الاحْتِرَامَ ؟ أَنَا إِنْسَان مِنَ الشَّعْبِ ، تَعَوَّدَ عَلَى الْعَيْشِ الْبَسِيطِ وَٱلْـمَكَانَةِ ٱلْوَضِيعَةِ . إِنَّ حَيَاتِي كَالْـمَرْكَبِ بِدُونِ وِجْهَةٍ ، تَتَقَاذَفُهُ الأَمْوَاجُ . وَفِي هَذِهِ ٱلْـمَرَّةِ دَفَعَتْنِي اللُّجَجُ إِلَى هَذِهِ ٱلْجَزِيرَةِ الَّتِي لاَ تُشْبِهُ فِي عَيْشِ أَهْلِهَا مَا دَرَجْنَا عَلَيْهِ نَحْنُ كَافَّةَ التُّونسِيِّينَ مِنْ عَيْشٍ . فَلأَكْتَشِفْ هَذِهِ الْجَزِيرَةَ ، وَلْأَذُقْ مِنْ خَيْرَاتِهَا ، حُلْوِهَا وَمُرِّهَا ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ لِنَنْظُرْ فِي الأَمْرِ .

وَالْتَفَّ أَهْلُ الْقَصْـرِ وَالْخَدَمُ « بِالْفَرِيك » .... وَ « الطَّاهِرِ » وَتَوَجَّهَا تَوًّا إِلَى حَمَّامٍ يُشْبِهُ مَا عَرَفَهُ مِنَ ٱلْحَمَّامَاتِ فِي تُونِسَ : « بَيْتُ السَّخُونِ » وَٱلْـمَطَاهِـرَ وَالْمَقْصُورَةَ وَغَيْـرَهَا . وَفَهِمَ أَنَّ ٱلْقَصْـرَ جَزِيرَةٌ تَحْيَا حَيَاتَهَا بِـمَعْزِلٍ عَنِ النَّاسِ ..

* * *

بَعْدَ أَنْ مَرَّ بِـمَرَاحِلِ الْحَمَّامِ ٱلْعَرَبِي مِنْ « بَيْتِ السُّخُونِ » حَيْثُ قَبَعَ مُدَّةً أَحَسَّ فِيهَـا بِأَنْفَاسِهِ تَضِيقُ ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَى بَيْتِ الْبَارِدِ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ « وَرْقْلِي » مَا لَبِثَ أَنْ قَامَ إِلَيْهِ وَبَسَطَهُ أَرْضًا وَبَدَأَ يُـمَسِّدُهُ بِلَمَسَاتِ الْعَارِفِ لِـمُهِمَّتِهِ . فَاسْتَلَذَّ « الطَّاهِر » ذَلِكَ فِي الأَوَّلِ ، ثُمَّ بَدَأَ يَسْتَمِعُ إِلَى عِظَامِهِ تَئِنُّ تَحْتَ وَطْأَةِ كَفِّ وَجُمْعِ « الطَّيَّابِ » تَارَةً ثُمَّ قَدَمِهِ تَارَةً أُخْرَى . وَأَصْبَحَ يُحِسُّ بِأَعْضَائِهِ وَعَضَلاَتِهِ كَاللُّعْبَةِ فِي يَدِ هَذَا « الطَّيَّابِ » الْـمَاهِـرِ وَهْـوَ يَلْتَقِفُهَـا يَـمْنَـةً وَيَسْرَةً ، فَتَسْمَعُ لِذَلِكَ طَرَقَاتٍ صَغِيرَةً ، رَفِيقَةً ، مُنَغَّمَةً كَأَنَّهَا التَّوْقِيعُ عَلَى آلَةِ وَزْنٍ .

وَتَصَوَّرَ نَفْسَهُ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ وَهْوَ فِي ذَلِكَ الْبُخَارِ الْـمُتَحَوِّلِ ضَبَابًا ، قد انْتَقَل إِلَى عَالَمِ تَنَاسُخِ الأَرْوَاحِ ، وَرَجَعَ إِلَى الطَّوْرِ الْبِدَائِـيِّ ، فِي قِصَّةِ أَوَّلِ مَنِ اتَّخَذَ الْعُودَ آلَةً لِلطَّرَبِ : وَهْوَ أَحَدُ أَبْنَاءِ آدَمَ ، عِنْدَمَا مَاتَ لَهُ ابْنُهُ ، فَعَلَّقَهُ فِي شَجَرَةٍ وَكَانُوا آنَذَاكَ لاَ يَعْرِفُونَ الْقَبْرَ ، فَتَقَطَّعَتْ أَوْصَالُهُ حَتَّى بَقِيَ مِنْهُ فَخِذُهُ ، وَالسَّاقُ وَالْقَدَمُ وَالأَصَابِعُ فَأَخَذ خَشَبًا فَرَقَّقَهُ وَأَلْصَقَهُ

فَجَعَلَ صَدْرَ الْعُودِ كَالْفَخِذِ ، وَعُنُقَهُ كَالسَّاقِ ، وَرَأْسَهُ كَالْقَدَمِ ، وَالْمَلاَوِي كَالأَصَابِعِ ، وَالأَوْتَارَ كَالْعُرُوقِ ثُمَّ ضَرَبَ بِهِ وَنَاحَ عَلَيْهِ فَنَطَقَ الْعُودُ ...

وَتَذَكَّرَ « الطَّاهِر » حِينَذَاكَ شِعْرَ الْحَمْدُونِي إِذْ قَالَ :

وَنَاطِقٍ بِلِسَانٍ لاَ ضَمِيرَ لَهُ ... كَأَنَّهُ فَخِذٌ نِيطَتْ إِلَى قَدَمِ

يُبْدِي ضَمِيرَ سِوَاهُ فِي الْحَدِيثِ كَمَا ... يُبْدِي ضَمِيرَ سِوَاهُ منطق القلم

وَفِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ اسْتَوَى الطَّيَّابُ ، عَلَى ظَهْرِ « الطَّاهِرِ » وَاقِفًا ، وَأَرَادَ أَنْ يَتَمَادَى فِي تَلاَعُبِهِ بِجِسْمِ الْمِسْكِينِ . وَأَحَسَّ « الطَّاهِر » أَنَّهُ لَمْ يَتَحَوَّلْ بَعْدُ ، مَتَاعًا مِنَ الأَمْتِعَةِ ، وَلاَ هُوَ مِنَ الأَمْوَاتِ فَأَشَارَ إِلَيْهِ مُتَوَسِّلاً أَنْ يَكُفَّ فَرَضِيَ « الطَّيَابُ » بِذَلِكَ مُرْغَماً وَهُوَ يَتَعَجَّبُ مِنْ هَذَا الْمِسْكِينِ الَّذِي لَمْ يَسْتَكْمِلْ لَذَّةَ التَّمْسِيدِ .

وَتَحَوَّلَ « الطَّيَّابُ » « بِكَاسَتِهِ » يُنَظِّفُ جِلْدَ « الطَّاهِرِ » وَيَجْمَعُ لَهُ أَوْسَاخَهُ لَفَائِفَ مُسْتَطِيلَةً ، وَيُكَدِّسُهَا فِي مَكَانٍ بَارِزٍ . وَأَحَسَّ « الطَّاهِر » بِالْخَجَلِ يَغْمُرُهُ وَبِالعَرَقِ يَتَصَبَّبُ عَلَيْهِ وَكَأَنَّهُ مَازَالَ فِي « بَيْتِ السُّخُونِ » وَمِنْ أَيْنَ لَهُ أَنْ يَعْرِفَ أَنَّهُ وَسِخٌ إِلَى هَذِهِ الدَّرَجَةِ ؟ ... صَحِيحٌ . كَانَ يَذْهَبُ مِنْ حِينٍ إِلَى آخَرَ إِلَى الْحَمَّامِ وَلَكِنَّهُ لاَ يَقْدِرُ عَلَى دَفْعِ أُجْرَةِ « الطَّيَابِ » فَيَتَعَاوَنُ هُوَ وَأَحَدُ أَصْدِقَائِهِ عَلَى طَرْحِ وَسَخِ الزَّمَانِ وَلَكِنْ مِنْ أَيْنَ لَهُمَا هَذِهِ الْقُدْرَةِ عَلَى اسْتِخْرَاجِ الأَوْسَاخِ .

سُبْحَانَ اللَّهِ ... كَيْفَ كَانَ يَسْتَطِيبُ « الطَّيَّابُ » تَكْدِيسَ لَفَائِفِ الْوَسَخِ ؟ فَكَأَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَسْتَبْقِيَهَا لِيَضَعَهَا فِي الْمَتْحَفِ وَيَكْتُبَ تَحْتَهَا مِثْلَمَا رَآهُ فِي « دَار الْعَجَائِبِ » بِبَارْدُو : عَجِيبَةٌ مِنْ عَجَائِبِ الدَّهْرِ : وَسَخٌ مُعَتَّقٌ أَفْرَزَهُ بَدَنُ « الطَّاهِرِ » .

وَسُرَّ عِنْدَمَا لَمْ يَرَ هَذِهِ اللَّفَائِفَ أَحَدٌ غَيْرَهُ وَانْزَاحَتْ عَنْ مَكَانِهَا وَقَدْ جَرَفَهَا الْمَاءُ إِلَى الْبَالُوعَةِ . فَتَنَفَّسَ الصُّعَدَاءَ وَأَحَسَّ بِجِسْمِهِ يَخِفُّ وَزْنُهُ فَكَأَنَّهُ رُكِّبَتْ لَهُ جَوَانِحُ تَرْفَعُهُ عَنِ الأَرْضِ وَقَالَ لَهُ « الطَّيَّاب » :

ـ إنْ شَاءَ اللّهُ صَحِيحٌ سَالِمٌ .

وَلَفَّهُ في « الْبَشَاكِرِ» وَأَخْرَجَهُ إِلىَ « الْـمَقْصُورَةِ » فَوَجَدَ « الْفَرِيك مُصْطَفَى » يُصَلِّيٌ فَحَاذَاهُ ، وَتَمَدَّدَ في رُكْنٍ مِنَ الْغُرْفَةِ وَبَقِيَ يَسْتَمْرِىءُ نَشْوَةَ الرَّاحَةِ التَّامَّةِ .

أَطْلَقَ « الْفَرِيك مُصْطَفَى » السَّلاَمَ . فَقَالَ لَهُ « الطَّاهِر » : « تَقَبَّـلِ اللّـه » فَأَجَابَهُ الْفَرِيك : مِنِّي وَمِنْك الْعَمَل الصَّالِح » وَأَرْدَفَ :

ـ يَا سِي « الطَّاهِر » : نَحْنُ كُلُّنَا مُسْتَبْشِرُونَ بِقُدُومِكَ ... وَقَدْ أَمْطَرَنَا اللّهُ وَأَنْعَمَ عَلَيْنَا بِنِعْمَتِهِ . سَتَكُونُ السَّنَةُ طَيِّبَةٌ ، وَتَدُرُّ عَلَيْنَا ضَيْعَاتُنَا الْخَيْرَ الْكَثِيرَ .... أنَـا مَسْرُورٌ بِكَ يَا « طَاهِر » .

ـ إِنْ شَاءَ اللّهُ .... سَأَكُونُ عِنْدَ حُسْنِ الظَّنِّ .

ـ هَذِهِ مَلاَبِسُكَ .... سَيُعِينُكَ عَلىَ لِبَاسِهَا الْعَمُّ « حُسَيْنْ » .

وَنَظَرَ « الطَّاهِر » إِلىَ بَدْلَةٍ مُعَلَّقَةٍ أَمَامَهُ .... فَتَعَجَّبَ في نَفْسِهِ كَيْفَ يَلْبَسُ هَذَا اللِّبَاسَ وَهُوَ الْمُتَعَوِّدُ عَلىَ الْكِسْوَةِ الشَّعْبِيَّةِ الْبَسِيطَةِ .

وَتَقَدَّمَ الْعَمُّ « حسين » وَبَدَأَ يُنَشِّفُ لَهُ جِسْمَهُ ثُمَّ أَعْطَاهُ الْقَمِيصَ فَلَبِسَهُ وَنَاوَلَهُ « قَلْصونًا » يَصِلُ إِلىَ الْقَدَمَيْنْ فَتَقَمَّصَهُ وَرَبَطَ كُلَّ طَرْفٍ مِنْهُ بِشَرِيط قَصِيرٍ . ثُمَّ مَرَّرَ أَمَامَه سِرْوَالاً أَسْوَد وَكَأَنَّه يُصَارِع ثَوْرًا فِـي حَلَبَةٍ مِنْ حَلَبَاتِ إِسْبَانيا فَأَخَذَهُ مِنْهُ وَلَبِسَهُ وَأَخِيرًا تَزَيَّنَ بِسِتْرَةٍ عَصرِيَّةٍ وَهْيَ نَوْعٌ مِنَ « الرِّيدَنْقُـوتْ » وَأَلْبَسَـهُ شَاشِيَّةً « بِكُبَّيطَةٍ » طَوِيلَةٍ فَرَشَ ذَيْلَهَا عَلىَ كَتِفِهِ الأَيْسَـرِ .

وَقَفَ « الطَّاهِر » بِهَذَا اللِّبَاسِ أَمَامَ الْـمِرْآةِ ، فَلَمْ يَعْرِفْ نَفْسَهُ ، وَابْتَسَمَ ابْتِسَامَةً عَرِيضَـةً ، وَلَـكِنَّ خَوَاطِـرَهُ انْقَطَعَـتْ عَنِ التَّـوَارُدِ عِنْدَمَـا قَالَ لَهُ « الْفَـرِيك مُصْطَفَى » :

ـ صَحَّهْ يَا « طَاهِر » ، إِيتِ إِلىَ هُنَا لأُقَبِّلَكَ ، هَذِهِ الْبَدْلَةُ مُؤَاتِيَةٌ لَكَ ... مَا شَاءَ اللّهُ مَا شَاءَ اللّهُ ..!



طاهر

وَقَبَّلَ « الْفَرِيك » « الطَّاهِر » وَعِنْدَ ذَلِكَ جَاءَ الْحَلاَّقُ وَسَوَّى لَهُ شَوَارِبَ رَقِيقَةً عَلَى صُورَةِ مَرْكَبٍ أَطْرَافُهَا مُذَبَّبَةٌ ، جَعَلَتْهُ يَظْهَرُ بِـمَظْهَرٍ فِيهِ رُجُولَةٌ وَأَنفةٌ أَكْثَرَ مِنَ الْعَادَةِ .

وَنَزَلاَ مِنَ الْمَقْصُورَةِ وَلَبِسَا حِذَاءَيْهِمَا وَخَرَجَا مِنْ بَابٍ صَغِيرٍ جِدًّا ، أَفْضَى بِسُرْعَةٍ إِلَى بَهْوٍ صَغِيرٍ خَرَجَا مِنْهُ إِلَى الْفِنَاءِ الْمُسَقَّفِ .

وَمِنْ هُنَاكَ دَخَلاَ قَاعَةً فَخْمَةً وَجَدَا فِيهَا زَوْجَةَ « الْفَرِيك » وَامْرَأَةً كَبِيرَةَ السِّنِّ وَفَتَاةً طَوِيلَةَ الْقَامَةِ رَقِيقَةَ الْمَلاَمِحِ فَقَدَّمَهُنَّ جَمِيعًا إِلَى « الطَّاهِر » الَّذِي سَلَّمَ عَلَيْهِنَّ فِي حَيَاءٍ كَبِيرٍ مُتَعَجِّبًا كَيْفَ أَنَّ النِّسَاءَ فِي تُونِسَ لاَ يَحْتَجِبْنَ عَنِ الرِّجَالِ .

ـ قَالَ الْفَرِيك : هَذِهِ عَائِلَتُكَ وَأَنْتَ مِنَ الْيَوْمِ اِبْنِي .

ـ رَبِّي يَسْتُر .

ثُمَّ تَحَوَّلاَ إِلَى الْمَكْتَبَةِ وَبَعْدَ ذَلِكَ إِلَى غُرْفَةٍ مِنَ النَّمَطِ الْقَدِيمِ .

ـ هَذِهِ غُرْفَتُكَ قُرْبَ الْمَكْتَبَةِ حَيْثُ مَكْتَبُكَ ، أُبْقِيكَ بِخَيْرٍ وَارْتَحْ مَا شِئْتَ . وَخَرَجَ « الْفَرِيك » مُسْرِعًا .

* * *

أَقْفَلَ الْبَابَ عَلَى نَفْسِهِ ، وَتَقَدَّمَ إِلَى الْـمَرْآةِ وَبَـدَأَ يَنْظُـرُ إِلَى هَيْئَتِـهِ بِالْجُمْلَـةِ وَالتَّفْصِيلِ وَيَقُولُ فِي نَفْسِهِ :

ـ مَا شَاءَ اللَّهُ ...! « الطَّاهِر » الْـمُتَعَوِّدُ الْـمَشْيِ حَافِيًا بَيْنَ الْـمَسَالِكِ الْـمُتْرِبَةِ ، الْـمُتَنَاثِرَةِ حَجَرًا يَتَحَوَّلُ إِلَى ابْنٍ مِنْ أَبْنَاءِ السَّرَاةِ ، فِي هَيْئَةٍ كَانَ يَتَحَاشَى أَنْ يَنْظُرَ إِلَى مِثْلِهَا فِي دُرُوبِ تُونِسَ الْعَاصِمَةِ حَيَاءً مِنْ نَفْسِهِ ، وَخِشْيَةً مِنَ الوَعْيِ بِالْفَارِقِ الصَّارِخِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ هَؤُلاَءِ النَّاسِ ... وَالآنَ يَقْفِزُ بَيْنَ لَيْلَةٍ وَضُحَاهَا قَفْزَةً تُبْعِدُهُ عَنْ وَضْعِهِ الأَوَّلِ أَسْوَاطًا وَأَشْوَاطًا .... قُرُونًا وَقُرُونًـا ... مَا كَانَ أَخَفَّ عَلَيْهِ لِبَاسَـهُ

الْقَدِيمُ ... وَهَذَا اللِّبَاسُ ثَقِيلٌ عَلَيْهِ هُوَ فِي وَزْنِ الْقُرُونِ الَّتِي تَفْصِلُ بَيْنَ وَضْعِهِ الْقَرَوِيِّ وَوَضْعِهِ الْحَضَرِيِّ .

وَأَحَسَّ بِثِقَلِ أَجْفَانِهِ تَدْعُوهُ إِلَى التَّمَدُّدِ عَلَى الْفِرَاشِ . فَخَلَعَ حِذَاءَهُ وَتَحَسَّسَ نُعُومَةَ الأَغْطِيَةِ وَالْمِخَدَّةِ وَاسْتَلْقَى هَكَذَا بِدُونِ أَنْ يَخْلَعَ سِتْرَتَهُ أَوْ شَاشِيَّتَهُ .

كَانَ بَعِيدًا عَنْ كُلِّ حَرَكَةٍ بِالْقَصْرِ اللَّهُمَّ إِلاَّ مَا يَسْمَعُهُ مِنْ خَرِيرِ الْمِيَاهِ فِي الْبُسْتَانِ ، وَنَقْنَقَةِ بَعْضِ الضَّفَادِعِ وَتَرْنِيمَةِ الْبُسْتَانِيِّ الْبَعِيدَةِ . كُلُّ هَذِهِ الأَصْوَاتِ الْخَفِيفَةِ كَانَتْ تُهَدْهِدُهُ وَتَدْعُوهُ إِلَى الاخْلاَدِ إِلَى النَّوْمِ بَعْدَ مِحْنَتِهِ مَعَ « الطَّيَّابِ » وَخَوْضِهِ الْمِيَاهَ الزَّاخِرَةَ وَلَيْلَتِهِ الْمُؤَرِّقَةِ .

أَفَاقَ مَذْعُورًا عَلَى طَرْقٍ خَفِيفٍ ، رَقِيقٍ ... فَقَفَزَ قَفْزَةً لَبِسَ مَعَهَا حِذَاءَهُ بِسُرْعَةٍ وَتَوَجَّهَ إِلَى الْبَابِ وَفَتَحَهُ بِرِفْقٍ فَوَجَدَ تِلْكَ الْفَتَاةَ الرَّقِيقَةَ ، وَاقِفَةً ، وَقَالَتْ لَهُ فِي حَيَاءٍ :

ـ الطَّعَامُ جَاهِزٌ وَ « سِيدِي » يُنَادِيكَ .

وَمِنْ دُونِ أَنْ تَسْمَعَ مِنْهُ صَوْتًا مَرَّتْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ خَارِجَةً إِلَى الْبَهْوِ فَاتَّجَه إِلَى بَيْتِ الْحَمَّامِ وَأَصْلَحَ من شَأْنِهِ وَمَرَّ بِالْمَكْتَبَةِ فَوَجَدَ « الْعَادِل » يَتَهَيَّأُ لِلْخُرُوجِ .

ـ عَلَى السَّلاَمَة يَا طَاهِر قُدُومُكَ مُبَارَكٌ .

ـ اللَّهُ يُسَلِّمُكَ ...

ـ هَيَّا نَذْهَبْ إِلَى تَنَاوُلِ طَعَامِ الْغَدَاءِ .

وَتَغَدَّى « الطَّاهِر » مَعَ « الْفَرِيك مُصْطَفَى » وَ « عَادِل » وَحْدَهُمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ . لأَنَّ زَوْجَةَ الْفَرِيك اعْتَذَرَتْ وَبَقِيَتْ تِلْكَ الْفَتَاةُ غَيْرَ بَعِيدٍ تَسْتَجِيبُ لِطَلَبَاتِ سَيِّدِهَا ... عَرَفَ أَنَّ اسْمَهَا زُبَيْدَة ... وَفَهِمَ أَنَّهَا الْمُتَصَرِّفَةُ فِي الْقَصْرِ وَالْمُحْتَرَمَةُ فِي ذَلِكَ الْبَيْتِ .... فَمَالَ إِلَيْهَا قَلْبُهُ .

* * *

عَرَفَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ نَوْعَ الْعَمَلِ الْمُنَاطِ بِعُهْدَتِهِ . وَتَسَلَّمَ دَفَاتِرَ الْحِسَابَاتِ ،

وَفَهِمَ طَرِيقَةَ مَسْكِهَا ، وَعَلِمَ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَذْهَبَ مِنْ حِينٍ إِلَى آخَرَ مَعَ « الْفَرِيك مُصْطَفَى » لِتَفَقُّدِ الضَّيْعَاتِ وَتَيَقَّنَ أَنَّ لَهُ مُتَّسَعًا مِنَ الْوَقْتِ لِلْغَرْفِ مِنَ الْكُتُبِ ، وَهُوَ الَّذِي سَرَّهُ أَكْثَر مِنْ مَبْلَغ مُرَتَّبِهِ ، وَجَعَلَهُ يَرْتَاحُ إِلَى وَضْعِهِ الْجَدِيدِ رَغْمَ مَا فِيهِ مِنْ ثِقَل كُلْفَةِ الْحَذَرِ وَالتَّوَقِّي ، وَوَطْأَةِ الْعَلاَقَاتِ الْمَشُوبَةِ بِفُرُوضِ الْوَلاَءِ وَالطَّاعَةِ وَطُقُوسِ الْمَرَاسِمِ وَالتَّشْرِيفَات . وَلَكِنَّهُ كَانَ يُحِسُّ بِأَنَّ شَيْئًا جَدِيدًا لَمْ يَعْرِفْهُ مِنْ قَبْلُ ، وَارْتَاحَ لَهُ ، أُضِيفَ إِلَى وَضْعِهِ الْمُتَقَلِّبِ ، وَجَعَلَهُ يُفَكِّرُ مِنْ حِينٍ إِلَى آخَرَ تَفْكِيرًا مُتَقَطِّعًا لَذِيذًا ... لاَ تُشْبِهُهُ الأَكْلَةُ الطَّيِّبَةُ الَّتِي ذَاقَهَا فِي هَذِهِ الظَّهِيرَةِ ، وَلاَ الْفِرَاشُ اللَّيِّنُ الَّذِي عَرَفَهُ مُنْذُ حِينٍ ، وَلاَ اللِّبَاسُ النَّاعِمُ الْمُتَزَيِّنُ بِهِ فِي هَذَا الْيَوْمِ الْمُبَارَكِ .

هُوَ تَفْكِيرٌ فِيهِ رِقَّةٌ تُشْبِهُ رِقَّةَ قَوَامِ تِلْكَ الْفَتَاةِ ، وَرِقَّةَ نَظْرَتِهَا ، وَرِقَّةَ مَلاَمِحِهَا ، وَرِقَّةَ نَبَرَاتِهَا ، وَرِقَّةَ اسْمِهَا : « زُبَيْدَة » فِيهِ نُعُومَةٌ كَنُعُومَةِ الاسْمِ الْمُشْتَقِّ مِن اسْمِهَا .

هُوَ شُرُودٌ فِيهِ إِحْسَاسٌ بِالرِّقَّةِ أَعَانَهُ عَلَيْهِ الصَّمْتُ الْجَاثِمُ حَوْلَهُ .

وَفَهِمَ أَنَّهُ لَمْ يَشُدَّهُ إِلَى هَذِهِ الدَّارِ أَيُّ شَيْءٍ أَكْثَرَ مِنْ هَذِهِ الرِّقَّةِ وَمَصْدَرِهَا . وَأَحَسَّ بِأَنَّهُ خُلِقَ لِيَلْتَذَّ وَيَسْتَمْتِعَ بِهَذِهِ الرِّقَّةِ أَكْثَرَ مِنْ بِنَاءِ مُسْتَقْبَل وَإِيجَادِ شُغْلٍ وَضَمَانِ عَيْش .

سُبْحَانَ اللَّهِ كَيْفَ يُولَدُ الانْسَانُ ، وَقَدْ بُذِرَتْ فِيهِ بُذُورٌ لاَ يَعْلَمُ مَأْتَاهَا وَلاَ مَصْدَرَهَا ! لَقَدْ عَاشَ « الطَّاهِر » فِي قَرْيَتِهِ بَعِيدًا عَنِ الشُّعُورِ بِالرِّقَّةِ وَالْجَمَالِ ، وَإِنْ كَانَ غَارِقًا فِيهِمَا . الطَّبِيعَةُ جَمِيلَةٌ فِي قَرْيَتِهِ ، وَالنِّسَاءُ جَمِيلاَتٌ رَقِيقَاتٌ وَلَكِنَّهُ تَعَوَّدَ كُلَّ ذَلِكَ مُنْذُ نَشْأَتِهِ .

أَمَّا هُنَا فَإِنَّ كُلَّ حَسَنَةٍ مِنَ الدُّنْيَا تَبْرُزُ صَارِخَةً ، عَالِقَةً بِالانْسَانِ ، تَشُدُّهُ إِلَيْهَا

وَتَأسُرُهُ . فَلْتَكُنْ هَذِهِ الرِّقَّةُ هِيَ الْحَبْلُ الَّذِي يَرْبِطُهُ إِلَى حَيَاتِهِ الْجَدِيدَةِ وَلْيَحْدُثْ مَا يَحْدُثُ .

وَانْقَضَى ذَلِكَ آلْيَوْمُ بَيْنَ الْـمَكْتَبَةِ وَآلْبُسْتَانِ لِتَفَقُّدِ أَحْوَالِ الْعَمَلَةِ . وَنَامَ فِي لَيْلَتِهِ تِلْكَ ، نَوْمَةً طَوِيلَةً لَمْ تُشَوِّشْهَا حَتَّى مُوسِيقَى نَقْنَقَةِ الضَّفَادِعِ .

وَفِي الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ نَهَضَ وَلَبِسَ لِبَاسَهُ الأَنِيقَ ، وَخَرَجَ مُتَوَجِّهًا إِلَى تُونِسَ . هُوَ يَوْمُ عُطْلَتِهِ ، يَوْمُ آلْجُمُعَةِ . وَكَانَ عَلَى أَحَرِّ مِنَ آلْجَمْرِ لِلالْتِقَاءِ بِأَهْلِ بَلْدَتِهِ .

* * *

نَزَلَ مِنَ « التِّرَامِ » بِبَابِ « سُوَيْقَة » وَتَوَجَّهَ إِلَى مَقْهَى « خَالْ عَلِي » وَدَخَلَ ضَبَابًا لاَ تَظْهَرُ مِنْهُ رُؤُوسُ الْحُرَفَاءِ آلْقَابِعِينَ هُنَاكَ إِلاَّ عَنْ قُرْبٍ : ضَبَابًا أَفْرَزَهُ دُخَانُ السَّقَائِرِ وَ « الشِّيشَاتِ » ، (النَّارَجِيلاَتِ) وَالتَّكْرُورِي وَأَنْفَاسُ النَّاسِ وَبُخَارُ الْقَهْوَةِ وَالشَّايِ .

لَمْ يَعْرِفْهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ قَرْيَتِهِ آلْجَالِسِينَ حَوْلَ أَرْبَعَةٍ يَلْعَبُونَ الْوَرَقَ . فَنَادَى أَحَدَهُمْ بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ ، وَعَرَّفَهُ بِنَفْسِهِ فَلَمْ يَعْرِفْهُ إِلاَّ بَعْدَ لأْيٍ . وَعِنْدَ ذَلِكَ كَانَ الضَّحِكُ وَآلْـمُدَاعَبَةُ وَآلْـمُزَاحُ .

نَظَرَ إِلَى أَخْدَانِهِ مِنْ أَهْلِ قَرْيَتِهِ وَلَكِنَّهُ أَحَسَّ أَنَّهُ أَصْبَحَ بَعِيدًا عَنْهُمْ شَيْئًا مَا ... مُغَايِرًا لَهُمْ ... بَدَوْا لَهُ فِي مَظْهَرٍ آخَرَ ... أَحَسَّ نَحْوَهُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الرَّأْفَةِ ... هَذَا شَاشِيَّتُهُ قَدِيمَةٌ فَقَدَتْ كُلَّ لُيُونَةٍ حَتَّى أَنَّكَ لَوْ رَمَيْتَهَا عَلَى الْجِدَارِ لَتَكَسَّرَتْ شَظَايَا مِنْ فَرْطِ يُبْسِهَا النَّاتِجِ عَنْ تَسَرُّبِ مَاءِ الْـمَطَرِ وَالْغُبَارِ وَالأَوْسَاخِ وَآلْعَرَقِ . هِيَ مَادَّةٌ آشْتُقَّتْ مِنْ تَرَسُّبِ الْـمَعَادِنِ وَالأَتْرِبَـةِ فِي طَبَقَـاتِ الأَرْضِ .. وَذَلِكَ تَدَثَّـرَ بِبُـرْنُسٍ إِحْتَكَّ بِهِ الزَّمَانُ فَأَفْقَدَهُ تُخُونَتَهُ ، وَجَرَّدَهُ مِنْ صُوفِهِ فَلَمْ يَبْـقَ مِنْـهُ إِلاَّ السَّدَى ... وَثَالِثٌ ضَحِكَ حِذَاؤُهُ ، مُقَهْقِهًا ، وَظَهَرَ مِنْهُ إِصْبَعٌ مُطِلٌّ مِنَ الْجَوَارِبِ

أَسْوَدَ كَأَسْنَانِ صَاحِبِهِ الْـمَصْنُوعَةِ مِنْ الأَبْنُوسِ وَقَدْ لَوَّثَتْهَا السَّقَائِرُ ، وَالْخَوْفُ مِنْ تَنْظِيفِهَا ... وَآخَرُ ... وَآخَرُ ....

لَعَنَ ٱلْفَقْرَ وَٱلْخَصَاصَةَ ، ثُمَّ شَعر بِالنِّقْمَةِ تَنْتَابُهُ وَلَكِنَّهُ مَحْظُوظٌ فُتِحَ « بَابُ الْعَرْشِ لَهُ » وَهَؤُلاَءِ بَقِيَ مُغْلَقًا فِي وُجُوهِهِمْ فَمَا ذَنْبُهُ هُوَ ؟ وَمَا حِيلَتُهُ ؟ لِيَكُنْ مَا يَكُونُ وَلْتَسِرِ الأُمُورُ كَمَا قَدَّرَ اللَّهُ .... قَالَ لَهُ أَحَدُهُمْ :

ـ كَيْفَ سَتَذْهَبُ مَعَنَا بِهَذِهِ الْبَدْلَةِ إِلَى حَوْمَةِ .... وَضَحِكَ ٱلْجَمِيعُ وَقَالَ آخَرُ :

ـ هُوَ فِي لِبَاسِ ٱلْـمَلاَئِكَةِ الآنَ ... وَٱلْـمَلاَئِكَةُ لاَ تَأْكُلُ وَلاَ تَشْرَبُ وَلاَ تَنَامُ وَلاَ تَـ ...

وَقَهْقَهُوا كُلُّهُمْ وَصَمَتَ « الطَّاهِرِ » وَاضْطُرَّ إِلَى مُغَادَرَةِ ٱلْـمَقْهَى لِيَرْجِعَ مُبَكِّرًا إِلَى « بَارْدُو » قَبْلَ غُرُوبِ الشَّمْسِ ، لأَنَّهُ لَمْ يَتَعَوَّدْ بَعْدُ مَجْرَى الْحَيَاةِ فِي ٱلْقَصْرِ.

فَصَاحَ أَحَدُهُمْ :

ـ هَذَا ثَمَنُ ٱلْعُلَى ... لِيَنْتَقِمْ مِنْكَ الرَّبُّ يَا « طَاهِر » ... أَهْلُ ٱلْعُقُولِ فِي رَاحَةٍ ...

أَمَّا أَنْتَ فَسَتُضَيِّعُ عَقْلَكَ . لَمْ يَقُلِ « الطَّاهِر » شَيْئًا وَوَدَّعَهُمْ وَلَكِنَّهُ بَقِيَ يُرَدِّدُ آخِرَ الْعِبَارَةِ : سَتُضَيِّعُ عَقْلَكَ . وَأَحَسَّ بِأَنَّ عَقْلَهُ تَاهَ مَرَّةً أُخْرَى فِي رِقَّةِ « زُبَيْدَة » .

* * *

مَضَتْ أَيَّامٌ وَهُوَ بِالْقَصرِ يَعِيشُ فِي رَتَابَةٍ اسْتَمْلَحَهَا وَاسْتَطَابَهَا ، لأَنَّهَا لاَ تُكَلِّفُهُ عَنَاءً كَبِيرًا . فَهُوَ بَيْنَ الضَّيْعَاتِ وَشُؤُونِ « الْفَرِيك » وَغُرْفَتِهِ ، وَٱلْـمَكْتَبَةِ ، يَعِيشُ فِي طُمَأْنِينَةٍ ضِمْنَ هَذِهِ ٱلْعَائِلَةِ النَّبِيلَةِ ، التَّقِيَّةِ الَّتِي ٱحْتَضَنَتْهُ فَأَحَبَّتْهُ وَأَحَبَّهَا .

وَأَصْبَحَ يَشْعُرُ بِحُرِّيَةٍ كَبِيرَةٍ ، وَأَكْثَرَ مِنْ هَذَا شَعَرَ بِأَنَّهُ إِنْسَانٌ لَهُ حُرْمَتُهُ ، وَكَرَامَتُهُ ، وَأَنَفَتُهُ . كَانَ مُنْذُ أَيَّامٍ أَسِيرَ الْفَقْرِ ، وَأَهْلِ الْقَرْيَةِ ، وَعُيُونِهِمْ ، وَجَهْلِهِ بِفُسْحَةِ الْحَيَاةِ وَرَحَابَتِهَا . أَمَّا ٱلْيَوْمَ فَهُوَ لاَ يُفَكِّرُ فِي قُوتِ يَوْمِهِ وَهُوَ بَعِيدٌ عَنْ أَنْظَارِ لِذَاتِهِ الَّذِينَ يُضَيِّقُونَ عَلَيْهِ الْخِنَاقَ ، وَيَدْخُلُونَ فِي شُؤُونِهِ الْخَاصَّةِ ، وَيَنْقُلُونَ

أخْبَارَهُ إلى الْقَرْيَةِ حقًّا أوْ بَاطِلاً . وَهْوَ يَتَعَلَّمُ الآنَ كَيْفَ يَعِيشُ الانْسَانُ الْحُرُّ ، الْكَرِيمُ ، الْـمُهَذَّبُ . فَلاَ لَغْوَ وَلاَ كَلاَمًا بَذِيئًا وَلاَ عِبَارَاتٍ مُحْرِجَةً وَقِحَةً .

وَتَعُودُ الذَّاكِرَةُ بِالطَّاهِرِ إلى شُعُورِهِ بِالْكَرَامَةِ ، وَالْحُرِّيَةِ عِنْدَمَا كَانَ فِي الْقَرْيَةِ ثُمَّ بَعْدَ انْتِقَالِهِ إلى تُونِسَ .

كَانَ يَشْعُرُ بِنَفْسِهِ حُرًّا فِي الْقَرْيَةِ عِنْدَمَا يَجُوبُ مَسَالِكَ قَرْيَتِهِ ، وَيَخْـرُجُ إلى الرِّيفِ ، سَارِحًا فِي الْفَضَاءِ الشَّاسِعِ الَّذِي لاَ يَحُدُّهُ حَدٌّ سِوَى غَابَةِ الزَّيْتُونِ أَوْ الْبَحْرِ . وَلَكِنَّهَا حُرِّيَةٌ تُشْبِهُ حُرِّيَةَ الطَّائِرِ الَّذِي يُحَلِّقُ فِي السَّمَاءِ لاَ يَشْعُرُ بِهَا فَهْيَ طَبِيعَةٌ فِيهِ ، يَنْزَعُ إِلَيْهَا غَرِيزَةً وَجِبِلَّةً .

وَكَانَ يَشْعُرُ بِالْحُرِّيَةِ أَيْضًا عِنْدَمَا يَخْرُجُ مِنَ « الْوَكَالَةِ » وَيَجُوبُ أَنْهُجَ وَشَوَارِعَ تُونِسَ لاَ يَصُدُّهُ أَحَدٌ ، وَلاَ يُحَاسِبُهُ عَلَى ذَلِكَ أَيُّ إِنْسَانٍ .

وَلَكِنْ ، أَيَّةُ حُرِّيَةٍ هَذِهِ الَّتِي تُضَيِّقُ عَلَيْهِ الْخِنَاقَ ، وَلاَ تَتْرُكُهُ يَخْتَارُ مَصِيرَهُ بِنَفْسِهِ ؟ وَلَقَدْ شَعُرَ الآنَ أَنَّ الْعَالَمَ كَانَتْ أَبْوَابُهُ مُغْلَقَةً أَمَامَهُ ، وَكَانَ يَـمُرُّ أَمَامَهَا وَلاَ يَشْعُرُ بِتِلْكَ الأَبْوَابِ : جُدْرَانٌ سَمِيكَةٌ فَحَسْبُ ، عَالِيَةٌ وَلاَ يَـمُرُّ بِبَالِهِ أَنَّ هُنَالِكَ عَوَالِمَ أُخْرَى ، هِيَ هَذِهِ الَّتِي دَفَعَهُ الْحَظُّ إِلَيْهَا ، وَجَعَلَهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ يَخْتَارُ بَيْنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ ، بَيْنَ الطِّيبَةِ وَالْفَسَادِ ، بَيْنَ الْقَنَاعَةِ وَالنَّهَمِ ، بَيْنَ إِرْضَاءِ الشَّهَوَاتِ وَكَبْتِهَا .

هَذِهِ هِيَ الْحُرِّيَةُ الْحَقِيقِيَّةُ أَمَّا الأُخْرَى فَهْيَ الطَّاعَـةُ وَالْعَفْـوِيَّةُ وَكَانَ ثَمَنُهَـا رَخِيصًا . أَمَّا الآنَ فَهْيَ تَتْرُكُ فِي النَّفْسِ جُرُوحًا إِنِ الْتَأَمَتْ فَآثَارُهَا لَنْ تُـمْحَى .

السُّمُوُّ بِعَيْنِهِ مَعَ أَفْرَادِ الْقَصرْ كُلِّهِمْ ، وَالْـمَعْرِفَـةُ وَالْعِلْـمُ مَعَ « عَـادِل » فِي الْـمَكْتَبَةِ وَفُسْحَةُ الأَمَلِ عِنْدَمَا يَنْظُرُ إِلَى « زُبَيْدَة » . فَكَأَنَّهَا الْجَنَّةُ الَّتِي وَعَدَ اللَّهُ بِهَا الْـمُتَّقِينَ .

أَمَّا الْكَرَامَةُ فَأَيَّةُ كَرَامَةٍ فِي الْفَقْرِ وَالْجَهْلِ وَالْعَنَتِ ؟! فِي الْقَرْيَةِ عِنْدَمَا كَانَ لاَ يَشْعُرُ بِنَفْسِهِ أَنَّهُ إِنْسَانٌ بِأَتَمِّ مَعْنَى الْكَلِمَةِ أَمَامَ أَبِيهِ ، وَجَدِّهِ وَالْـمُعَلِّـمِ وَمُـدِيرِ

الـمَدْرَسَةِ الْفِرَنْسِي . هِيَ كَرَامَةٌ زَائِفَةٌ لأَنَّ الْكَرَامَةَ الْحَقَّ هِيَ الَّتِي لاَ يَرْضَى صَاحِبُهَا بِأَنْ يُـمْقَتَ فِي الْيَوْمِ مَرَّاتٍ وَأَنْ يُحْتَقَرَ فِي مُبَادَرَاتِهِ ، وَيُهَانَ بِدُونِ حِسَابٍ حَتَّى مِنْ لِدَاتِهِ ، وَفِي هَذِهِ الْحَالِ فَالأَمْرُ أَهْوَنُ لأَنَّهَا إِهَانَةٌ مُتَبَادَلَةٌ . وَالآنَ أَصْبَحَ لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ الْكَلِمَةَ الْحُلْوَةَ وَالتَّقْدِيرَ ، وَالتَّبْجِيلَ ، وَالتَّفَهُّـمَ وَالتَّسَامُـحَ ، وَغَضَّ الطَّـرْفِ عَنِ السَّقَطَاتِ .

وَلَكِنَّ « الطَّاهِر » كَانَ يُصِـرُّ رَغْمَ هَذَا عَلَى أَنْ يَلْتَقِيَ كُلَّ جُمْعَةٍ بِأَهْلِ الْقَرْيَةِ ، فَيَلْبَسُ الْجُبَّـةَ وَالْبُـرْنُسَ كَعَادَتِـهِ وَيَنْغَمِسُ مَعَهُـمْ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، فِي تَضَامُنِهِـمْ وَتَوَادِّهِمْ ، فِي عَبَثِهِمْ وَجِدِّهِمْ ، فِي اِنْحِدَارِهِمْ فِي بَعْضِ الأَحْيَانِ إِلَى دَرَكَاتِ التَّنَاحُرِ وَالشِّقَاقِ . وَهُوَ رَغْمَ هَذَا يُحِبُّهُمْ ، وَيَلَذُّ لَهُ أَنْ يَبْقَى مَعَهُمْ طَوِيلاً إِلَى الْـهَزِيعِ الأَخِيرِ مِنَ اللَّيْلِ ، يُشَاطِرُهُمْ كُلَّ شَيْءٍ وَيُخَفِّفُ عَنْهُمْ ضِيقَ أَيْدِيهِمْ مِنْ حِينٍ إِلَى آخَرَ .

ثُمَّ يَعُودُ إِلَى جَنَّتِهِ لِيَلْتَذَّ بِكَلاَمِ « الْفَرِيك مُصْطَفَى » وَبِحُلْوِ عِبَارَاتِـهِ ، مِـمَّا يَجْعَلُهُ يُقَبِّلُ يَدَهُ مِنْ دُونِ أَنْ يَشْعُرَ ، وَتَنْحَلُّ عُقْدَةُ لِسَانِهِ وَهُوَ الضَّنِينُ بِالْكَلاَمِ ، فَيَشْكُرُ وَيَـمْدَحُ ، وَيُثْنِي . وَكَذَلِكَ الشَّأْنُ مَعَ زَوْجَةِ « الْفَرِيك » . أَمَّا « عَادِل » فَأَمْرُهُ يُخَالِفُ مَنْ فِي الْقَصرِ ، لاَ لأَنَّهُ لاَ يُشْبِهُهُمْ فِي خَلْقِهِ وَخُلُقِهِ بَلْ لأَنَّهُ مُلاَزِمٌ لَهُ فِي أَكْثَرِ الْوَقْتِ ، وَيَطُولُ مَعَهُ الْحَدِيثُ ، وَالنِّقَاشُ فِي شُؤُونٍ عَدِيدَةٍ .

« عَادِل » ابْنُ « الْفَرِيك مُصْطَفَى » فِي سِنِّ « الطَّاهِر » هُوَ رَبْعَةٌ ، مَلِيحُ الْقَدِّ ، حُلْوُ الْقَسَمَاتِ ، وَجْهُهُ كَطَلْعَةِ الْقَمَرِ ، تُزَيِّنُهُ عَيْنَانِ دَعْجَوَانِ ، وَحَاجِبَانِ كَثَّانِ ، وَأَنْفٌ ظَرِيفٌ ، وَفَمٌ شَهْوَانِـيٌّ ، وَلِحْيَةٌ غَيْرُ كَثِيفَةٍ تَـمْلأُ وَجْهَهُ ،مُصَوَّرَةً تَصْوِيرًا كَأَنَّهَا جَنَاحُ خُطَّافٍ .

أَمَّا مِشْيَتُهُ فَرَفِيقَةٌ فِيهَا تَرَنُّحٌ ، وَبَعْضُ خُيَلاَءَ ، لاَ تَعْرِفُ السُّرْعَةَ الـمُفْرِطَةَ وَلاَ



عـادِل

الْبُطْءَ الْـمُشِينَ ، فَكَأَنَّهَا مُقَتَّرَةٌ تَقْتِيرًا ، بَخِيلَةٌ كَبُخْلِ صَاحِبِهَا بِالْكَلِمَاتِ ، ضَنِينَةٌ كَاقْتِضَابِ الأَلْفَاظِ فِي فَمِ « عَادِل » .

وَرَغْمَ هَذَا ، وَمَعَ لُثْغَةٍ خَفِيفَةٍ فِي لِسَانِهِ ، فَإِنَّ « عَادِل » جَمَعَ بَيْنَ حُلْوِ الْكَلاَمِ وَرِقَّةِ النَّظْرَةِ ، فَلاَ تَكَادُ تَفْطَنُ إِلَى لُثْغَتِهِ وَاخْتِصَارِهِ لِلْكَلِمَاتِ لأَنَّ نَظْرَتَهُ الطَّوِيلَةَ الْـمُعَبِّرَةَ تَكْفِيكَ مَؤُونَةَ الْفَهْمِ ، وَتَجْعَلُكَ تَرْتَاحُ إِلَيْهِ وَتَسْتَطِيبُ عِشْرَتَهُ .

كَانَ « عَادِل » يُعَاشِرِ عِلْيَةَ الْقَوْمِ وَيَتَرَدَّد عَلَى الْـمَجَالِس الأَدَبِيَّة وَيَكْتُبُ فِي الْجَرَائِد وَيَقْرِض الشِّعْرَ وَلَكِنَّهُ لاَ يَنْشرُه وَيعْتَبِرُ نَفْسَهُ أَدِيبًا يَرْوِي الشِّعْر وَالأَخْبَار الْقَدِيمَة وَلَهُ رَأْيُهُ فِيهَا وَهْوَ رَأْيٌ يَمِيـلُ إِلَى التَّجْدِيد فِي كُل شَيْءٍ وإِلَى التطَرّف .

وَلَمْ يَكُنْ « لِلطَّاهِر » سَعَةُ اطِّلاَعِ « عَادِل » وَلاَ احْتِكَاكُهُ بِالأُدَبَاءِ فِي تُونِسَ ، وَمَعْرِفَتُهُ لِلْحَرَكَاتِ الأَدَبِيَّةِ فِي الْمَشْرِق الْعَرَبِيّ ، وَلَكِنَّ حَدْسَهُ كَانَ قَوِيًّا ، وَحُجَّتَهُ مُعَلَّلَةً بِمَنْطِقٍ يَخْتَارُ لَهُ « عَادِل » فِي بَعْضِ الأَحْيَانِ ، وَيَتَسَاءَلُ كَيْفَ يُـمْكِنُ لِـهَذَا الشَّخْصِ الْبَسِيطِ أَنْ يُقَارِعَهُ الْحُجَّةَ وَيَدْمَغَهُ بِالدَّلِيلِ .

* * *

بَعْدَ ثَلاَثَةِ أَشْهُرٍ مَرَّتْ كَالسَّحَابِ الْعَابِرِ عَرَفَ فِيهَا أَهْلَ الْقَصْـرِ عَنْ كَثَبٍ وَعَرَفُوهُ بِثِقَتِهِ وَدَمَاثَةِ أَخْلاَقِهِ ، وَإِتْقَانِهِ لِلْعَمَلِ وَصَمْتِهِ . عَرَفَ « زُبَيْدَة » الَّتِي أَصْبَحَتْ تَرْتَاحُ إِلَيْهِ ، وَ « رِبـح » خَادِمَـةَ « عَـادِل » ، وَالْـمُعِينَـةَ لَهَـا الطِّفْلَـة الصَّغِيـرَةَ « عِلْجِيَّة » ، وَكَذَلِكَ خَادِمَتَهُ هُوَ « دُوجَة » .

وَفِي يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ ذَاكَ الشِّتَاءِ ، وَفِي دِفْءِ الْـمَكْتَبَةِ كَانَ « الطَّاهِر » يَقْرَأُ أَخْبَارَ « جَمِيل بُثَيْنَةَ » مِنْ كِتَابِ الأَغَانِي وَيَتَوَقَّفُ مِنْ حِينٍ لآخَرَ لِيَسْأَلَ « عَادِل » عَنْ كَلِمَةٍ أَوْ عِبَارَةٍ أَوْ لِيُشَارِكَهُ إِسْتِمْتَاعَهُ لِطَلاَوَةِ كِتَابَةِ أَبِي الْفَرَجِ الاصْبَهَانِي وَشِعْرِ جَمِيلٍ وَإِذَا « بِعَادِل » يَقُولُ لَهُ :

ـ هَلْ أَحببتَ أَنْتَ فِي حَيَاتِكَ مَرَّةً ؟

وَسَكَتَ « الطَّاهِر » لأَنَّهُ مُنْذُ يَوْمِهِ الأَوَّلِ فِي هَذَا الْقَصرْ وَهُوَ غَارِقٌ فِي إِحْسَاسٍ غَامِضٍ نَحْوَ « زُبَيْدَة » لَمْ يَتَمَكَّنَ مِنْ تَفْسِيرِهِ وَتَوْضِيحِهِ .

وَيَرُدُّ « عَادل » مِنْ دُونِ أَنْ يَنْتَظِرَ جَوَابًا :

ـ أَمَّا أَنَا فَقَدْ أَحْبَبْتُ فَتَاةً وَهْيَ غَيْرُ عَارِفَةٍ بِحُبِّي لَهَا وَقُلْتُ فِيهَا شِعْرًا .

وَبَدَأَ « عَادِل » يُنْشِدُ أَبْيَاتًا حَفِظَهَا عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ قَالَ :

ذِكْرَيَاتٌ هَبَّتْ تُقَوِّضُ مَا بِالْقَلْبِ مِنْ مَيْلٍ لِلْحَيَاةِ أَخِيرِ
تُبْعِدُ اللَّهْوَ بِالسُّودِ مِنْ أَحْزَانِهَا ، بِالْيَأْسِ الشَّدِيدِ الْمَرِيرِ
بِالْهُمُومِ ، الثَّقِيلَةِ ، بِاللَّيَالِي الْحَالِكَاتِ ، بِالدَّمْعِ الْهَتُونِ الْغَزِيرِ
بِالسُّهَادِ مُكَحِّلِ الْجَفْنَ ، بِالْخَيْبَةِ تُضْنِي مِنْ كِيَانِي الصَّغِيرِ
ذِكْرَيَاتٌ أَقَضَّهَا اللَّيْلُ مِنْ مَضْجَعِهَا ذَا ، وَاللَّيْلُ مَهْدُ الْغُرُورِ
رَاحَ قَلْبِيَ يَدْعُو إِلَىَ نَبْذِهَا وَالْقَلْبُ يَصْبُو إِلَىَ نَوَاحِي السُّرُورِ
إِنَّ قَلْبِي قَدْ كَبَّلَتْهُ هُمُومٌ قَبْلَ هَذَا فَرَاحَ شِبْهَ أَسِيرِ
ثُمَّ هَبَّ يَرْنُو إِلَى الأَمَلِ الْعَذْبِ إِلَىَ الْحُبِّ ، وَهْوَ غَمْرُ الشُّعُورِ

* * *

أَتُرَاهَا تَدْرِي الَّذِي يَحْتَوِيهِ قَلْبُ هَذَا الْحَيِّ السَّقِيمِ الْغَرِيرِ ؟
أَتُرَاهَا تَصْبُو إِلَيْهِ كَمَا يَصْبُو إِلَيْهَا وَلَوْ بِفِكْرٍ يَسِيرِ ؟
أَمْ تُرَاهَا فِي غَفْلَةٍ عَنْ خَبَايَا الْحُبِّ هَذَا ، وَعَنْ جُنُونِ الضَّمِيرِ ؟
لَسْتُ أَدْرِي أَبِالْوُعُودِ سَأَحْظَى أَمْ سَأَحْظَى غَدًا بِصَدٍّ كَبِيرِ ؟
أَمَلِي فِي الْحَيَاةِ حُبٌّ يُنَاغِي قَلْبَ حِبِّي فَلاَ تَلُمْنِي عَذِيرِي .

وَأَخْرَجَ « عادِل » مِنْ جَيْبِهِ وَرَقَةً فِيهَا هَذَا الشِّعْرُ وَقَالَ :

ـ مَا قَوْلُكَ فِي هَذَا الشِّعْرِ .

ـ إِنَّهُ شِعْرٌ جَيِّدٌ لِمَاذَا لاَ تَنْشُرُهُ .

ـ لاَ لَيْسَ بِشِعْرٍ جَيِّدٍ وَإِنَّمَا أَطْلُبُ مِنْكَ وَأَنْتَ أَخِي أَنْ تَتَوَسَّطَ لِي ...

وَفِي هَذِهِ الأَثْنَاءِ كَانَ « الطَّاهِر » يَقُولُ فِي نَفْسِهِ :

ـ كَيْفَ ! إِنَّهُ يُعَبِّرُ عَنْ مَشَاعِرِي وَيُتَرْجِمُ عَنْ نَفْسِي الْحَزِينَةِ مُنْذُ أَنْ عَرَفْتُهَا ... إِنَّهُ يَكْذِبُ وَلَيْسَ يَظْهَرُ عَلَيْهِ مِثْلُ هَذَا الْحُزْنِ الَّذِي يَكْرَهُهُ ...

ثُمَّ اِسْتَجْمَعَ « الطَّاهِر » فِكْرَهُ الشَّارِدَ وَقَالَ :

ـ أَتَوَسَّطُ .. ! مَنْ هِيَ الْفَتَاةُ ؟ .

ـ هِيَ « زُبَيْدَة » .

وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ الرَّقِيقَةُ فِي الْعَادَةِ كَالصَّاعِقَةِ عَلَيْه فِي هَذِهِ الْـمَرَّةِ ، وَنَطَّ مِنْ كُرْسِيِّهِ كَالرَّصَاصَةِ ، وَخَرَجَ مِنَ الْـمَكْتَبَةِ إِلَى غُرْفَتِهِ .

وَلَمْ يَكُنْ مِنْ « عَادِل » إِلاَّ أَنْ جَرَى مُقْتَفِيًا أَثَرَهُ وَدَخَلَ الْغُرْفَةَ وَقَالَ :

ـ مَا بِكَ يَا « طَاهِر » ..؟ لِـمَاذَا هَذَا الْغَضَبُ ... بِاللّهِ عَلَيْكَ لاَ تُطْلِعْ أَحَدًا عَلَى مَا قُلْتُهُ : ...

ـ مِنْ هُنَا فَصَاعِدًا لَنْ أُكَلِّمَكَ فِي هَذَا الْـمَوْضُوعِ . أَنْتَ لاَ تَرْعَى حُرْمَـةَ دَارِ وَالِدِكَ ... دَارِكَ وَتُرِيدُ أَنْ تَزُجَّ بِي فِي أَمْرٍ يُظْهِرُنِي بِـمَظْهَرِ الْغَادِرِ وَالْخَائِنِ ... أَيْنَ مُرُوءَتُك ... وَأَخْلاَقُكَ ؟

ـ سَامِحْنِي يَا « طَاهر » ... وَإِنَّـمَا أَنَا أُحِبُّهَا ، وَأُرِيدُ أَنْ أَتَزَوَّجَهَا . وَزَادَ غَضَبُ « الطَّاهِر » عِنْدَ ذَلِكَ وَوَاجَهَهُ وَالشَّرَرُ يَتَطَايَرُ مِنْ عَيْنَيْهِ وَأَطْرَافُ شَوَارِبِهِ الْـمَفْتُولَةِ تَتَرَاقَصُ :

ـ قُلْتُ لَكَ : كُفَّ عَنْ هَذَا الأَمْرِ وَإِلاَّ فَإِنِّي سَأُخْبِرُ سِيدِي « الْفَرِيك » .

وَعِنْدَ ذَلِكَ رَجَا « عَادِل » « الطَّاهِر » بِأَنْ يَنْسَى هَذَا الْمَوْضُوعَ وَلَنْ يَعُودَ أَبَدًا إِلَيْهِ وَلَكِنَّ « الطَّاهِر » قَالَ لَهُ :

ـ هَذَا مُسْتَحِيلٌ ... كَيْفَ ؟

ـ عَلَى الأَقَلِّ لاَ تُفَكِّرْ فِي الزَّوَاجِ مِنْهَا .

ـ ولِمَ ؟
ـ لأنَّهَا بِـمَثابَةِ أُخْتِكَ .
ـ لاَ إنَّ « زُبَيْدَة » هِيَ ابْنَةُ رَجُلٍ ثَرِيٍّ كَانَ مِنَ الأَعْيَانِ ، وَكَانَتْ أُمُّهَا جَمِيلَةً جـدًّا ، أَرَادَهَا أَحَدُ الْبَايَاتِ لِنَفْسِهِ ، وَلَمَّا لَمْ يَصِلْ إِلىَ ذَلِكَ كَادَ لِزَوْجِهَا مَكِيدَةً أَوْدَتْ بِحَيَاتِهِ وَظَنَّ أَنَّ الْـمَجَال أَصْبَح فَسِيحًا ، وَالْفُرْصَةَ سَانِحَةً ، وَلَكِنَّ أَمْرَهُ أُكْتُشِفَ وَعَرَفَتْ ذَلِكَ زَوْجَةُ الْـهَالِكِ وَأَهْلُهَا ، وَدَبَّرُوا لِهَذَا الْبَايِ الصَّغِيرِ مُؤَامَرَةً ذَهَبَ ضَحِيَّتَهَا فِي آخِرِ الأَمْرِ هُوَ وَالزَّوْجَةُ فَصُودِرَتْ أمْـلاَكُ هَذِهِ الْعَائِلَـةِ وَقَبَعُـوا فِي السِّجْـنِ وبَقِيَتْ « زُبَيْدَة » وَأُخْتُهَا « هَيْفَاء » بِدُونِ عَائِلٍ فَكَفَلَهَا وَالِدِي ، وَهِيَ رَضِيعَـةٌ وَكَفَـلَ « هَيْفَاء » رَجُلٌ خَيِّرٌ مِنَ الأَعْيَانِ .

وَخَارَتْ قُوَى « الطَّاهِر » وَجَلَسَ عَلىَ كُرْسِـيٍّ ، وَهُوَ يَنْظُرُ شَاخِصًا حَائِرًا فِي هَذِهِ القِصَّةِ وَكَأَنَّهُ يَقْرَأُ صَفْحَةً مِنْ كِتَابِ « أَلْفِ لَيْلَةٍ وَلَيْلَةٍ » ثُمَّ صرَخَ :
ـ وَهَلْ هَذَا صَحِيحٌ ؟
ـ نَعَمْ هِيَ الْحَقِيقَةُ .

وَسَالَتْ دُمُوعٌ مِنْ عَيْنَـيْ « الطَّاهِر » وَتَرَجَّى « عَادِل » أَنْ يَتْرُكَهُ وَشَأْنَهُ بَعْدَ أَنْ طَمْأَنَهُ وَوَعَدَهُ بِأَنْ لاَ يَقُولَ شَيْئًا .

وَلَمْ يَنَمْ لَيْلَتَهُ تِلْكَ . وَرَاحَتْ تُطَوِّحُ بِهِ الأَوْهَامُ ، وَالْخَيَالاَتُ ، وَتَدْفَعُهُ إِلىَ الظَّنِّ بِكُلِّ شَيْءٍ ، وَعَدَمِ أَخْذِ الأُمُورِ علىَ ظَوَاهِرِهَا . وَيَقُولُ فِي نَفْسِهِ :
ـ وَهَذِهِ الطِّيبَةُ ، وَهَذِهِ الْجَنَّةُ الْـمَوْعُودَةُ الَّتِي إِسْتَطَبْتُهَا وَاسْتَمْلَحْتُهَا ، وَأَخْلَدْتُ إِلَيْهَا إِنَّـماَ هِيَ قِشْرَةٌ بَرَّاقَةٌ تَحْكِي مَأْسَاةَ الانْسَـانِ . « زُبَيْدَة » ضَحِيَّةُ الْعُـدْوَانِ وَالظُّلْمِ ، مُهَدَّدَةٌ بِأَنْ تُصْبِحَ فَرِيسَةً لِهَذَا الشَّابِّ الْبَطِرِ الَّذِي لَيْسَ لَهُ مِنْ غَايَةٍ إِلاَّ الْعَبَثُ بِهَا :

إِنَّ الْفَرَاغَ وَالشَّبَابَ وَالْجِدَهْ　　　مَفْسَدَةٌ ! لِلْمَرْءِ أَيُّ مَفْسَدَهْ !



زبيدة

وَيُرِيدُ مِنِّي أَنْ أَكُونَ أَدَاةَ الشَّرِّ وَالْعَبَثِ ... أَنَا « الطَّاهِرِ » الَّذِي تَرَبَّيْتُ عَلَى الأَخْلاَقِ الْفَاضِلَةِ وَالاسْتِقَامَةِ وَالأَنَفَةِ أُصْبِحُ عُرْضَةً إِلَى الاسْتِهْزَاءِ مِنْ هَذَا الْعَابِثِ ... أَيْنَ الْمُرُوءَةُ ، أَيْنَ الْكَرَامَةُ ؟ أَنَا ابْنُ « أَبِيْ مُحَمَّد » الَّذِي لاَ يَعْرِفُ الانْحِنَاءَ أَمَامَ أَحَدٍ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ رَصِيدٍ إِلاَّ لِسَانُهُ السَّلِيطُ ، وَفَصَاحَتُهُ ، وَذَكَاؤُهُ ، أُصْبِحُ لُعْبَةً فِي يَدِ هَذَا الْـمُتَخَنِّثِ ... أَبَدًا .

وَقَرَّرَ فِي نَفْسِهِ أَنْ يَتَقَصَّى الأُمُورَ وَأَنْ يَغُوصَ فِي حَقِيقَةِ هَذَا الَّذِي يَحُفُّ بِالْحَيَاةِ حَوْلَهُ . وَصَمَّمَ عَلَى خُطَّةٍ مُحْكَمَةٍ .

* * *

كَانَتْ « دُوجَة » الْـمُكَلَّفَةُ بِخِدْمَتِهِ ، الْـمَرْأَةَ الْوَحِيدَةَ الَّتِي تَدْخُلُ جَنَاحَهُ ، وَتُرَتِّبُ مَتَاعَهُ ، وَلاَ تَسْتَنْكِفُ مِنْ دُخُولِ غُرْفَتِهِ وَهُوَ بِهَا ، وَتُحَدِّثُهُ كَثِيرًا وَلَكِنَّهُ لاَ يَسْمَعُهَا ، بَلْ يَنْهَرُهَا عِنْدَمَا تَمِيلُ إِلَى الْكَشْفِ عَمَّا يَدُورُ فِي الْقَصْرِ ، مُعْتَبِرًا ذَلِكَ مِنْ بَابِ السَّفَالَةِ .

وَ« دُوجَة » إِمْرَأَةٌ تَجَاوَزَ سِنُّهَا الأَرْبَعِينَ ، تَظْهَرُ مُنْهَكَةَ الْقُوَى لِفَرْطِ مَا عَمِلَتْ فِي الْبُيُوتِ مُنْذُ صِغَرِهَا وَلَكِنَّ اللَّهَ أَعْطَاهَا نَصِيبًا مِنَ الْجَمَالِ بَقِيَتْ صُبَابَةٌ مِنْهُ ، تُغْرِي فِي بَعْضِ الأَحْيَانِ .

وَلَعَلَّ « الطَّاهِرِ » كَانَ يَفْهَمُ مِنْ بَعْضِ إِشَارَاتِهَا ، وَحَرَكَاتِهَا أَنَّهَا لاَ تُمَانِعُ فِي الْوُقُوعِ لَهُ لَوْ أَرَادَهَا لِنَفْسِهِ ، وَلِهَذَا السَّبَبِ كَانَ دَائِماً يَصُدُّهَا عَنِ الاغْرَاقِ فِي الْحَدِيثِ ، وَيُسْرِعُ فِي الْخُرُوجِ ، وَيَتْرُكُهَا شَاخِصَةً لاَ تَفْهَمُ لِمَاذَا ؟

وَلِلنِّسَاءِ حَاسَّةٌ قَوِيَّةٌ تَكْشِفُ لَـهُنَّ عَنْ نَوَايَا الرِّجَالِ عِنْدَمَا يَهُمُّونَ أَوْ يَصُدُّونَ ، وَهَذَا مَا جَعَلَ « دُوجَة » تُكْثِرُ مِنْ إِغْرَاءِ « الطَّاهِرِ » بِأَسَالِيبَ مِنَ الصَّعْبِ عَلَى الرِّجَالِ أَلاَّ يَقَعُوا فِي أَحَابِيلِهَا . وَلَكِنَّ « الطَّاهِرِ » يَعْتَقِدُ أَنَّ الْـمُرُوءَةَ تَقْضِي بِأَنْ يَتَمَسَّكَ بِالاسْتِقَامَةِ فِي دَارِ رَجُلٍ أَكْرَمَهُ ، وَآوَاهُ ، وَجَعَلَهُ مَحَلَّ ثِقَتِهِ . وَلِـهَذَا يَجِبُ

عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ فِي مُسْتَوَى الرُّجُولَةِ الَّتِي يُؤْمِنُ بِهَا . أَمَّا النِّسَاءُ فَيَوْمُ ٱلْجُمُعَةِ مَعَ أَصْحَابِهِ فِي حَوْمَةِ ... يَقْضِي وَطَرَهُ مِنْهُنَّ وَضَمِيرُهُ مُرْتَاحٌ .

وَلَمَّا أَطَلَّ صَبَاحُ يَوْمِ الْجُمُعَةِ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَمِيسِ الْـمَشْؤُومِ قَرَّرَ أَلاَّ يُغَادِرَ غُرْفَتَهُ مُبَكِّرًا ، وَأَنْ يَنْتَظِرَ مَجِيءَ « دُوجَة » لِيَسْتَفْسِرَهَا عَنْ أَشْيَاءَ لاَ يَفْهَمُهَا .

وَطَرَقَتْ « دُوجَة » ٱلْبَابَ وَدَخَلَتْ وَقَالَتْ :

ـ مَا سَبَبُ بَقَائِكَ الْيَوْمَ فِي الْفِرَاشِ ؟ مَاذَا أَصَابَكَ ؟ هَلْ أَنْتَ مَرِيضٌ ؟

ـ أُحِسُّ بِشَيْءٍ مِنَ التَّعَبِ .

وَدَنَتْ مِنْهُ « دُوجَة » وَأَخَذَتْ تَـمْسَحُ عَلَى جَبِينِهِ وَتَقُولُ :

ـ إِسْمُ اللَّهِ عَلَيْكَ ... شَابٌّ مِثْلُكَ فِي عُنْفُوَانِهِ يُحِسُّ بِالتَّعَبِ .

وَبَالَغَتْ فِي مُدَاعَبَةِ شَعْرِهِ ، وَإِمْرَارِ يَدِهَا أَمَامَ أَنْفَاسِهِ الْحَارَّةِ ٱلْـمُلْتَهِبَةِ ، فَجَذَبَهَا إِلَيْهِ فَلَمْ تُـمَانِعْ بَلْ أَزَاحَتِ الْغِطَـاءَ ، وَانْدَسَّتْ تَحْتَـهُ . وَكَانَ جُنُـونٌ لَمْ يَعْرِفْـهُ « الطَّاهِر » مِنْ قَبْلُ وَشَبَقٌ مُسْتَعَادٌ اِهْتَزَّتْ لَهُ « دُوجَـة » وَذَهَـبَ بِهِ عَقْلُهَـا إِلَى الْـهَذَيَانِ ، وَالتَّلَفُّظِ بِأَلْفَاظٍ مَا كَانَ « لِلطَّاهِر » أَنْ يَنْتَظِرَهَا مِنْهَا .

وَأَسْرَعَ « الطَّاهِر » فِي النُّهُوضِ وَإِصْلَاحِ حَالِهِ . وَخَرَجَ وَكَأَنَّهُ هَارِبٌ مِنْ خَطَرٍ مُحَقَّقٍ .

وَلَمْ يَعْرِفْ كَيْفَ اِمْتَطَى « التَّرَام » وَكَيْفَ نَزَلَ « بِالْبَاسَاجِ » لِأَنَّهُ لَمْ يَشْعُـرْ بِـمَحَطَّةِ « بَاب سُوَيْقَة » .

وَسَارَ يَجُوبُ شَوَارِعَ الْعَاصِمَةِ فِي الْحَيِّ الأُورُبِيِّ السَّاعَاتِ الطِّوَالَ وَهُوَ يَقُولُ فِي نَفْسِهِ :

ـ لَقَدْ تَغَيَّرَ كُلُّ شَيْءٍ فِي حَيَاتِي ... الآنَ خَرَجْتُ مِنَ ٱلْحَيَاةِ بِالْقُـوَّةِ إِلَى الْحَيَاةِ بِالْفِعْلِ وَأَحَسَّ بِأَلَمٍ فِي جِهَازِهِ الْهَضْمِي ، مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ ، وَبَقِيَ يُعَاوِدُهُ مِنْ حِينٍ



دُوجه

لآخَرَ كُلَّمَا أجْهَدَتْهُ ٱلْحَيَاةُ بِالشِّبَعِ أَوْ الْجُوعِ ، بِالتَّعَبِ أَوِ الرَّاحَةِ . وَكَانَ يَقُولُ فِي لُغَةِ الْحُكَمَاءِ ، الْبُلَغَاءِ ، الأُدَبَاءِ ، الأَقْحَاحِ :

ـ وُلِدْتُ وَصُحْبَتِي الْبُكَاءُ ، وَدَخَلْتُ الْحَيَاةَ وَخَدِينِي الأَلَمُ .

وَلَمْ يَعْرِفْ سَبَبَ هَذَا الدَّاءِ الَّذِي ظَهَرَ لَهُ وَكَانَ يَنْسِبُهُ إِلَى كِبَرِ تِلْكَ الْـمَرْأَةِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ ، وَإِلَى قُوَّةِ الشَّهْوَةِ الَّتِي عَرَفَهَا مَعَهَا حَتَّى أَنَّهُ لَمْ يَشْعُرْ بِالْفَنَاءِ فِيهَا مِنْ فَرْطِ اللَّذَّةِ إِلاَّ فِي تِلْكَ الْمَرَّةِ وَأَحَسَّ أَيْضًا أَنَّ « دُوجَة » كَانَتْ تُشَاطِرُهُ هَذَا الْفَنَاءَ ... ٱلْفَنَاءَ فِي الشَّهْوَةِ .

وَأَدْمَنَ عَلَى ذَلِكَ الْفَنَاءِ فِي الصَّبَاحِ كُلَّمَا اتَّفَقَ الْحَالُ ، وَنَسِيَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ مَعَ أَصْحَابِهِ ، وَغَيَّرَ مِنْ عَادَاتِهِ فِي الْبَيْتِ وَالشَّارِعِ لأَنَّهُ لَمْ يَظْفَرْ بِاللَّذَّةِ الرَّخِيصَةِ الْقَرِيبَةِ مِنْ يَدِهِ أَوْ عَلَى الأَصَحِّ مِنْ إِ ... فَقَطْ بَلْ ظَفِرَ بِـمَعِينٍ لاَ مَثِيلَ لَهُ مِنَ الأَخْبَارِ عَنْ كُلِّ مَا يَجْرِي فِي الْقَصْرِ فَأَضَافَ إِلَى عُمْرِهِ أَعْمَارًا . وَكَانَ يَقُولُ أَيْضًا :

ـ وُلِدْتُ وَصُحْبَتِي الْبُكَاءُ ، وَدَخَلْتُ ٱلْحَيَاةَ وَخَدِينِي الأَلَمُ ، وَأَثْقَلْتُ عُمْرِي بِأَعْمَارِ الآخَرِينَ .

* * *

عَرَفَ « الطَّاهِر » أَنَّ « عَادِل » لَهُ حَيَاةٌ مُضْطَرِبَةٌ فِي الْبَيْتِ وَالشَّارِعِ وَأَنَّ وَالِدَهُ « الْفَرِيك مُصْطَفَى » بِقَدْرِ مَا عُرِفَ بِالاسْتِقَامَةِ وَالطِّيبَةِ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى التَّأْثِيرِ عَلَى اِبْنِهِ التَّأْثِيرَ الْـمُنْتَظَرَ .

يَسْكُنُ « عَادِل » الطَّابِقَ الثَّانِي مِنَ الْقَصْرِ وَهُوَ « عُلُوٌّ » مُسْتَقِلٌّ يَدْخُلُهُ مِنْ بَابَيْنِ . فَعِنْدَمَا يَتَخَطَّى الْقَادِمُ إِلَى الْقَصْرِ بَهْوَ الطَّابِقِ الأَوَّلِ الَّذِي لَهُ مَدْخَلُ سُكْنَى « الطَّاهِر » وَيَصْعَدُ ثَلاَثَ دَرَجَاتٍ يَجِدُ عَلَى يَمِينِهِ مَدْرَجًا وَعَلَى يَسَارِهِ مَدْرَجًا آخَرَ . مَدْرَجُ الْيَمِينِ يُفْضِي إِلَى « مَقْعَدٍ » يَجْلِسُ بِهِ « عَادِل » فِي خَلْوَتِهِ مَعَ نَفْسِهِ أَوْ خِلاَّنِهِ وَبِهِ بَابٌ يَكَادُ لاَ يُرَى يَتَسَلَّلُ مِنْهُ « عَادِل » إِلَى غُرْفَةِ نَوْمِهِ .

أَمَّا مَدْرَجُ الْيَسَارِ . فَإِنَّهُ يُوصِلُ إِلَى الْبَابِ الرَّئِيسِيِّ لِلْمَسْكَنِ وَتَفْتَحُهُ لِلْقَادِمِ « رِبْح » أَوْ الطِّفْلَة « عِلْجِيَّة » . وَأَوَّلُ مَا يُصَادِفُكَ بَهْوٌ يُفْضِي يَسَارًا إِلَى غُرْفَةِ الطَّعَامِ مِنْ جِهَةٍ وَمِنْهَا إِلَى الْمَطْبَخِ وَبَيْتِ الْحَمَّامِ ، وَبَيْتِ الرَّاحَةِ . وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى إِلَى غُرْفَةِ نَوْمِ « عَادِل » وَيَنْتَهِي يَمِينًا إِلَى مَدْرَجٍ صَغِيرٍ بِهِ غُرْفَةُ « رِبْح » وَ « عِلْجِيَّة » وَبَابٍ صَغِيرٍ يُصْعَدُ مِنْهُ إِلَى سَطْحِ الْقَصْرِ . وَأَمَامَ الدَّاخِلِ إِلَى « الْعُلُوِّ » يَنْتَصِبُ بَابٌ كَبِيرٌ يَفْتَحُ عَلَى فِنَاءٍ فَسِيحٍ يُمْكِنُ لِلْمُتَفَرِّجِ أَنْ يُشَاهِدَ مِنْهُ مَنْظَرًا لِلنَّاحِيَةِ الْجَنُوبِيَّةِ مِنْ « بَارْدُو » بِمَا فِيهِ « قَصْرُ السَّعِيدِ » . وَفِي أَرْضِ هَذَا الْفِنَاءِ شُبَّاكٌ كَبِيرٌ جُعِلَ لاِضَاءَةِ مَدْخَلِ تَوَابِعِ الْقَصْرِ مِنْ اِصْطِبْلاَتٍ وَمَخَازِنَ وَغَيْرِهَا لاَ يَكَادُ الْمُطِلُّ مِنْهُ يَتَبَيَّنُ بِوُضُوحٍ، لِعُلُوِّهِ،الرَّائِحِينَ وَالْغَادِينَ مِنْ خُدَّامِ الْقَصْرِ .

وَفِي الْجِهَةِ الْمُقَابِلَةِ لِمَدْخَلِ اَلْفِنَاءِ « بَابُ الْخُضْرَةْ » يُنْزَلُ مِنْهُ إِلَى الْبُسْتَانِ ، وَمِنْهُ تَتَزَوَّدُ « رِبْح » بِالْخُضَرِ وَالْفَوَاكِهِ وَكُلِّ مَا يَلْزَمُ لاِعْدَادِ الطَّعَامِ ... وَهَذَا الْبَابُ مُغْلَقٌ دَائِماً مِفْتَاحُهُ عِنْد « رِبْح » وَمِفْتَاحٌ آخَرَ عِنْدَ امْرَأَةِ الْجَنَّانِ « حَلِيمَة » .

كَانَ « عَادِل » يَخْرُجُ أَيَّامًا مَعْدُودَةً بَعْدَ الْغَدَاءِ مُتَرَدِّدًا إِلَى الْمَجَالِسِ الأَدَبِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ وَمَجَالِسِ الأُنْسِ . وَكَانَ لاَ يَرْتَاحُ إِلَى مُعَاشَرَةِ الأَعْيَانِ ، وَأَبْنَائِهِمْ بَلْ يَمِيلُ إِلَى الْجُلُوسِ مَعَ أَبْنَاءِ الشَّعْبِ وَخَاصَّةً النَّابِهِينَ مِنْهُمْ . فَتَرَاهُ يُحِبُّ التَّجْدِيدَ ، وَالثَّوْرَةَ عَلَى الأَوْضَاعِ الْبَالِيَةِ ، وَيُشَارِكُ فِي بَعْضِ الأَحْيَانِ فِي الاجْتِمَاعَاتِ السِّيَاسِيَّةِ الَّتِي تَضُمُّ الْعُمَّالَ وَغَيْرَهُمْ منَ الْمُسْتَضْعَفِينَ . وَإِذَا كَانَ « عَادِل » يَرْتَاحُ إِلَى هَذَا الْوَسَطِ فَإِنَّ الْمُتَرَدِّدِينَ إِلَيْهِ لاَ يَرْتَاحُونَ لَهُ لاِنْتِمَائِهِ إِلَى عَائِلَةِ الْبَايَاتِ وَمَعْرِفَتِهِ لِعِلْيَةِ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَانُوا يَلُومُونَهُ بِدَوْرِهِمْ عَلَى نُزُولِهِ إِلَى الْحَضِيضِ مَعَ السُّوقَةِ وَ « الزَّوَافِرِيَّةِ » اَلْعَيَّارِينَ فَهُوَ كَالسَّهْمِ الْعَائِرِ لاَ يُدْرَى مَنْ رَمَى بِهِ وَلاَ مَنْ يُصِيبُ .

وَكَانَ « عَادِل » يحُسُّ إحْسَاسًا عَمِيقًا بِأَنَّهُ شَاذٌّ ، لأنَّ الـمُجْتَمَعَ فَرَضَ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ كَذَلِكَ . فَهُوَ يَـمْقُتُ حَيَاةَ الْعَائِلَةِ الْحَاكِمَةِ وَمَنْ يَدُور فِي قُطْبِهَا . فَهِيَ حَيَاةُ الطُّفَيْلِيِّينَ الْفَاشِلِينَ . وَيحُزُّ فِي نَفْسِهِ ظُلْمُ نِظَامِ الْحِمَايَةِ الْفِرَنْسِيِّ وَنَهْشُهُ لِخَيْرَاتِ الشَّعْبِ وَلَكِنَّهُ لاَ يُـمْكِنُ لَهُ أَنْ يَشْعُرَ بِذَلِكَ عَمِيقَ الشُّعُورِ لأَنَّهُ مَحْظُوظٌ وَلاَ تَهْضِمُهُ بِسُهُولَةٍ الأَوْسَاطُ الشَّعْبِيَّةُ وَخَاصَّةً مِنْهَا الْوَاعِيَةَ فَهِيَ تَرْفُضُهُ أَسَاسًا .

عَلِمَ « الطَّاهِر » مِنْ « دُوجَة » أَنَّ حَيَاةَ « عَادِل » الْجِنْسِيَّةَ بَشِعَةٌ ، وَأَنَّهُ يَنْغَمِسُ مَعَ الْفَاشِلِينَ مِنْ عِلْيَةِ اَلْقَوْمِ فِي الـمُوبِقَاتِ أَثْنَاءَ لَيَالٍ حَمْرَاءَ كَانَ أَبُوهُ « الْفَرِيك مُصْطَفَى » لاَ يَعْلَمُ عَنْهَا شَيْئًا وَهُوَ سِرٌّ لاَ يَعْرِفُهُ إِلاَّ الْقَلِيلُ مِنَ الدَّائِرَةِ . وَلَكِنْ أَيْنَ لِلسِّرِّ أَنْ يَبْقَى مَكْتُومًا مَعَ « دُوجَة » الَّتِي تَسْتَرِقُ السَّمْعَ وَتَسْتَدْرِجُ كُلَّ الْخَدَمِ وَتُعَايِنُ بِنَفْسِهَا أَيْضًا .

وَلَكِنَّ « عَادِل » كَانَ لَهُ بِبَيْتِهِ عَلاَوَةً عَلَى غَيْبَاتِهِ الشَّهْوَانِيَّةِ ، طُقُوسُهُ الْجِنْسِيَّةُ . فَهُوَ يَرْتَعُ بَيْنَ ثَالُوثٍ مِنَ النِّسَاءِ .

« عِلْجِيَّة » بِنْتٌ لاَ تَتَجَاوَزُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ لَهَا عَمَلٌ طَفِيفٌ فَهِيَ تَغْسِلُ لَهُ سَاقَيْهِ عِنْدَ النَّوْم أَمَامَ فِرَاشِهِ وَيجِبُ عَلَيْهَا أَلاَّ تَرْفَعَ بَصَرهَا وَلاَ تَنْتَبِهَ لِـمَا يَفْعَلُ سَيِّدُهَا وَلِمَا يَسْقُطُ فِي الانَاءِ . تَحَدَّثَتْ فِي أَوَّلِ أَمْرِهَا ، رَغْمَ وَصَايَا « رِبْح » إِلَى « حَلِيمة » زَوْجَةِ الْجَنَّانِ فَكَانَ نَصِيبُهَا أن رُفِعَتْ أَرْجُلُهَا إِلَى اَلْعَصَا . وَلِـهَذَا فَهِيَ إِنْ دُعِيَتْ وَحْدَهَا بِدُونِ « رِبْح » إِلَى غَسْلِ رِجْلَيْ سَيِّدِهَا فَلِتَشْهَدَ مِنْ دُونِ أَنْ تَنْبُسَ بِكَلِمَةٍ جَلْدَ عُمَيْرَةٍ وَيُـمْكِنُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مَرَّةً فِي الأُسْبُوعِ أَوْ مَرَّتَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ . هَذَا مَا لاَ يُمْكِنُ أَنْ تَتَنَبَّأَ بِهِ ، وَلاَ يَـكُونُ ذَلِكَ إِلاَّ حَسَبَ الْحَالاَتِ النَّفْسِيَّةِ الَّتِي يَـمُرُّ بِهَا سَيِّدُهَا .

أَمَّا « رِبْح » فَهِيَ سَوْدَاءُ اللَّوْنِ كَقِطْعَةِ أَبْنُوسٍ لَمْ تَتَجَاوَزْ الأَرْبَعِينَ ، نَحِيلَةُ الْقَوَامِ ، رَقِيقَةُ الْـمَلاَمِحِ إِلاَّ فَمَهَا إِذْ كَانَ يُعْجَبُ بِهِ سَيِّدُهَا وَخَاصَّةً عِنْدَمَا يُقَرِّرُ أَنْ

تَغْسِلَ لَهُ هِيَ بِنَفْسِهَا رِجْلَيْهِ فَتَلْتَذُّ هِيَ مِنْ إِصْبعِ سَاقِهِ وَيَلْتَذُّ هُوَ مِنْ فَمِهَا بِوَاسِطَةِ قَضِيبِهِ .

وَ « رِبْح » كَانَتْ فِي خِدْمَةِ أَحَدِ الْبَايَاتِ الصِّغَارِ ، فَفَطِنَ زَوْجُهَا إِلَى نَزْوَةٍ مِنْ سَيِّدِهِ حِيَالَ إِمْرَأَتِهِ فَقَتَلَهُ فَحُوكِمَ وَشُنِقَ بِمَشْنَقَةِ « بَارْدُو » بِأَمْرٍ مِنَ الْبَايِ . وَانْتَهَى الْمَطَافُ « بِرِبْح » إِلَى بَيْتِ « الْفَرِيك مُصْطَفَى » فَسَلَّمَهَا إِلَى إِبْنِهِ لِخِدْمَتِهِ فَكَانَتْ تَخْدِمُهُ بِسَاعِدَيْهَا وَفَمِهَا .

وَ «حَلِيمَة» زَوْجَةُ «الْجَنَّانِ» إمْرَأَةٌ فِي الْعِشْرِينَ ، جَمِيلَةٌ رَشِيقَةُ الْقَدِّ، جَمَالُهَا بَدَوِيٌّ، كَانَتْ مِنْ جُمْلَةِ مَهَامِّهَا أَنْ تَصْعَدَ فِي كُلِّ صَبَاحٍ بِطَبَقِ الْغِلاَلِ عَلَى حَسَبِ الْفُصُولِ وَبِمَا يَجُودُ بِهِ الْبُسْتَانُ . فَهَذَا بُرْتُقَالٌ أَوْ عِنَبٌ أَوْ تِينٌ أَوْ تُفَّاحٌ أَوْ إِجَّاصٌ أَوْ غَيْرُهَا . وَتَدْخُلُ مِنْ « بَابْ الْخُضْرَهْ » فَلاَ يَفْطَنُ إِلَيْهَا أَحَدٌ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَحْيَانِ قَبْلَ نُهُوضِ « رِبْح » وَ« عِلْجِية » . وَتَطْرُقُ الْبَابَ ، فَإِنْ سَمَحَ لَهَا بِالدُّخُولِ فَمَعْنَاهُ الاسْتِعْدَادُ لِلَّذَةِ وَإِنْ أَمَرَهَا بِوَضْعِ الطَّبَقِ عَلَى الْمَائِدَةِ فَمَا عَلَيْهَا إِلاَّ بِالانْصِرَافِ .

وَهْيَ بِدَوْرِهَا إِنْ كَانَ لَهَا مَانِعٌ ، تَطْرُقُ الْبَابَ وَتَقُولُ لَهُ :

- هَذَا الطَّبَقُ عَلَى الْمَائِدَةِ .

وَتَنْصَرِفُ وَيَفْهَمُ أَنَّهُ لَيْسَ بِإِمْكَانِهَا الْغَرَقُ مَعَهُ فِي اللَّذَّةِ لِسَبَبٍ مِنَ الأَسْبَابِ .

هَذِهِ حَيَاةُ « عَادِل » إِكْتَشَفَهَا « الطَّاهِر » وَدَهِشَ لِلأَمْرِ وَنَقَمَ عَلَيْهِ نَقْمَةً كَبِيرَةً وَلَكِنَّهُ تَرَاجَعَ فِي حَنَقِهِ عَلَيْهِ قَائِلاً :

- كَيْفَ أَنْقَمُ عَلَيْهِ ، وَأَنَا قَدْ تَرَدَّيْتُ مِثْلَهُ فِي هَذَا الْفَسَادِ بِسَبَبِ هَذِهِ الْمَرْأَةِ ، ثُمَّ إِنَّ « عَادِل » رَغْمَ هَذَا لاَ يَعْرِف مِنْ أَمْرِهِ أَحَدٌ شَيْئًا . وَهُوَ مُبَجَّلٌ مُكَرَّمٌ وَلَهُ الْجُرْأَةُ عَلَى رَفْعِ صَوْتِهِ وَالتَّعْبِيرِ عَنْ رَأْيِهِ بِكُلِّ صَرَامَةٍ وَكَأَنَّهُ مِنَ النُّسَّاكِ الْعَابِدِينَ وَلِمَاذَا لاَ أَكُونُ مِثْلَهُ وَهَذِهِ « دُوجَة » لاَ تَنْبِسُ بِكَلِمَةٍ لأَيٍّ كَانَ ، وَهْيَ قَادِرَةٌ عَلَى إِطْلاَعِي

عَلَىَ كُلِّ شَـيءٍ بَلْ هِيَ قَادِرَةٌ أَيْضًا عَلَى أَنْ تَلْعَبَ دَوْرًا فِي الْـمُخَطَّطِ الَّذِي هَيَّأَتْهُ « لِعَادِل » لافْتِكَاكِ « زُبَيْدَة » مِنْهُ .

وَكَانَ يَقُولُ فِي نَفْسِهِ :

ـ لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ أَنَّنِي عَلَى هَذِهِ الدَّرَجَةِ مِنَ السَّفَالَةِ وَالْفَسَادِ . أَنَا الَّذِي انْتَصَبْتُ لِلنَّاسِ مُقَوِّمًا لاعْوِجَاجِهِمْ فِيمَا قَبْلُ . وَلَمْ أَقْدِرْ عَلَى أَنْ أَمْلِكَ نَفْسِي لأَوَّلِ إِغْرَاءٍ . لَقَدْ مَاتَت الرُّجُولَةُ فِـيَّ . وَانْحَدَرْتُ إِلَى دَرَكَاتِ النَّذَالَةِ وَالْخِدَاعِ . اللَّهُ يَرْحَمُنِي . لَقَـدْ مَاتَ « طَاهِر » وَوُلِدَ « طَاهر » آخَرُ . وَكَمْ كُنْتُ أَوَدُّ أَنْ أُدْعَى « فَاسِد » . وَلَكِنَّ هَذَا مَا قُدِّرَ لِي : فُتِحَ لِي « بَابُ الْعَرْشِ » فَدَخَلْتُ نَظِيفَ النَّفْسِ ، طَاهِرَ الذَّيْلِ إِلَى هَذَا الْبَيْتِ وَلَمْ أَلْبَثْ أَنْ وَلَجْتُ « بَابَ الْخُضْرَهْ » ثَابِتَ الْقَدَمِ فِي حَيَاةِ الدَّعَـارَةِ وَالْفَسَادِ ، وَالْخِذْلاَنِ .

ثُمَّ يَلْتَفِتُ « الطَّاهِر » إِلَى نَفْسِهِ وَيَقُولُ :

ـ لِمَاذَا هَذَا الْحُكْمُ الْقَاسِي .. ؟ أَنَا مَازِلْتُ شَابًّا ، وَمُجَرَّدُ إِنْزِلاَقٍ وَقْتِـيٍّ ، عَرَّفَنِي بِأَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ وَدَخَلْتُ بِهِ إِلَى أَعْمَاقِ حَيَاةِ النَّاسِ مَا يَـمْنَعُنِي مِنَ الرُّجُوعِ وَالتَّوْبَةِ وَاتِّخَاذِ الْقَرَارِ اللاَّزِمِ فِي الْوَقْتِ الْـمُنَاسِبِ ؟ وَلَكِنْ يَجِبُ أَنْ أَسْتَقْبِـلَ الْحَيَاةَ وَأَنْ أَعِيشَهَا بِكُلِّ صَخَبٍ وَلَجَبٍ وَأَنْ أَكُفَّ عَنْ تِلْكَ السِّيرَةِ الْـهَامِشِيَّةِ الْبَعِيدَةِ عَنْ حُلْوِ الدُّنْيَا وَمُرِّهَا . هَذَا مَرْكَبٌ جَدِيدٌ ، إِرْكَبْهُ يَا « طَاهِر » وَلْتَمْتَحِنْ رُجُولَتَكَ وَصَلاَبَةَ أَعْصَابِكَ وَحَصَافَةَ رَأْيِكَ ... فَخُضْ إِذَنْ هَذَا الْبَحْرَ اللُّجُوجَ بِأَمْوَاجِهِ الطَّـامِيَةِ وَلْتَعْرِفْ كَيْفَ تَصِلُ إِلَى شَاطِىءِ السَّلاَمَةِ .

* * *

عَلِـمَ « الطَّاهِـر » مِنْ « دُوجَـة » أَنَّ « عَـادِل » أَرَادَ مَرَّاتٍ عَدِيدَةً اسْتِـدْرَاجَ « زُبَيْدَة » إِلَى غُرْفَتِهِ بِشَتَّى الْحِيَلِ وَلَكِنَّ « زُبَيْدَة » الْـمُرْتَبِطَةَ بِسَيِّدَتِهَـا زَوْجَةِ

« الفَرِيك » وَالذَّكِيَّةَ لَمْ تَقَعْ فِي أُحْبُولَتِهِ مِثْلَ غَيْرِهَا . وَشَكَتْهُ إِلَى سَيِّدَتِهَا وَنَبَّهَتْ أُمُّهُ عَلَيْهِ تَنْبِيهًا صَارِمًا جَعَلَهُ يُفَكِّرُ فِي الزَّوَاجِ بِهَذِهِ ٱلْفَتَاةِ وَيَمِيلُ إِلَى حُبِّهَا .

وَلَكِنَّ « عَادِل » لاَ يَعْرِفُ ٱلْحُبَّ ٱلْحَقِيقِيَّ وَهُوَ ٱلْمَخْذُولُ ، وَلاَ يُفَكِّرُ إِلاَّ فِي إِرْضَاءِ شَهَوَاتِهِ وَلاَ يَتَصَوَّرُ ٱلْمَرْأَةَ إِلاَّ مَتَاعًا يَشْفِي غُلَّتَهُ ٱلْجِنْسِيَّةَ مِنْهُ ثُمَّ يَتَلاَشَى كُلُّ شَيْءٍ . ٱلْحُبُّ عِنْدَهُ إِشْبَاعٌ لِلْحَوَاسِّ وَغَرَقٌ فِي اللَّذَّةِ وَلاَ فَنَاءٌ .

قَالَ « لِلطَّاهِر » بَعْدَ أَيَّامٍ مِنْ تِلْكَ ٱلْحَادِثَةِ وَبَعْدَ أَنْ هَدَأَ رَوْعُ « الطَّاهِر » وَتَبَعْثَرَتِ الْقِيَمُ عِنْدَهُ ، وَدَخَلَ فَتْرَةً أُخْرَى مِنْ حَيَاتِهِ .

ـ أَنَا يَا « طَاهِر » ضَحِيَّةُ ٱلْمُجْتَمَعِ الَّذِي أَضَاعَ قِيمَةَ الانْسَانِيَّةِ ، وَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى الايمَانِ بِقِيَمِ هَؤُلاَءِ ٱلْقَوْمِ الأَجَانِبِ الَّذِينَ يَحْكُمُونَنَا ٱلْيَوْمَ . أَنَا غَيْرُ قَادِرٍ عَلَى أَنْ أُحِبَّ كَمَا كَانَ يُحِبُّ أَجْدَادِي وَلاَ أَنْ أُومِنَ إِيمَانَهُمْ وَلاَ أَنْ أُجَاهِدَ سِيَاسِيًّا جِهَادَهُمْ . وَلاَ أَنْ أَكُونَ أَدِيبًا مِثْلَهُمْ . أَنَا الذَّبْذَبَةُ بِعَيْنِهَا وَٱلْخِذْلاَنُ ٱلْمُجَسَّمُ .

ـ وَمَا يَمْنَعُكَ مِنْ أَنْ تُحِبَّ كَمَا أَحَبَّ الأَجْدَادُ وَتُؤْمِنَ إِيمَانَهُم وَتُجَاهِدَ جِهَادَهُمْ وَتَكُونَ أَدِيبًا مِثْلَهُمْ وَقَدْ أَعْطَاكَ اللَّهُ كُلَّ شَيْءٍ ٱلْمَالَ وَٱلْجَاهَ وَالْفَرَاغَ .

ـ أَنْتَ يَا « طَاهِر » أَسْعَدُ مِنِّي . حَافَظْتَ عَلَى شَهَامَةِ أَهْلِ الرِّيفِ وَاسْتِقَامَتِهِمْ وَجِدِّهِمْ . وَسَكَتَ « الطَّاهِر » وَهُوَ شَاعِرٌ بِأَنَّهُ يَنْتَقِلُ مِنْ عَالَمٍ إِلَى آخَرَ . قَالَ « عَادِل » :

ـ أُنْظُرْ إِلَيَّ أَنَا ... وَأُرِيدُ مِنْكَ أَلاَّ تَغْضَبَ لأَنَّنِي سَأَتَحَدَّثُ عَنْ مَوْضُوعٍ غَضِبْتَ مِنْهُ سَابِقًا . وَنَظَرَ إِلَى « الطَّاهِر » لَعَلَّهُ سَيَثُورُ عَلَيْهِ مِثْلَ ٱلْمَرَّةِ الأُولَى وَلَمَّا رَآهُ هَادِئًا ، سَاكِتًا إِسْتَطْرَدَ :

ـ أنَا أُحِبُّ « زُبَيْدَة » مَا فِي ذَلِكَ شَكٌّ ... وَلَكِنَّ حُبِّي سَيَقِفُ عِنْدَ حَوْزِي لَهَا فِي يَوْمٍ مِنَ الأَيَّامِ ... اَلْحُبُّ فَنَاءٌ فِي اَلْمَحْبُوبِ حِسًّا وَمَعْنًى ... وَأَنَا غَيْرُ قَادِرٍ عَلَى أَنْ أُحِبَّ فِيهَا خِصَالَهَا ، وَسُمُوَّهَا ، وَتَفَانِيَهَا ، وَأَنْ أُضَحِّيَ مِنْ أَجْلِهَا ، وَأَمُوتَ فِي سَبِيلِهَا ، وَفِي سَبِيلِ إمْتِلاَكِهَا وَالانْفِرَادِ بِهَا . أنَا لاَ أُرِيدُ أَنْ أُضَيِّعَ وَقْتِي ، وَمَآرِبِي فِي سَبِيلِهَا . كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ أُحِبَّ إِذَنْ ؟ مِثْلَمَا أَحَبَّ جَمِيلٌ وَقَيْسٌ وَأَبُو نُوَاسٍ وَالنَّاسُ الأَسْوِيَاءُ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ . اَلْمَادَّةُ يَا « طَاهِر » أَكَلَتْ نَفْسِي ، وَجَعَلَتْنِي أُرِيدُ أَنْ أُرْضِيَ كُلَّ حَوَاسِّي ، وَكُلَّ خَلِيَّةٍ فِي جَسَدِي وَكُلَّ عُضْوٍ... مَا أَبْشَعَ مَا وَصَلْتُ إِلَيْهِ ! وَلَكِنْ هِيَ الْحَقِيقَةُ يَا « طَاهِر » ... وَأَنَا أَعْرِفُ أَنَّ « زُبَيْدَة » لاَ تُحِبُّنِي . وَهَلْ تَظُنُّ أَنَّ هَذَا الصَّدَّ سَيَحْفِزُنِي عَلَى أَنْ أَحْتَرِقَ فِي حُبِّهَا ..؟ لاَ ... إِنِّي سَأُعْرِضُ عَنْهَا ... سَأَتْرُكُهَا لَكَ ... لأَنَّنِي غَيْرُ قَادِرٍ عَلَى أَنْ أُحِبَّ . عَلَى أَنْ أَتْعَبَ مِنْ أَجْلِ هَذَا اَلْحُبِّ ... هَذِهِ مَأْسَاتِي يَا « طَاهِر » .

لَمْ يُحِرْ « الطَّاهِر » جَوَابًا ، وَشَعَرَ كَأَنَّ مَاءً بَارِدًا سُكِبَ عَلَيْهِ ، وَلَكِنَّهُ أَحَسَّ بِالانْفِرَاجِ وَقَالَ فِي نَفْسِهِ :

ـ وَكَفَى اللَّهُ اَلْمُؤْمِنِينَ اَلْقِتَالَ ... لاَ فَائِدَةَ إِذَنْ مِنْ تَطْبِيقِ اَلْخُطَّةِ لإِبْعَادِ هَذَا اَلْمُنَافِسَ .

ثُمَّ قَالَ « عَادِل » :

ـ وَلِذَلِكَ فَشِعْرِي كَمَا رَأَيْتَ بَارِدٌ ، وَلاَ أُحِسُّ فِيهِ بِتِلْكَ اَلْجَذْوَةِ الَّتِي أَعْرِفُهَا فِي شِعْرِنَا اَلْعَرَبِيِّ ... اَلايمَانُ يَنْقُصُنِي ... الايمَانُ بِالْكَلِمَةِ عِنْدَمَا تَخْرُجُ مِنَ الأَعْمَاقِ . وَحَتَّى إِيمَانِي بِاللَّهِ فَهْوَ لاَ يُشْبِهُ إِيمَانَ وَالِدِي ... أَرَأَيْتَ تَقْوَى وَالِدِي ، وَصَلاَحَهُ ،

وَاسْتِقَامَتَهُ ، وَإِشْعَاعَهُ فِي هَذَا ٱلْمُجْتَمَعِ ٱلْفَاسِدِ ..؟ مَاذَا حَصَلَ لِي مِنْ هَذَا كُلِّهِ إِلاَّ فَلْسَفَةٌ أُومِنُ بِهَا ؟ وَلَسْتُ أَدْرِي هَلْ أَنَّنِي قَادِرٌ عَلَى التَّمَسُّكِ بِهَا ..؟ أُومِنَ بِاللَّهِ وَبِأَنَّ اللَّهَ مُنْتَهَى الْكَمَالِ وَبِأَنَّ تَوْقِي إِلَيْهِ هُوَ فِي السُّمُوِّ بِنَفْسِي إِلَى ٱلْكَمَالِ ؟ أَنَا حَلاَّجِيٌّ عِنْدَمَا أُسْرِفُ فِي الايمَانِ بِقُدْرَةِ الانْسَانِ عَلَى أَنْ يَتَّحِدَ مَعَ اللَّهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ حِسًّا وَمَعْنَى .... حِسًّا فِي هَذِهِ اللَّذَّةِ ٱلْجِنْسِيَّةِ ، ٱلْجَمَالِيَّةِ إِنْطِلاَقًا مِنَ ٱلْحَوَاسِّ ، وَمَعْنًى فِي لَذَّةِ السُّمُوِّ إِلَى ٱلْمَعَانِي ٱلْعُلْوِيَّةِ ... تَقُولُ لِي : كَيْفَ تُوَفِّقُ بَيْنَ هَذِهِ ٱلْمُتَنَاقِضَاتِ . أَنَا أَخُوكَ أَتَخَبَّطُ فِيهَا ... وَأَشْقَى بِهَا ... وَلاَ مَخْرَجَ لِي مِنْهَا .

قَالَ « الطَّاهِر » :

ـ مَا هَذَا التَّعْقِيدُ يَا « عَادِل » ..؟ الايمَانُ وَاضِحٌ ، وَٱلْحُبُّ وَاضِحٌ ، أَنْتَ أَشْقَى مَنْ رَأَيْتُ .. أَنَا فِي فَقْرِي وَخَصَاصَتِي ،وَجُوعِي ، وَحِرْمَانِي أَسْعَدُ مِنْكَ نَفْسًا ... نَعَمْ فِي السَّابِقِ أَمَّا الآنَ فَالْحَمْدُ لِلَّهِ ... مَا هَذَا الشَّقَاءُ يَا « عَادِل » ....

ـ وَأَكْثَرُ مِنْ هَذَا يَا « طَاهِر » ... أَنَا أَنْتَمِي إِلَى ٱلْحَرَكَةِ النِّضَالِيَّةِ فِي وَاجِهَاتِهَا ٱلْعَدِيدَةِ : فِي التَّجَمُّعَاتِ الَّتِي تَنْتَمِي إِلَى جَمَاعَةِ الصَّالُونَاتِ ، وَالأُخْرَى ٱلْمُلْتَحِمَةِ بِالطَّبَقَاتِ الشَّعْبِيَّةِ وَأَنَا أَتَأَرْجَحُ بَيْنَهَا ، وَلاَ أَجِدُ فِيهَا مَنْ يَأْخُذُ أَقْوَالِي بِجِدِّيَّةٍ . هَذِهِ حَالِي ...

وَهَذَا رَوَّعَ « الطَّاهِر » وَاعْتَقَدَ أَنَّ هَذَ الْمِسْكِينَ لاَ يُمْكِنُ لَهُ أَنْ يَقِفَ فِي وَجْهِهِ ، وَلَيْسَ لَهُ مِنَ الرُّجُولَةِ وَالصَّلاَبَةِ مَا يَجْعَلاَنِهِ قَادِرًا عَلَى الدِّفَاعِ عَمَّنْ يُحِبُّ أَوْ مَا يَعْتَقِدُهُ ٱلْحَقَّ ...

وَأَحَسَّ بِنَفْسِهِ يَعْظُمُ فِي عَيْنِ ذَاتِهِ ، وَيَتُوقُ إِلَى الرُّجُوعِ إِلَى صَلاَبَةِ طَبْعِهِ ٱلْقَدِيمِ ، وَلَكِنَّ هَذِهِ « دُوجَة » النُّقْطَةُ السَّوْدَاءُ ... نُقْطَةُ الضُّعْفِ ... يَجِبُ أَنْ تَزُولَ وَأَنْ تَنْتَهِيَ ... وَلَكِنَّهُ سُرْعَانَ مَا يَقُولُ :

ـ لَنْ تُغَيِّرَ مِنْ جِدِّيَتِي شَيْئًا وَهِيَ نَزْوَةٌ عَابِرَةٌ لَنْ تَأْكُلَ مِنْ نَفْسِي مِثْلَمَا أَكَلَ

ضُعْفُ الايمَانِ مِنْ نَفْسِ « عَادِل » .

وَدَخَلَتْ عِنْدَ ذَلِكَ « زُبَيْدَة » إلَى اَلْـمَكْتَبَةِ وَقَدْ أَتَتْ بِالْقَهْوَةِ « لِعَادِل » وَ « طَاهِر » وَهْيَ تَضْحَكُ مِثْلَ عَادَتِهَا ، وَتَمْزَحُ اَلْـمُزَاحَ اَلْبَرِيءَ قَائِلَةً :

ـ أَنْتُمَا تَتَفَلْسَفَانِ ... وَتَقْضِيَانِ أَوْقَاتِكُمَا فِي اَلْقِرَاءَةِ وَاَلْـمُطَالَعَةِ وَاَلْحَدِيثِ الَّذِي لاَ يُفِيدُ بَيْنَمَا « أَبِي مُصْطَفَى » يَتَخَبَّطُ فِي مَشَاكِلَ مَعَ اَلْبُنُوكِ وَاَلْعَمَلَةِ ...

وَخَرَجَتْ .

وَزَادَ حُبُّ « الطَّاهِر » لَـهَا ... ذَلِكَ اَلْحُبُّ الَّذِي لاَ تَشُوبُهُ شَفَقَةٌ ... وَ « زُبَيْدَة » يَتِيمَةٌ ... وَلاَ التَّعَاطُفُ وَهْيَ اَلْـمَرْأَةُ الضَّعِيفَةُ وَهُوَ الرَّجُلَ اَلْفَقِيرُ اَلْـمُسْتَضْعَفُ فِي اَلْـمُجْتَمَعِ . بَلْ حُبُّ النِّدِّ لِلنِّدِّ ... يُحِبُّ فِيهَا جَمَالَـهَا ... وَخِصَالَهَا وَسُمُوَّهَا ... فَهَلْ تَقْبَلُهُ وَهْيَ لاَ تَعْرِفُ مِنْهُ وَعَنْهُ شَيْئًا كَبِيرًا ؟

* * *

عَلِمَ « الطَّاهِر » أَنَّ « زُبَيْدَة » تَحْتَقِرُ « عَادِل » وَهْيَ فِي مُلاَحَظَاتِهَا لَـهُمَا إِنَّـمَا تَعْنِيهِ بِالذَّاتِ . فَصَمَّمَ عَلَى الانْكِبَابِ عَلَى اَلْعَمَلِ ، وَأَظْهَرَ مِنَ اَلْكَفَاءَةِ ، وَاَلْمَقْدِرَةِ مَا جَعَلَ « الْفَرِيك مُصْطَفَى » يَلْهَجُ بِذِكْرِهِ ، وَيُنَوِّهُ بِخِصَالِهِ أَمَامَ كُلِّ الزَّائِرِينَ .

وَبَدَأَ « الطَّاهِر » يَظْهَرُ فِي أَوْسَاطِ الأَعْيَانِ ، وَيَسْتَضِيفُهُ هَؤُلاَءِ مَعَ « الْفرِيك مُصْطفَى » حَتَّى أَنَّهُ تَشَرَّفَ بِالْـمُثُولِ أَمَامَ اَلْبَايِ وَقَبَّلَ يَدَهُ . وَبَدَأَ يَقْبَلُ ، شَيْئًا فَشَيْئًا ، حَيَاةَ هَذِهِ الطَّبَقَةِ مِنَ اَلْـمُجْتَمَعِ وَيَنْدَمِجُ فِيهَا عَلَى الأَقَلِّ ظَاهِرِيًّا .

وَكُلَّمَا ازْدَادَ تَغَلْغُلاً فِي اَلْعَائِلَةِ إكْتَشَفَ مَشَارِفَ أُخْرَى مِنَ اَلْحَضَارَةِ ، وَأَصْبَحَ ذَوَّاقًا لِلْجَمَالِ ، وَاَلْفَنِّ ، وَ اَلأَدَبِ ، وَاللِّبَاسِ ، وَاَلْكَلاَمِ اَلْـمُنَمَّقِ ، وَذَهَبَ بِهِ الأَمْرُ حَتَّى إِلَى إِظْهَارِ بَعْضِ الاحْتِقَارِ لِلْخَدَمِ وَاَلْعَمَلَةِ أُسْوَةً بِأَسْيَادِهِ .

وَلَكِنَّهُ لَمْ يُقْلِعْ عَنْ شَيْءٍ وَاحِدٍ ، هُوَ أَلَـمُهُ ، وَشَقَاوَتُهُ وَوَصْمَتُهُ : « دُوجَة » . لَمْ يَنْفَكَّ يَفْنَى فِي اللَّذَّةِ مَعَهَا ، وَيَذُوبُ ذَوَبَانًا ، وَهْيَ تَحْكِي لَهُ الشُّذُوذَ السَّائِدَ فِي

الأَوْسَاطِ الَّتِي تَعْرِفُهَا وَتُسَمِّي الأَسْماءَ بِأَسْمَائِهَا . وَمَا حِيلَتُهُ وَهُوَ إِلَىٰ ذَلِكَ جَعَلَهَا مَطِيَّةً إِلى « زُبَيْدَة » تُحَدِّثُهَا عَنْهُ ، وَتَحْكِي خِصَالَهُ ، وَرُجُولَتَه .

وَانْقَطَعَتْ أَخْبَارُهُ عَنْ أَهْلِ بَلْدَتِه ، وَرَاح عِنْدَمَا يَـمُرُّ أَمَامَ مَقْهَى « خَالْ عَلِي » يَحُثُّ الْخُطَى فَيَلْمَحُ فِي ذَلِكَ الدُّخَانِ الْـمُتَعَالِي ، رُؤُوسَ فُلاَنٍ وَفُلاَنٍ فَيَتَحَسَّرُ فِي قَرَارَةِ نَفْسِهِ عَلَىَ تِلْكَ الأَيَّامِ السَّعِيدَةِ الْـمَمْلُوءَةِ بَسَاطَةً ، وَسَذَاجَةً ، وَلَكِنَّهُ يَنْقِمُ عَلَىَ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ خَصَاصَةٍ وَمَهَانَةٍ .

وَبَدَأَتْ لِقَاءَاتُهُ مَعَ « زُبَيْدة » تَطُولُ فِي الْـمَكْتَبَةِ ، وَهُوَ يُحَدِّثُهَـا عَنْ حَلِّـهِ لِمَشَاكِلَ عَدِيدَةٍ تَهُمُّ الضَّيْعَـاتِ ، وَتَتَبُّعِه لاِهْمَالِ الْـمُكَلَّفِـينَ بِالأَرَاضِي وَرِبْحِهِ الصَّفَقَاتِ. وَفِي كُلِّ مَرَّةٍ تُرِيدُ « زُبَيْدَة » أَنْ تَسْتَدْرِجَهُ إِلىَ الاِطْنَابِ فِي الْحَدِيثِ عَنْ بَلْدَتِهِ ، وَأَهْلِهِ ، وَلَكِنَّهُ يُرَاوِغُ ، أَوْ يُفِيضُ فِي وَصْفِ خِصَالِ وَالِدِهِ ، وَمُغَامَرَاتِهِ وَهُوَ الْـمَعْرُوفُ عِنْدَ أَهْلِ « قَصْرِ الْقَرِيك » .

قَالَ « الطَّاهِر » لَـهَا فِي يَوْمٍ مِنَ الأَيَّامِ ، بَعْدَ أَنْ رَأَى أَنَّهَا بَدَأَتْ تَـمِيلُ إِلَيْهِ :

ـ يَا « زُبَيْدَة » .. أَنَا أُقَدِّرُ فِيكِ خِصَالَكِ وَتَفَانِيكِ فِي عَمَلِكِ . إِنَّكِ مِثْلِي فِي هَذَا الْقَصْرِ . لَيْسَ هُنَاكَ مَنْ يُخْلِصُ غَيْرُنَا .

ـ وَأَنَا كَذَلِكَ يَا « طَاهِر » .

ـ إِنَّ هَذَا التَّقْدِيرَ وَهَذَا الاخْلاَصَ لَيَصِلُ بِي إِلىَ إِحْسَاسٍ لَسْتُ أَدْرِي مَا هُوَ ... إِنِّي غَيْرُ قَادِرٍ عَلَىَ أَنْ أُعَبِّرَ عَنْهُ ...

وَفِي ذَلِكَ الْوَقْتِ إِنْسَحَبَتْ « زُبَيْدَة » وَقَالَتْ لَهُ :

ـ لَقَدْ تَذَكَّرْتُ أَنَّ سَيِّدَتِي فِي حَاجَةٍ إِلَيَّ .....

وَتَغَيَّرَ الْحَالُ بَيْنَهُمَا ، وَبَدَأَتِ النَّظَرَاتُ تَتَعَاطَفُ وَتَلِينُ ، وَفَهِـمَ « الطَّاهِـر » أَنَّ « زُبَيْدَة » لَنْ تَقْبَلَ بَوْحًا بِالْحُبِّ إِلاَّ إِذَا كَانَ طَرِيقًا إِلىَ الزَّوَاجِ الْمُحَقَّقِ .

وَقَرَّرَ أَنْ يُفَاتِحَ « عَادِل » فِي ذَلِكَ فِي جَلْسَةٍ مِنْ جَلَسَاتِهِمَا ، وَلَكِنْ بَعْدَ أَنْ يَهُيِّئَ

هَذَا ٱلْفَاسِقَ وَيَجْعَلَهُ لاَ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَنْبُسَ بِكَلِمَةٍ أَمَامَهُ .

وَتَعَوَّدَ « الطَّاهِر » أَنْ يَقِفَ فِي الصَّبَاحِ فِي شُرْفَةِ غُرْفَتِهِ ٱلْمُطِلَّةِ عَلَى ٱلْبُسْتَانِ فَيُرَاقِبُ أَعْمَالَ ٱلْجَنَّانِ وَٱلْعَمَلَةِ وَيَنْظُرُ إِلَى ٱلْغَادِي وَالرَّائِحِ ، وَبِالطَّبْعِ أَصْبَحَ يَفْطَنُ إِلَى « حَلِيمة » وَهِيَ تُسْرِعُ إِلَى صُعُودِ ٱلْمَدْرَجِ الطَّوِيلِ فَإِمَّا أَنْ تَعُودَ بِسُرْعَةٍ وَعِنْدَ ذَلِكَ يَعْرِفُ أَنَّهَا لَمْ تَنَلْ حِصَّتَهَا مِنَ اللَّذَّةِ ، أَوْ أَنَّهَا لاَ تَظْهَرُ إِلاَّ بَعْدَ مُدَّةٍ طَوِيلَةٍ وَمَعْنَاهُ أَنَّ « عَادِل » قَامَ بِطُقُوسِهِ عَلَى أَكْمَلِ وَجْهٍ .

وَفِي ٱلْيَوْمِ الَّذِي قَرَّرَ فِيهِ « الطَّاهر » أَنْ يَدْخُلَ فِي ٱلْفَتْرَةِ ٱلْحَاسِمَةِ مِنْ خُطَّتِهِ قَامَ مُبَكِّرًا وَانْتَصَبَ فِي الشُّرْفَةِ ، فَرَأَى « حَلِيمَة » تَجْرِي بِخِفَّةٍ وَرَشَاقَةٍ كَأَنَّهَا دَاخِلَةٌ ٱلْجَنَّةَ ، وَتَصْعَدُ ٱلْـمَدْرَجَ وَهِيَ تَقْفِزُ قَفْزًا كَالْغَزَالَـةِ الشَّـارِدَةِ ، وَفَتَحَـتْ « بَـابَ ٱلْخُضْرَة » وَغَابَتْ عَنِ الأَنْظَارِ هِيَ وَطَبَقُهَا .

وَبَعْدَ بُرْهَةٍ صَعِدَ « الطَّاهِر » ٱلْـمَدْرَجَ الأَيْسَرَ ، وَفَتَحَ بِرِفْقٍ بَابَ ٱلْـمَقْعَـدِ ، وَوَصَلَ ٱلْـمَنْفَذَ ٱلْـمُفْضِي إِلَى غُرْفَةِ « عَادِل » وَفَتَحَهُ بِسُرْعَةٍ فَوَجَدَ « عَادِل » وَ «حَلِيمَة» عَـلَى ٱلْفِـرَاشِ فِي أَكْمَـلِ أَوْقَـاتِ الـلَّذَّةِ بِحَيْثُ أَنَّهُمَا لَمْ يَفْـطَنَـا إِلَى دُخُـولِـهِ ، وَلاَ يُعْقَلُ أَنْ يَدْخُلَ إِلَى ذَلِكَ ٱلْـمَكَانِ أَحَدٌ بِدُونِ إِذْنِ « عَـادِل » وَصَـاحَ فِيهِمَا « الطَّاهِر » فَانْزَعَجَتِ ٱلْـمَرْأَةُ ، وَقَفَزَتْ مَذْعُورَةً . أَمَّا « عَادِل » فَإِنَّهُ لَمْ يَتَحَـرَّكْ وَقَالَ :

ـ وَصَلَتْ بِكَ ٱلْوَقَاحَةُ إِلَى هَذِهِ الدَّرَجَةِ ... مَا شَأْنُكَ وَشَأْنِي يَا رَجُلُ .. أَنَا لاَ أَخَافُ شَيْئًا . وَلَكِنَّ هَذِهِ ٱلْـمَرْأَةَ ٱلْـمِسْكِينَةَ سَيَقْتُلُهَا زَوْجُهَـا إِنْ فَطِـنَ لِلأَمْـرِ ، وَسَيَطْرُدُهَا وَالِدِي هِيَ وَزَوْجَهَا مِنَ ٱلْقَصرِ . أَنْتُمْ أَيُّهَا ٱلْمُقَوِّمُونَ لِلأَخْلاَقِ أَبْشَعُ مَا رَأَيْتُ فِي الدُّنْيَا . بِاسْمِ الأَخْلاَقِ تَدُوسُونَ ٱلْقِيَمَ وَتُشِيعُونَ ٱلْفُرْقَةَ وَٱلْقَسْوَةَ ، وَلاَ تَعْرِفُونَ لِلإِنْسَانِيَّةِ وَالشَّفَقَةِ وَالرَّحْمَةِ بَابًا . مَاذَا تُرِيدُ أَنْ تَفْعَلَ ؟ هَلْ تُرِيدُ أَنْ تُشْعِلَ النَّارَ فِي هَذَا ٱلْقَصرِ ، وَتُسِيءَ إِلَى الرَّجُلِ الَّذِي آوَاكَ ، وَبَجَّلَكَ وَقَدَّرَكَ ، وَجَعَلَكَ

إِنسَانًا تُذَكِّرُ ... مَا هَذِهِ ٱلْوَقَاحَةُ وَٱلْجُرْأَةُ عَلَيَّ وَعَلَى أَمْثَالِي . ثُمَّ هَلْ أَنْتَ أَحْسَنُ مِنِّي حَالاً ...؟

وَفِي ذَلِكَ ٱلْوَقْتِ أَحَسَّ « الطَّاهِر » بِوَخْزِ الضَّمِيرِ ، وَبِأَنَّهُ تَجَاوَزَ حُدُودَ اللِّيَاقَةِ ، وَخَرَجَ مُسْرِعًا تَارِكًا « حَلِيمة » بَاكِيَةً تَلْبَسُ ثِيَابَهَا لِتَخْرُجَ بِسُرْعَةٍ .

وَلَمْ يَنْدَمِ « الطَّاهِر » عَلَىَ فِعْلَةٍ مِثْلَمَا نَدِمَ هَذِهِ ٱلْـمَرَّةَ ، وَقَرَّرَ أَنْ يَعْتَذِرَ « لِعَادِل » وَيُطَمْئِنَ خَاطِرَ « حَلِيمَة » وَهُوَ الَّذِي رَأَى مِنْ مَفَاتِنِهَا مَا سَحَرَهُ وَأَسَالَ لُعَابَهُ .

وَعِنْدَمَا ٱلْتَقَى « بِعَادِل » فِي ٱلْمَكْتَبَةِ إِعْتَذَرَ لَهُ وَحَدَّثَهُ بِمَا يَجُولُ بِخَاطِرِهِ فَقَالَ لَهُ « عَادِل » :

ـ لِمَاذَا هَذِهِ السَّفَالَةُ ؟ .. وَأَنَا الَّذِي كُنْتُ أُقَدِّرُ فِيكَ الرُّجُولَةَ وَتَنَازَلْتُ لَكَ عَنْ « زُبَيْدَة » فِي حَدِيثِي إِلَيْكَ عَنْهَا . أَنْتُمْ ٱلْوُصُولِيُّونَ ٱلْفُقَرَاءُ الَّـذِينَ تَعْتَـزُّونَ بِقُدْرَتِكُمْ عَلَىَ اقْتِحَامِ ٱلْحَيَاةِ بِجُرْأَةٍ ، وَرَقَاعَـةٍ لِتَقْوِيمِ النَّاسِ وَتَأْدِيبِهِمْ ، وَإِشَاعَةِ ٱلْعَدْلِ نَقْمَةً عَلَىَ ذَوِي الْيَسَارِ الضَّارِبِينَ فِي ٱلْحَضَارَةِ وَٱلْمَدَنِيَّةِ أَخْطَرُ النَّاسِ عَلَىَ ٱلْبَشَرِيَّةِ وَعَلَىَ الْفُقَرَاءِ مِثْلِكُمْ .

ـ لَكَ كُلُّ ٱلْحَقِّ ... وَلَكِنَّكُمْ أَنْتُمْ تَتْرُكُونَ ٱلْحَيَاةَ تَسِيرُ فِي صَمِيمِ ٱلْـمُيُوعَةِ ، وَالنُّعُومَةِ ، وَالرَّخْوَةِ حَتَّى تَتَهَاوَى تَحْتَ أَقْدَامِكُمْ ٱلْـمَدَنِيَّةُ ، وَيَتَسَلَّطَ عَلَيْكُمْ مَنْ لاَ يَرْعَوِي وَلاَ يَخَافُ اللَّهَ ... عَلَىَ كُلٍّ فَالْمُهِـمُّ أَنَّـكَ لاَ تَعْتَـرِضُ دُونَ زَوَاجِي مِنْ « زُبَيْدَة » .

ـ وَلِمَاذَا أَعْتَرِضُ وَأَنَا أَكْرَهُ هَذِهِ الدُّنْيَا ، وَهَذَا ٱلْـمُجْتَمَعَ ، وَهَذَا ٱلْقَصْرَ ؟ ... لَوْ كَانَتْ فِيَّ جُرْأَةٌ ... وَرُجُولَةٌ لَنَسَفْتُ هَذَا ٱلْقَصْرَ ، وَقَوَّضْتُهُ بِمَا فِيهِ ... إِنَّنِي أَكْرَهُكُمْ كُلُّكُمْ ... وَأَكْرَهُ « زُبَيْدَة » ... نَعَمْ أَكْرَهُهَا ... أَكْرَهُهَا هِيَ ... أَيْضًا ، لأَنَّهَا تُسَفِّهُ يَقِينِي فِي فَسَادِ هَذَا ٱلْمُجْتَمَعِ ، هَذِهِ الدُّنْيَا ... أَنْتَ يَا « طَاهِر » تُدَعِّمُ يَقِينِي ... ظَنَنْتُكَ تَخْرُجُ عَنِ ٱلْقَاعِدَةِ فِي الأَوَّلِ عِنْدَمَا صَبَرْتَ أَمَامَ إِغْرَاءَاتِ « دُوجَة » إِمْرَأَةٍ

ٱلْجَنَّانِ السَّابِقِ ، وَلَـماً إِنْحَدَرْتَ مَعَهَا إِلَىَ الدَّرَكَاتِ الَّتِي أَعْرِفُهَا ، زِدْتُ يَقِينًا بِفَسَادِ هَذَا ٱلْمُجْتَمَعِ وَيَأْسًـا مِنْ صَلاَحِـهِ الصَّـحِيحِ .... لاَ السِّيَاسِـيِّ فَقَـطْ بَلْ الأَخْلاَقِـيِّ .

ـ « دُوجَة » ...

ـ نَعَمْ « دُوجَة » ... حَلِيمَتُكَ ٱلْيَوْمَ كَانَتْ حَلِيمَتِي بِالأَمْسِ ٱلْقَرِيبِ .

ـ كَيْفَ تَقُولُ هَذَا ، وَوَالِدُكَ وَرِعٌ ، وَتَقِيٌّ ، وَأُمُّكَ مِنْ أَفْضَلِ النَّاسِ وَزُبَيْدَةُ مِنْ أَحْسَنِ مَا رَأَيْتُ ؟

ـ أنْظُرْ يَا « طَاهِر » أَنَا وَصَلْتُ إِلىَ دَرَجَةٍ مِنْ مَعْرِفَةِ أَحْوَالِ النَّاسِ مَا جَعَلَتْنِي لاَ أَهْتَزُّ ، وَلاَ أَتَحَسَّرُ وَلاَ أَحْتَارُ ... نَعَمْ وَالِدِي مِنْ أَتْقَى النَّاسِ وَأَوْرَعِهِمْ رَغْمَ أَنَّهُ فِي خِدْمَةِ هَؤُلاَءِ الْبَايَاتِ ، الظَّالِـمِينَ السَّفَّاكِينَ ، ٱلْعَابِثِينَ فَسَادًا فِي الرَّعِيَّةِ مَعَ نِظَامِ ٱلْجِبَايَةِ . وَلَكِنْ مَا فَائِدَةُ تَقْوَاهُ وَوَرَعُهُ ؟ وَهُوَ لاَ يَنْبُسُ بِكَلِمَةٍ أَمَـامَ مَا يَرَاهُ مِنَ الظُّلْمِ ، وَٱلْجَوْرِ بَلْ هُوَ يَنْحَنِي أَمَامَ ٱلْجَبَّارِيـنَ وَلاَ يَفْعَلُ شَيْئًا يُنَبِّهُهُمْ إِلىَ طُغْيَانِهِمْ ثُمَّ مَا هُوَ تَأْثِيرُهُ فِي ٱلْقَصرِ ؟ .. فِي بَيْتِهِ ؟ ... هُوَ يُرِيدُ أَنْ يَنْحَنِيَ كُلُّ أَهْلِ ٱلْقَصرِ أَمَامَهُ ، وَأَنْ يُثْنُوا عَلَيْهِ وَيَقُولُوا لَهُ : إِنَّ كُلَّ شَيْءٍ عَلَى أَحْسَنِ مَا يُرَامُ ، وَإِنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ إِلاَّ ٱلْخَيْرَ . عِنْدَمَا آوَى ٱلْـمُسْتَضْعَفِينَ فِي قَصْـرِهِ ، وَبَسَطَ عَلَيْهِـمْ جَنَـاحَ رِعَايَتِهِ .. وَهُوَ يَطِيبُ لَهُ أَنْ يَكْتُمُوا عَنْهُ النَّهْبَ ٱلْـمُتَوَاصِلَ ٱلْيَوْمِـيَّ الَّذِي تَتَعَرَّضُ لَهُ مَكَاسِبُهُ مِنْ عَائِلَتِهِ وَٱلْعَمَلَةِ وَٱلْخُدَّامِ ... قَصْرُهُ كَقِدْرِ ٱلْحَلَزُونِ إِذْ يَأْكُلُ بَعْضُهُ بَعْضًا : ٱلْكَبِيرُ مِنَ ٱلْخَدَمِ يَظْلِمُ الصَّغِيرَ ، وَيَتَعَدَّى عَلَيْهِ فِي مَالِهِ وَبَدَنِهِ وَشَرَفِهِ ، وَالأَسْيَادُ يَعِيشُونَ فِي مَالِ الْفَرِيك بِالتَّبْذِير وَٱلْعَبَثِ وَالاسْرَافِ ... وَهَذِهِ ٱلْعَجَائِزُ الرَّائِحَـاتُ الْغَادِيَـاتُ عَلَىَ ٱلْقَصْـرِ يَسْلُبْـنَ الأَمْـوَالَ بِمَـا يَبِعْنَـهُ مِـنَ ٱلْـمَتَـاعِ ٱلْـمَسْـرُوقِ وَغَيْـرِ ٱلْـمَسْـرُوقِ ، وَيَنْهَشْـنَ الأَعْـرَاضَ ، وَيَحِـكْـنَ الدَّسَـائِـسَ وَٱلْـمُؤَامَـرَاتِ بِمَـا يُوقِعْـنَ مِـنَ ٱلْـمَغْـرُورَاتِ وَٱلْـمَغْـرُورِيـنَ فِي حَبَـائِلِهِـنَّ ... وَهَؤُلاَءِ ٱلْـمُـرَابِيـنَ الَّـذِيـتَ يُوَسِّـعُـونَ عَلَىَ وَالِدِي ، وَيُغْرُونَهُ

بِالصَّفَقَاتِ الْمُرْبِحَةِ فِي الظَّاهِرِ وَلَكِنَّهَا مُنْذِرَةٌ بِالافلاَسِ فِي الآخِرِ... وَوَالِدِي يَكْفِيهِ أَنْ يَدْخُلَ ٱلْـمَنْزِلَ ، وَالنَّاسُ سُكُوتٌ ، وَالأَلْسُنُ تَلْهَجُ بِذِكْرِهِ وَبِالثَّنَاءِ عَلَيْهِ ... وَيَقْنَعُ بِأَنْ لاَ يَنْبِسَ أَحَدٌ بِكَلِمَةٍ عَمَّا يَقَعُ ، وَهُوَ يَعْرِفُ ٱلْكَثِيرَ ، لِيَظُنَّ وَيُوهِمَ نَفْسَهُ ، وَيَعْتَقِدَ فِي آخِرِ الأَمْرِ أَنَّ أَهْلَهُ فِي نَعِيمٍ فِي حَالِهِمْ وَمُسْتَقْبَلِهِمْ . هَذَا وَالِدِي يَا « طَاهِرِ » وَأُمِّي مِثْلُهُ ، أَيْضًا وَهْيَ تَارِكَةٌ شُؤُونَ ٱلْقَصْرِ فِي أَيْدِي ٱلْخَدَمِ . وَ« زُبَيْدَة » بِطِيبَتِهَا ، وَلُطْفِهَا ، وَبَرَاعَتِهَا لاَ تَفْطَنُ إِلَىَ مَا يَقَعُ ... وَلِهَذَا فَإِنِّي أَكْرَهُهَا لأَنَّنِي أَعْتَقِدُ أَنَّهَا كَانَتْ تَقَعُ فِي حَبَائِلِي مِثْلَ غَيْرِهَا . وَهْيَ لاَ تُمَاثِلُهُمْ إِلاَّ لأَنَّهَا مَمْنُوعَةٌ عَنِّي وَعَنْ غَيْرِي فِي حِصْنٍ مِنَ الآفَاتِ . وَلَوْ تَعَرَّضَتْ إِلَىَ مَا يَتَعَرَّضُ إِلَيْهِ غَيْرُ ٱلْـمَحْظُوظِينَ أَوْ ٱلْـمَحْظُوظَاتِ لاَنْحَدَرَتْ إِلَىَ مَا انْحَدَرَتْ إِلَيْهِ الأُخْرَيَاتُ ... هَذَا وَالِدِي وَهَذَا بَيْتُهُ ... سِيَاسَتُهُ سِيَاسَةُ النَّعَامَةِ ... وَسُلُوكُهُ سُلُوكَ ٱلْغَاشِمِينَ ... إِذْ مَا أَنْ يَصِلَهُ نَبَأٌ بِمُخَالَفَةِ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ ٱلْبَيْتِ إِلاَّ وَيَزْمُجِرُ وَيَغْضَبُ وَيَصُبُّ جَامَ حَنَقِهِ عَلَىَ مَنْ يَعْتَرِضُهُ . فَيَكُونُ طَلَبُ ٱلْغُفْرَانِ وَٱلْـمَعْذِرَةِ ، وَٱلْهُرُوبُ مِنْ أَمَامِهِ. ثُمَّ يَهْدَأُ كُلُّ شَيْءٍ وَيَتَمَادَى كُلٌّ فِي غَيِّهِ ، وَلِسَانُ حَالِ وَالِدِي يَقُولُ : ٱلْـمُهِمُّ أَلاَّ تَطْفُوَ عُيُوبُكُمْ عَلَىَ السَّطْحِ ، وَلاَ تُكَدِّرْ ظَاهِرَ الأَشْيَاءِ . فَلْيُخَالِفْ ظَاهِرُكُمْ بَاطِنَكُمْ وَلْيُغَايِرْ عَمِيقُ الأَشْيَاءِ سَطْحِيَّهَا .. ٱلْـمُهِمُّ أَنْ لاَ يَصِلَنِي أَمْرٌ مِنْ أُمُورِكُمْ وَإِذَا قُدِّرَ لَهُ أَنْ يَصِلَنِي فَبِالْقَدْرِ ٱلْيَسِيرِ لِئَلاَّ يَصْدِمَنِي ... إِنَّهُ ٱلْـهُرُوبُ مِنَ ٱلْـمَسْؤُولِيَّةِ ... وَإِذَا صَادَفَ أَنْ حَلَّتْ مُصِيبَةٌ أَوْ حَدَثَ حَدَثٌ وَتَعَقَّدَ نَظَرًا لِلْحَزْمِ ٱلْوَاجِبِ إِبْرَازُهُ كَانَتِ النَّظْرَةُ الانهِزَامِيَّةُ ... وَٱلْـمَوْقِفُ ٱلْـمَائِعُ ... وَالاسْتِسْلاَمُ لِلْقَضَاءِ وَٱلْقَدَرِ . هَذَا يَا « طَاهِر » مَا عَرَفْتُهُ مِنْ أَبِي .... وَحَاوَلْتُ أَنْ أَسِيرَ بِالْقَصْرِ سَيْرًا آخَرَ فِي أَوَّلِ أَمْرِي وَلَكِنَّهُ لاَ يُرِيدُ أَنْ يُشَارِكَهُ فِي سُلْطَتِهِ أَحَدٌ بَلْ يَجِبُ أَنْ نَكُونَ كُلُّنَا عَبِيدًا .... هَذَا هُوَ حُكْمُ الطُّغَاةِ وَلاَ دَوَاءَ إِلاَّ فِي افْتِكَاكِ السُّلْطَةِ مِنْهُ ، وَلَكِنْ كَيْفَ يُـمْكِنُ ذَلِكَ وَهُوَ أَبِي ، وَقَدْ تَعِبَ كَثِيرًا فِي جَمْعِ هَذَا ٱلْـمَالِ وَٱلْوُصُولِ

إِلَى هَذِهِ ٱلْـمَكَانَةِ ... وَلِـهَذَا اسْتَسْلَمْتُ وَعِشْتُ هَذِهِ ٱلْعِيشَةَ ٱلْخَنُوعَ ... وَكُلُّ شَيْءٍ فِي ٱلْـمُجْتَمَعِ يُشَجِّعُ عَلَى هَذِهِ ٱلْعِيشَةِ اللَّعِينَةِ ٱلْخَنُوعِ ٱلْبَائِسَةِ ، الذَّلِيلَةِ ؛ تَـمَنَّيْتُ لَوْ كُنْتُ طَلِيقًا مِنْ كُلِّ ٱلْقُيُودِ الَّتِي تَرْبِطُنِي بِهَذِهِ الطَّبَقَةِ مِنَ التُّونِسِيِّينَ لِأَثُورَ عَلَى كُلِّ الأَوْضَاعِ وَلَكِنْ ... لَيْتَ لِي الشَّجَاعَةَ أَنْ أَخْسِرَ كُلَّ شَيْءٍ وَأُفَرِّطَ فِي حَيَاةِ النَّعِيمِ وَحَيَاةِ الطُّفَيْلِيِّينَ ... أَنَا جَبَانٌ ... جَبَانٌ ... يَا « طَاهِر » .

لَمْ يَكُنْ لِيَنْتَظِرَ « الطَّاهر » هَذَا ٱلْكَلَامَ مِنْ « عَادِل » وَلَمْ يَعْرِفْ هَلْ سَيُقَدِّرُ مَوْقِفَهُ ٱلْوَاعِيَ وَٱلْـمُحَلِّلَ التَّحْلِيلَ الصَّحِيحَ لِحَيَاةِ أَهْلِ هَذَا ٱلْقَصرِ أَمْ أَنَّهُ سَيَزِيدُ نَقْمَةً عَلَى نَقْمَةٍ نَحْوَ هَذَا الرَّجُل . وَلَكِنَّ شَيْئًا وَاحِدًا أَقَضَّ مَضْجَعَهُ ، هُوَ كَيْفَ إغْتَرَّ « بِدُوجَة » وَدَخَلَ بِدُونِ أَنْ يَشْعُرَ فِي هَذِهِ ٱلْـمُؤَامَرَةِ ٱلْـمُتَوَاصِلَةِ ، فِي خُيُوطِ بَيْتِ ٱلْعَنْكَبُوتِ هَذَا ...؟ ثُمَّ تَظْهَرُ لَهُ ٱلْحَقِيقَةُ عَارِيَةً كَعَرَاءِ « حَلِيمَة » ... وَلَكِنَّهُ عَرَاءٌ جَمِيلٌ ... وَأَنْعِمْ بِهَذَا ٱلْعَرَاءِ ٱلَّذِي يُفِيقُ نَخْوَةَ الْحَوَاسِّ ، وَيَضْرِبُ سَوَاكِنَ اللَّـذَّةِ بِسِيَاطٍ لَا أَمْتَعَ مِنْهَا إِلَى حَدِّ الأَلَمِ .

وَأَحَسَّ « الطَّاهر » بِأَنَّهُ غَرِقَ مِثْـلَ « عَـادِل » فِي هَذَا ٱلْخِضَـمِّ وَأَنَّ أَصَابِـعَ الأُخْطُبُوطِ اِمْتَدَّتْ إِلَيْهِ وَأَنَّ خُيُوطَ ٱلْعَنْكَبُوتِ بَدَأَتْ تُلَفُّ حَوْلَهُ فَقَالَ :

ـ أَنَا أَعْذِرُكَ يَا « عَادِل » وَأُقَدِّرُ فِيكَ وَعْيَكَ ... وَرَغْمَ مَأْسَاتِكَ ، فَإِنِّي أُرِيدُ مِنْكَ أَنْ تُعِينَنِي عَلَى الزَّوَاجِ مِنْ « زُبَيْدَة » ... هَذَا وَالِدِي سَيَأْتِي بَعْدَ غَدٍ وَيَطْلُبُ مِنْ سِيدِي مُصْطَفَى يَدَ « زُبَيْدَة » لِي ... أَعِنِّي وَسَاعِدْنِي عَلَى هَذَا الأَمْرِ .

وَأَرَادَ أَنْ يَقُولَ « عَادِل » :

ـ هَذِهِ هِيَ ٱلْوُصُولِيَّةُ بِعَيْنِهَا ... لَا يَهُمُّكَ مِنْ أَمْرِ هَذَا ٱلْبَيْتِ إِلَّا أَنْ تَصِلَ إِلَى مَآرِبِكَ وَلَكِنَّهُ قَالَ :

ـ نَعَمْ سَأُلِحُّ عَلَى وَالِدِي ، وَأَشْكُرُكَ عِنْدَهُ وَسَأُحَادِثُ أُمِّي فِي ٱلْـمَوْضُوعِ ... أَعَانَكَ اللَّهُ عَلَى تَخَطِّي هَذِهِ ٱلْعَقَبَةِ وَالسَّيْرِ فِي هَذِهِ السَّبِيلِ .

وَخَرَجَ مُسرِعًا .

* * *

وَبَعْدَ أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ سَمِعَ أَهْلُ ٱلْقَصْرِ ضَجَّةً فِي ٱلْبَهْوِ ، فَعَرَفُوا أَنَّ « أَبِّي مُحَمَّد » قَدْ حَلَّ رَكْبُهُ ، وَسَبَقَهُ قَبْلَ ذَلِكَ صَوْتُ ٱلأَكْبَاشِ ، وَجَرُّ أَوْعِيَةِ الزَّيْتِ ، وَصِيَاحُ الدَّجَاجِ ... وَصَوْتُ « أَبِّي مُحَمَّد » ٱلْـمُجَلْجِلُ .

ـ آ ... « طَاهِر » ... أَنْتَ اِبْنُ أَبِيكَ ... عَرَفْتُ أَنَّكَ سَتَكُونُ رَجُلاً بِأَتَمِّ مَعْنَى ٱلْكَلِمَـةِ ... وَأَنَّـكَ سَتُهَنِّيِنِي وَلاَ تُخَيِّـبُ ظَنِّـي .. أَصَـحِيحٌ ذَلِكَ يَا « سِيدِي مُصْطَفَى » .

ـ نَعَمْ ـ رَجُلٌ وَسَيِّدُ الرِّجَـالِ ـ وَأَبُوهَـا وَكَيَّالُـهَـا . لَقَـدْ عَمَّـرَ ٱلْقَصْرَ بِجِـدِّهِ وَاجْتِهَادِهِ .

وَدَخَلَ ٱلْجَمَاعَةُ إِلَىَ قَاعَةِ الاِسْتِقْبَالِ . وَبَدَأَ الدُّخُولُ فِي التَّفَاصِيلِ وَلَـمْ يَأْتِ ٱلْـمَسَاءُ حَتَّى اتَّفَقَ ٱلْجَمِيعُ عَلَىَ تَارِيخِ الزَّوَاجِ وَأَنْ لاَ يَحْضُـرَ مِنْ أَهْلِ ٱلْعَرِيسِ إِلاَّ نَفَرٌ قَلِيلٌ : أُمُّ « الطَّاهِر » وَإِخْوَتُهُ وَأَهْلُهُ وَأَصْحَابُهُ ٱلْمَوْجُودُونَ فِي تُونِسَ . وَتَكَفَّلَ « سِيدِي مُصْطَفَى » بِكُلِّ ٱلْـمَصَارِيفِ بِطَبِيعَةِ ٱلْحَالِ . وَلَيْسَ « لِلطَّاهِر » إِلاَّ أَنْ يَغْسِلَ سَاقَيْهِ ، وَيَدْخُلَ عَلَىَ ٱلْعَرُوسِ .

وَلَـمَّا اِفْتَرَقَ ٱلْجَمْعُ ، وَبَدَأَ أَهْلُ ٱلْقَصـرِ يَأْتُونَـهُ ، وَيُهَنِّئُونَـهُ عَلَىَ هَذَا ٱلْحَـدَثِ السَّعِيدِ ، وَيَتَمَنَّوْنَ لَهُ تَمَامَ ٱلْهَنَاءِ ، أَحَسَّ بِثِقَلٍ كَبِيرٍ يَنْزِلُ عَلَىَ أَكْتَافِهِ وَبِدَوَّامَةٍ تَدُورُ بِرَأْسِهِ ، مِنْ جَرَّاءِ مَا انْتَقَلَ بِهِ حَالُهُ مِنَ ٱلْفَقْرِ وَٱلْبَسَاطَةِ وَالسَّذَاجَةِ إِلَىَ الرَّفَاهِ وَالشَّيْطَنَةِ ، وَالنِّفَاقِ ...

وَأَصْبَحَ لاَ يَعْرِفُ نَفْسَهُ ، وَلاَ يَدْرِي كَيْفَ اِنْقَلَبَ إِلَىَ هَذَا ٱلْوُصُولِيِّ التَّافِهِ الَّذِي لاَ يَجْرِي إِلاَّ لاِرْضَاءِ شَهَوَاتِهِ وَتَحْقِيقِ غَايَاتِهِ . لَقَدْ أَضَـاعَ الشَّرَفَ ، وَالأَنَفَـةَ ، وَٱلْعِفَّةَ ، وَأَصْبَحَ يَنْسَاقُ إِلَىَ مَا يَنْسَاقُ إِلَيْهِ السَّفَلَةُ مِنَ النَّاسِ .

أَيْنَ ذَلِكَ ٱلْعَهْدُ الَّذِي كَانَ يَحْلُمُ فِيهِ بِتَغْيِيرِ أَوْضَاعِ النَّاسِ ، وَبِالسَّيْرِ فِي ٱلْحَيَاةِ

سَيْرًا مُسْتَقِيماً مَهْماَ تَقَلَّبَتْ بِهِ الأُمُورُ ؟ أَيْنَ ذَلِكَ الطَّوْرُ مِنَ ٱلْحَيَاةِ ؟ أَيْنَ ؟ ٱلأَمَلُ ضَاعَ ، كُلُّ ٱلأَمَلِ فِي الثَّوْرَةِ ، وَلَوْ فَرْدِيًّا عَلَى الظُّلْمِ ، وَٱلْخَصَاصَةِ بِالْوَسَائِلِ الشرِّيفَةِ ... لِتَسِرِ ٱلأُمُورُ كَماَ هِيَ إِذَنْ ... وَلْيَنْتَظِرْ زَفَافَهُ « بِزُبَيْدَة » وَفِي الأَثْنَاءِ لِيُوَدِّعْ حَيَاةَ ٱلْعُزُوبَةِ ، وَبَعْدَ زَوَاجِهِ سَيَعْرِفُ كَيْفَ يَسِيرُ ...

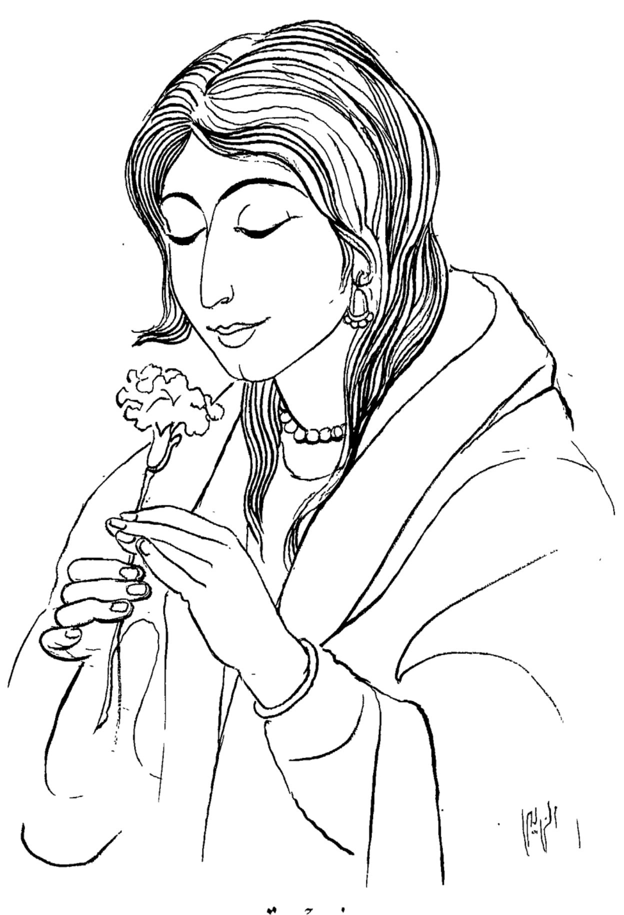
وَاسْتَعَدَّ ٱلْقَصْرُ كُلُّهُ لِهَذَا ٱلْحَدَثِ لأَنَّ « زُبَيْدَة » يَعْتَبِرُهَا ٱلْجَمِيعُ ٱبْنَةَ « سِيدِي مُصْطَفَى » وَانْتَقَلَ ٱلْخَدَمُ إِلَى تَحْوِيلِ ٱلْجَنَاحِ الَّذِي يَسْكُنُهُ« الطَّاهِر » إِلَى مَحَلِّ سُكْنَى لاَئِقٍ ، وَهُوَ قَابِلٌ لِذَلِكَ وَاحْتَجَبَتْ « زُبَيْدَة » عَنِ الأَنْظَارِ وَاحْتَجَبَ أَيْضًا «عادِل» : «زُبَيْدَة» لاِعْدَادِهَا ٱلاِعْدَادَ ٱلْكَامِلَ لِحَفْلِ الزَّوَاجِ وَ« عَادِل » لِيَغْرَقَ فِي هُمُومِهِ بِاللَّيَالِي ٱلْحَمْرَاءِ ، وَٱلْقِمَارِ .

وَشَعَرَ« الطَّاهِر » فِي تِلْكَ الأَيَّامِ أَنَّ مَرْكَبَهُ تَقْذِفُهُ الأَمْوَاجُ فِي وُجْهَةٍ وَاحِدَةٍ ، لاَ يَلْوِي عَلَى شَيْءٍ ، الرِّيَاحُ تَنْفُخُ فِي اتِّجَاهٍ وَاحِدٍ ، وَالأَقْدَارُ تَسُوقُهُ إِلَى حَيْثُ يُرِيدُ أَوْ لاَ يُرِيدُ . الأَقْدَارُ جَعَلَتْ « عَادِل » يَدْخُلُ السِّجْنَ فِي تِلْكَ الأَيَّامِ .

لَقَدْ دَاهَمَ ٱلْبُولِيسُ ٱلْـمَحَلَّ ٱلْـمُعَدَّ لِلْقِمَارِ ، وَسِيقَ ٱلْجَمِيعُ إِلَى الشُّرْطَةِ وَلَـكِنَّ « عَادِل » عِوَضَ أَنْ يُحَاكَمَ مِثْلَ غَيْرِهِ ، وَتُطَبَّقَ عَلَيْهِ قَوَانِينُ ٱلْبِلاَدِ مِثْلَ سَائِرِ الرَّعِيَّةِ يُوضَعُ فِي غُرْفَةٍ فِي قَصرِ بَارْدُو وَلاَ يَخْرُجُ مِنْهُ أُسْبُوعًا أَوْ أُسْبُوعَيْنِ حَسْبَماَ يُقَرِّرُ ذَلِكَ الْبَايِ أَخْذًا بِخَاطِرِ « الْفَرِيك مصطفى » وَإِكْرَامًا لَهُ باعتبار ابنه بَايًا من الْبَايَاتِ .

وَلَمْ يَسْمَعْ بِهَذِهِ ٱلْحَادِثَةِ إِلاَّ « سِيدِي مُصْطَفَى » و« الطَّاهِر » الَّذِي كَانَ يَذْهَبُ يَوْمِيًّا إِلَى ٱلْغُرْفَةِ ٱلْـمَسْجُونِ فِيهَا « عَادِل » وَيَحْمِلُ إِلَيْهِ مَا لَذَّ وَطَابَ .

وَأَثْنَاءَ ذَلِكَ كَانَ « الطَّاهِر » يُوَاسِي « حَلِيمَة » وَيَمْسَحُ لَهَا دُمُوعَهَا كُلَّماَ مَكَّنَتْهُ الظُّرُوفُ ، وَسَمَحَتْ لَهُ الأَشْغَالُ ٱلْمَوْجُودَةُ بِغُرْفَتِهِ . وَطَلَّقَ بِذَلِكَ مِنْ دُونِ رَجْعَةٍ « دُوجَة » الَّتِي لَمْ تَتَزَعْزَعْ مِنْ هَذَا ٱلْفِرَاقِ ... لأَنَّهُ فِرَاقُ ٱلْـمَادَّةِ وَفِرَاقُ اللَّـذَّةِ الرَّخِيصَةِ .



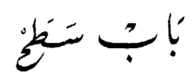
زبيدة

وَعَرَفَ فِي « حَلِيمة » رِقَّةٌ تَشُوبُهَا صَلاَبَةٌ تُشْبِهُ صَلاَبَـةَ ثَمَـرَةٍ أَوْشَـكَتْ عَلَى النُّضْجِ التَّامِّ فَهُوَ يُسَاهِمُ فِي إِنْضَاجِهَا بَيْنَمَا « دُوجَة » ثَمَرَةٌ كَمُلَ نُضْجُهَا بَعْضُهَا يَأْكُلُ بَعْضًا وَتَأْكُلُ آكِلَهَا .

* * *

وَتَمَّ كُلُّ شَيْءٍ عَلَى مَا يُرَامُ . وَخَرَجَ « عَادِل » مِنَ السِّجْنِ الذَّهَبِيِّ ، وَزُفَّتْ « زُبَيْدَة » إِلَى « الطَّاهِر » وَحَضَرَ خَلْقٌ كَبِيرٌ ، وَلَهَجَتْ بُيُوتَاتُ تُونس بِهَذَا الزِّفَافِ ، وَحَسِبَ النَّاسُ أَنَّ « سِيدِي مُصْطَفَى » قَدِ إِحْتَفَلَ بِزِفَافِ إِبْنِـهِ فِي اَلْوَاقِـعِ لأَنَّ « عَادِل » مَيْؤُوسٌ مِنْهُ لاَ يُعَوَّلُ عَلَيْهِ . وَلِهَذَا وُفِّقَ « الْفَرِيك مُصْطَفَـى » وَهُـوَ الشَّيْخُ اَلْمُسِنُّ فِي اَلْعُثُورِ عَلَى رَجُلٍ مِثْلِ « الطَّاهِر » مَعْرُوفٍ بِحَزْمِهِ ، وَذَكَائِهِ ، وَلُطْفِهِ ، وَتَرْبِيَتِهِ . وَكَانَ كُلُّ النَّاسِ يُعْجَبُونَ بِهَذَا اَلْقَرَوِيِّ الَّذِي عَرَفَ فِي مُدَّةٍ قَصِيرَةٍ كَيْفَ يَنْسَجِمُ مَعَ هَذَا اَلْوَسَطِ ، وَيَدْخُلُ خَبَايَاهُ ، وَيَحْذَقُ مِنْ فُنُونِ اَلْكَلاَمِ وَالأَدَبِ مَا عَجَزَ عَنْهُ اَلْكَثِيرُونَ مِنْ أَبْنَاءِ اَلْبُيُوتَاتِ .

وَأَصْبَحَ « الطَّاهِر » يَنْعَمُ بِكُلِّ شَيْءٍ ، وَخَاصَّةً بِزُبَيْدَةَ الزَّوْجَةِ الصَّالِحَةِ الَّتِـي عَرَفَتْ كَيْفَ تَصْقُلُ ذَوْقَ زَوْجِهَا وَتَدُلُّهُ عَلَى السُّلُوكِ الطَّيِّبِ وَتُحَرِّضُهُ عَلَى التَّقْوَى وَتَدْفَعُهُ إِلَى اِقْتِفَاءِ أَثَرِ وَالِدِهَا « سِيدي مُصْطَفى » وَهُوَ اَلْـمَثَلُ الَّـذِي يَجِـبُ أَنْ يُحْتَذَى ، وَالصُّورَةُ النَّاجِحَةُ الَّتِي عَلَيْهِ أَنْ يَتَشَبَّهَ بِهَا فَيَخْرُجُ مِنْ مَنْزِلَةِ الأَجِيرِ إِلَى مَنْزِلَةِ السَّيِّدِ خَاصَّةً وَأَنَّ « عادِل » مَآلُهُ إِلَى الضَّيَاعِ وَسَتَبْقَى ضِيَاعُ « الفَرِيك مُصْطَفى » من دُونِ وَارِثٍ .


باب سطح

أصْبَحَ « الطَّاهِر » يَعِيشُ فِي قَصرِ « اَلْفَرِيك مُصْطَفَى » حَيَاةَ السَّيِّدِ اَلآمِرِ النَّاهِي . وَلَكِنَّهُ يَتَضَايَقُ مِنْ أَشْيَاءَ عَدِيدَةٍ : من « عَادِل » الَّذِي يَخْشَاهُ بِسَبَبِ هَذِهِ الزِّيجَةِ : يَخْشَى حَسَدَهُ وَطَمَعَهُ فِي زَوْجَتِهِ ، وَضَمَّهَا إِلَى طُقُوسِهِ اَلْجِنْسِيَّةِ ، وَيَخْشَى هَذَا الطُّمُوحَ اَلْجَدِيدَ اَلَّذِي تَدْفَعُهُ إِلَيْهِ « زُبَيْدَة » وَتَرْمِي مِنْ وَرَائِهِ إِلَى الاسْتِحْوَاذِ عَلَى الضِّيَاعِ وَالأَمْلاَكِ ، خَاصَّةً وَأَنَّ هَذِهِ اَلْعَائِلَةَ هِيَ إِلَى الضَّيَاعِ .

وَأَكْبَرُ مَا يَتَضَايَقُ مِنْهُ « الطَّاهِر » مَوَاقِفُ « الْفَرِيك مُصْطَفَى » الَّتِي لاَ تَتَلاَءَمُ مَعَ اَلْوَضْعِ ، وَلاَ تَحُلُّ اَلْمَشَاكِلَ بَل هِيَ مَوَاقِفُ اَلْمُسْتَسْلِمِ ، اَلْمُتَعَالِي ، اَلْمُتَوَاكِلِ عَلَى مَكَانَتِهِ فِي اَلْمُجْتَمَعِ . كُلُّ هَذَا جَعَلَهُ يُحِسُّ بِأَنَّهُ أَسِيرٌ ، غَيْرُ طَلِيقٍ ، لاَ يَتَحَكَّمُ فِي أَقْوَالِهِ ، وَأَعْمَالِهِ ، وَلاَ يَعِيشُ اَلْحَيَاةَ الَّتِي يَرْتَضِيهَا .

قَالَ « عَادِل » فِي اَلْمَكْتَبَةِ الَّتِي سَمَّرَ « الطَّاهِر » بَابَهَا اَلْمُفْضِيَ إِلَى جَنَاحِ سُكْنَاهُ :

ـ غَرِيبٌ أَمْرُ الأَدَبِ اَلْعَرَبِيِّ وَخَاصَّةً اَلْقَدِيمَ مِنْهُ إِذْ لاَ مَكَانَ فِيهِ مَرْمُوقًا لِلصَّدَاقَةِ . لَعَلَّ الرُّوحَ اَلْقَبَلِيَّةَ كَانَتْ تَفْرِضُ عَلَى اَلْعَرَبِ أَنْ لاَ يَعْتَبِرُوا إِلاَّ النَّسَبَ أَوِ اَلْوَلاَءَ أَوِ اَلْحِلْفَ . وَمَا سِوَى ذَلِكَ مِنْ صَدَاقَةٍ وَوِدٍّ ، وَغَيْرِهِ فَهُوَ ثَانَوِيٌّ لاَ اعْتِبَارَ لَهُ . وَلَرُبَّمَا كَتَبَ اَبْنُ اَلْمُقَفَّعِ وَالتَّوْحِيدِيُّ فِي الصَّدَاقَةِ وَالصَّدِيقِ لأَنَّهُمَا لَمْ يَكُونَا مِنْ نَسَبٍ عَرَبِيٍّ وَلَمْ يَجِدَا فِي تِلْكَ الْبِيئَةِ اَلَّتِي سَيْطَرَ عَلَيْهَا فِكْرِيًّا اَلْعَرَبُ إِلاَّ الانْتِمَاءَاتِ الاقْلِيمِيَّةَ وَالجِهَوِيَّةَ ، وَاَلْقَبَلِيَّةَ وَالْعِرْقِيَّةَ ، فَأَرَادَا أَنْ يُدْخِلاَ هَذَا اَلْمَفْهُومَ اَلْحَضَارِيَّ

ٱلْجَدِيدَ فِي ٱلْعُقُولِ آنَذَاكَ ، وَلَكِنَّهُمَا لَمْ يُفْلِحَا ، فَقُتِلَ الأَوَّلَ شَرَّ قِتْلَةٍ لأَنَّهُ لاَ عَصَبِيَّةَ لَهُ وَمَاتَ الثَّانِي فَقِيرًا ، مُدْقِعًا . الصَّدَاقَةُ يَا « طَاهِر » هِيَ إِفْرَازَةُ ٱلْمَدَنِيَّةِ وَنِتَاجُهَا ، وَٱلْعَصَبِيَّةُ هِيَ ثَمَرَةُ ٱلْبَدَاوَةِ وَمِنْهَا ٱلأُخُوَّةُ وَلِهَذَا قَالَ أَبُو نُوَاس :

كَذَاكَ إِنِّي إِذَا رُزِئْتُ أَخًا فَلَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ سَبَبُ

وَهُوَ بَيْتٌ غَرِيبٌ ، وَفَهْمُهُ يَسْتَعْصِي عَلَى ٱلْكَثِيرِ ، وَلَكِنَّنِي أَفْهَمُهُ بِمَوْقِفِكَ أَنْتَ يَا « طَاهِر » . فَأَنْتَ لاَ تَعْرِفُ لِلصَّدَاقَةِ مَعْنًى ، وَلاَ تَطْمَئِنُّ إِلَيْهَا ، وَإِنَّمَا حَنِينُكَ يَنْصَرِفُ إِلَى أَهْلِكَ وَعَشِيرَتِكَ وَسُكَّانِ بَلْدَتِكَ فَقَطْ . ٱلْبَدَاوَةُ مَازَالَتْ مُعَشِّشَةً فِي ذِهْنِكَ ، وَهِيَ الَّتِي سَتَقْضِي عَلَيْكَ لأَنَّكَ مِنْ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَقُولُونَ بِالْقَوْلَةِ ٱلْمَأْثُورَةِ « اُنْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا » فِي مَعْنَاهَا الظَّاهِرِ لاَ فِي التَّأْوِيلِ الَّذِي أَوَّلُوهُ . وَأَنَا قَدْ عَاشَرْتُكَ مُنْذُ سَنَوَاتٍ وَأَفْضَيْتُ لَكَ بِسِرِّي وَتَعْرِفُ عَنِّي ٱلْكَثِيرَ ، وَلَكِنَّكَ لاَ تَطْمَئِنُّ إِلَيَّ لاَ لِشَيْءٍ إِلاَّ لأَنِّي لَسْتُ مِنْ عَشِيرَتِكَ .

ـ كَفَى هُرَاءً يَا « عَادِل » وَاعْدِلْ عَنِ التَّفَلْسُفِ ، وَانْظُرْ إِلَى ٱلْحَيَاةِ بِعَيْنِ ٱلْوَاقِعِ وَأَقْلِعْ عَنْ هَذِهِ السِّيرَةِ ٱلْـمُفْلِسَةِ .

ـ سِيرَتِي سُبَّةٌ فِي جَبِينِ هَذَا ٱلْـمُجْتَمَعِ ٱلْـمُنَافِقِ ٱلْخَنُوعِ الذَّلِيلِ ... ، مُجْتَمَعِ ٱلْعَبِيدِ لاَ الأَحْرَارِ ، مُجْتَمَعِ ٱلْعُبُودِيَّةِ ٱلْمُرَكَّبَةِ : عُبُودِيَّةِ نِظَامِ الحِمَايَةِ ، وَنِظَامِ ٱلْبَاي ، وَنِظَامِ ٱلْعَصَبِيَّةِ وَنِظَامِ الأُبُوَّةِ . لاَ يَسْتَقِيمُ لَكُمْ حَالٌ ، وَسَتَبْقَوْنَ عَبِيدًا تَنْهَشُكُمْ الأَنَانِيَّةُ وَحُبُّ الذَّاتِ وَالْحَسَدُ وَالاِنْتِهَازِيَّةُ . أَقْلِعُوا عَنْ هَذَا وَسَأُقْلِعُ أَنَا عَنْ سِيرَتِي ... وَلَوْ لَمْ أَكُنْ جَبَانًا ، إِفْرَازَةَ ٱلْمُيُوعَةِ وَالاِنْخِذَالِ لَتَمَرَّدْتُ عَلَيْكُمْ وَهَدَّمْتُ مُجْتَمَعَكُمْ عَلَى رُؤُوسِكُمْ . إِنَّ أَجْدَادَنَا كَانُوا أَكْثَرَ مُرُوءَةً مِنَّا لَقَدْ قَالَ أَبُو نُوَاس :

سَأَبْغِي ٱلْغِنَى إِمَّا نَدِيمَ خَلِيفَةٍ
يَقُومُ سَوَاءً ، أَوْ مُخِيفَ سَبِيلِ
بِكُلِّ فَتًى لاَ يُسْتَطَارُ جَنَانُهُ
إِذَا نَوَّهَ الزَّحْفَانِ بِاسْمِ قَتِيلِ

لِنَخْمِسَ مَالَ اللَّهِ مِنْ كُلِّ فَاجِرِ

أخِي بِطْنَةٍ لِلطَّيِّبَاتِ أَكُــــولِ

ـ لَقَدْ نَخَرَ عَقْلَكَ هَذَا الأَدَبُ الْفَاسِقُ وَإِنَّهُ لاَ يُصْلِحُ الْعَقَّارُ مَا أَفْسَدَهُ الدَّهْرُ.

وَخَرَجَ « الطَّاهِرِ » وَتَرَكَ « عَادِل » فِي تَهْوِيمَاتِهِ ، لِيَتَفَقَّدَ « زُبَيْدَة » فِي غُرْفَتِهَا وَهْيَ الَّتِي بَدَأَتْ عَوَارِضُ الْحَمْلِ تَظْهَرُ عَلَيْهَا ، وَتَجْعَلُ وَجْهَهَا الْمُتَأَلِّقَ يَمِيلُ نَحْوَ الْكُسُوفِ . وَلَكِنَّهَا رَغْمَ تَعَبِهَا الظَّاهِرِ ، حَافَظَتْ عَلَى جَمَالِهَا ، وَحَيَوِيَّتِهَا ، وَيَقْظَتِهَا . وَهْيَ دَائِماً تَلْقَى مِنَ « الطَّاهِرِ » الاحْتِرَامَ وَالتَّبْجِيلَ وَحَتَّى الدَّلاَلَ .

وَسَارَتِ الأَيَّامُ سَرِيعَةً ، وَكَأَنَّهَا حُلْمٌ ، حَتَّى جَاءَ الْيَوْمُ الَّذِي وَضَعَتْ فِيهِ « زُبَيْدَة » مَوْلُودَهَا . وَكَانَتْ بِنْتًا سَمَّاهَا أَبُوهَا « عَائِشَة » .

* * *

بَكَى « الطَّاهِرِ » عِنْدَ وِلاَدَةِ إِبْنَتِهِ ، وَرَقَّ قَلْبُهُ لَهَا ، وَقَدْ جَاءَتْ إِلَى الدُّنْيَا ضَعِيفَةً شِبْهَ مَيِّتَةٍ اللَّهُمَّ إِلاَّ تِلْكَ الصَّرْخَةَ الأُولَى . فَكَانَتْ وِلاَدَةُ إِبْنَتِهِ فَرْحَتَهُ الْكُبْرَى لاَ مَحَالَةَ . وَلَكِنَّهُ كَانَ يَحِسُّ بِالْحُزْنِ يَأْخُذُ أَعْمَاقَهُ إِلَى أَرَقِّ خَيْطٍ يَرْبِطُهُ بِالْحَيَاةِ . كَانَ يَنْظُرُ إِلَى هَذَا الْمَخْلُوقِ الصَّغِيرِ الَّذِي لَيْسَ لَهُ مِنَ الْحَيَاةِ إِلاَّ صَرْخَةٌ مُدَوِّيَةٌ فِي أَعْمَاقِ قَلْبِ أَبِيهِ . وَكَأَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَى قِطْعَةٍ مِنْ أَلَمِهِ الدَّفِينِ ، مِنْ هَذَا الْحُزْنِ الَّذِي تَنَاقَله مِنْ أَبِيهِ وَجَدِّهِ يَوْمَ وُلِدَ . الْحُزْنُ الضَّارِبُ فِي قَلْبِهِ مِنْ جَرَّاءِ هَذَا الْعِبْءِ الثَّقِيلِ الَّذِي أَحَسَّ بِهِ أَبُوهُ وَجَدُّهُ فِي مُوَاجَهَتِهِمَا الْحَيَاةَ .

سَمَّاهَا « عَائِشَة » لِتَعِيشَ طَوِيلاً وَلَكِنَّهُ كَانَ يَحِسُّ بِالرَّأْفَةِ نَحْوَ هَذَا الْمَوْلُودِ الَّذِي لَنْ يَرْحَمَهُ اللَّهُ مِنْ هَذَا الْحُزْنِ ، وَلَنْ يَمْنَعَهُ أَحَدٌ مِنَ الشُّعُورِ بِأَلَمِ الْوُجُودِ . هَذَا الْحُزْنُ وَهَذَا الأَلَمُ اللَّذَانِ لَمْ يَأْتِيَا مِنْ مَصَائِبَ أَلَمَّتْ بِهِ فَقَطْ وَلَكِنَّهُمَا نُقِلاَ إِلَيْهِ نَقْلاً ، كَقِسْمَةٍ لَهُ لِتُشْعِرَهُ بِأَنَّهُ مُتَضَامِنٌ مَعَ إِخْوَانِهِ الْبَشَرِ قَبْلَ أَنْ يَنَالَهُ شَرُّ إِخْوَانِهِ

اَلْبَشَرِ ، هُوَ يحِسُّ بِهَذَا الأَلَمِ وَالْحُزْنِ وُجُودِيًّا لأَنَّهُ قِسْمَةُ هَؤُلاَءِ النَّاسِ الَّذِينَ يَعِيشُونَ عَلَى هَذِهِ الأَرْضِ .

بَكَى عِنْدَ وِلاَدَةِ إِبْنَتِهِ خَوْفًا عَلَيْهَا مِنْ هَذِهِ الآفَةِ الَّتِي تَنَاقَلَهَا مِنْ أَجْدَادِهِ ، وَأَحَسَّ بِعَطْفٍ كَبِيرٍ عَلَيْهَا عِنْدَمَا رَآهَا شِبْهَ مَيْتَةٍ وَكَأَنَّهَا مَازَالَتْ فِي أَحْشَاءِ أُمِّهَا .

وَكَبُرَتْ « عَائِشَةُ » وَأَصْبَحَتْ شُغْلَ أَهْلِ الْقَصْرِ كُلِّهِمْ . وَكَانَتْ بِالنِّسْبَةِ إِلَى « عَادِل » اَلْفَرْحَةَ اَلْكُبْرَى ، وَالْمُسَلِّيَ اَلْوَحِيدَ لَهُ ، يُلاَعِبُهَا ، وَيُدَاعِبُهَا ، وَيَعْتَبِرُهَا اَلْمَخْلُوقَ الَّذِي لَمْ تُدَنِّسْهُ هَذِهِ اَلْحَيَاةُ ، وَلَمْ تَنَلْهُ عُقَدُ هَؤُلاَءِ اَلْمَسَاكِينِ الَّذِينَ يُعَمِّرُونَ هَذَا اَلْمُجْتَمَعَ .

وَرَاحَ « الطَّاهِر » وَعَائِلَتُهُ يَنْعَمُونَ فِي هَذَا الرَّخَاءِ مِنَ الْعَيْشِ وَلاَ يحِسُّونَ بِعِبْءِ مَا يَلْقَاهُ أَهْلُ « الطَّاهِر » وَإِخْوَانُ قَرْيَتِهِ مِنَ اَلْفَقْرِ ، وَالْخَصَاصَةِ وَآفَاتِ الزَّمَانِ اَلْمُتَقَلِّبِ . وَكَانَ « الطَّاهِر » يحِسُّ دَائِماً بِوَخْزِ الضَّمِيرِ كُلَّمَا مَرَّ أَمَامَ مَقْهَى « الْخَالْ عَلِي » وَيَشْعُرُ بِالأَسَى يحُزُّ فِي نَفْسِهِ عِنْدَمَا يُلاَقِي فِي الطَّرِيقِ أَحَدَهُمْ وَيَسْأَلُهُ عَنْ فُلاَنٍ وَفُلاَنٍ فَيَسْمَعُ بِمَا يُدْخِلُ عَلَيْهِ اَلْفَرَحَ . وَكَمْ مِنْ مَرَّةٍ يَلْتَقِي بِأَحَدِ السُّفَهَاءِ مِنْ خِلاَنِهِ فَيَكِيلُ إِلَيْهِ الشَّتَائِمَ وَيُسْمِعُهُ مَا يَكْرَهُ وَيَهْزَأُ بِلِبَاسِهِ قَائِلاً لَهُ :

ـ لَمْ تَنْفَعْ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ بَلْدَتِكَ . فَلاَ أَنْتَ مُوَظَّفٌ فِي إِدَارَةٍ وَلاَ صَاحِبَ أَعْمَالٍ لِيُمْكِنَ لَكَ أَنْ تُفِيدَ إِخْوَانَكَ . أَنْتَ مجُرَّدُ خَادِمٍ ، يُتْخِمُونَكَ بِالأَكْلَةِ الشَّهِيَّةِ ، وَالْبَدْلَةِ الرَّخِيَّةِ ، والزَّيجَةِ اَلْهَنِيَّةِ لِيُضَحُّوا بِكَ قُرْبَانًا عَلَى مَذْبَحِ مَطَامِعِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ . لاَ مُرُوءَةَ وَلاَ رُجُولَةَ ... خَسِئْتَ . وَيَبْصُقُ فِي وَجْهِهِ وَيَمْضِي .

وَبَدَأَتْ اَلْحَيْرَةُ تَتَمَلَّكُ « الطَّاهِر » وَزَادَ تَضَايُقُهُ مِنَ اَلْقَصْرِ وَأَهْلِهِ لَوْلاَ « عَائِشَةُ » الَّتِي مَلأَتْ حَيَاتَهُ فَرَحًا ، وَمَرَحًا ، وَغِبْطَةً وَأَنْسَتْهُ هُمُومَهُ اَلْمُتَزَايِدَةَ .

وَفِي يَوْمٍ مِنَ الأَيَّامِ بَيْنَمَا كَانَ « عَادِل » مُتَغَيِّبًا فِي فُسْحَةٍ مِنْ فُسْحَاتِهِ الطَّوِيلَةِ وَكَانَ « الطَّاهِر » فِي اَلْمَكْتَبَةِ مُنْكَبًّا عَلَى كِتَابِ « أُصُولُ اَلْحُكْمِ فِي الاسْلاَمِ » .

« لِعَلِيّ عَبْدِ الرَّزَاق » إِذْ دَخَلَ « الْفَرِيك مُصْطَفَى » بِطَلْعَتِهِ الْمَأْلُوفَةِ وَابْتِسَامَتِهِ الْعَرِيضَةِ وَقَامَتِهِ الْمُهَابَةِ وَسَلَّمَ عَلَى « الطَّاهِر » وَجَلَسَ قَائِلاً :

ـ مَاذَا تَقْرَأُ يَا « طَاهِر » ؟

ـ الاسْلاَمُ وَأُصُولُ الْحُكْمِ لِعَلِيّ عَبْد الرَّازِق .

ـ سَمِعْتُ عَنْهُ الْكَثِيرَ وَلَكِنِّي لَمْ أَجِدْ وَقْتًا لِقِرَاءَتِهِ وَيَظْهَرُ أَنَّهُ يُعَالِجُ الْحُكْمَ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ . لَقَدْ تَغَيَّرَتِ الأَحْوَالُ وَأَصْبَحْنَا نَعِيشُ وَقْتًا لَيْسَ فِيهِ حُكْمٌ لِلْمُسْلِمِينَ .

ـ نَعَمْ هَذِهِ قِسْمَتُنَا الْيَوْمَ .

ـ يَا « طَاهِر » أَنَا لَمْ أَتَحَدَّثْ مَعَكَ فِي هَذِهِ الْمَوَاضِيعِ سَابِقًا . لَقَدْ شَغَلَتْنَا دَائِماً شُؤُونُ الضِّيَاعِ وَالْعَقَارَاتِ . وَلَكِنْ أُرِيدُ أَنْ أَقُولَ لَكَ وَأَنْتَ أَصْبَحْتَ وَاحِدًا مِنَّا . إِنَّ الْحُكْمَ فِي هَذِهِ الْبِلاَدِ مِنْ أَبْشَعِ مَا رَأَيْتُ فَهُوَ لاَ يُبْقِي وَلاَ يَذَرُ حَتَّى بِالنِّسْبَةِ إِلَى الَّذِينَ يَخْدِمُونَهُ وَيُحْسَبُونَ عَلَيْهِ . اُنْظُرْ إِلَيَّ أَنَا مَثَلاً ، وَأَنَا « الْفَرِيك مُصْطَفَى » الَّذِي لَوْ مَلأَ قُفَّةً مِنَ النَّيَاشِينَ لَمَا قَدَرَ عَلَى رَفْعِهَا إِلاَّ بِصُعُوبَةٍ وَلَوْ مَشَى فِي الشَّارِعِ لَرَأَيْتَ النَّاسَ يَنْحَنُونَ أَمَامَهُ ، وَيَكَادُونَ يُقَبِّلُونَ يَدَهُ . أَنَا « الْفَرِيك مُصْطَفَى » مِنْ أَحْقَرِ النَّاسِ عِنْدَ الْفِرَنْسِيِيس لَيْسَ لِي أَيَّةُ قِيمَةٍ عِنْدَهُمْ . تَقُولُ هَذَا طَبِيعِيٌّ فِي بِلاَدٍ مَحْمِيَّةٍ وَلَكِنْ الأَمْرَ بِالْمِثْلِ مَعَ الْبَايَاتِ الَّذِينَ نَنْتَسِبُ إِلَيْهِمْ بِالْمُصَاهَرَةِ وَالْخِدْمَةِ . أَنَا وَأَمْثَالِي مُعَرَّضٌ إِلَى كُلِّ أَلْوَانِ الْغَضَبِ لأَتْفَهِ الأَسْبَابِ . فَلَوْ مَرَرْتُ مَثَلاً بِبَايٍ صَغِيرٍ وَلَمْ أُسَلِّمْ عَلَيْهِ فَالدُّنْيَا تَقُومُ وَتَقْعُدُ وَيَصِلُ الأَمْرُ إِلَى الْبَايِ نَفْسِهِ لِيُلاَحِظَ ذَلِكَ . هَذَا بِقَطْعِ النَّظَرِ عَنِ الْوِشَايَاتِ وَالسِّعَايَاتِ الَّتِي لَيْسَ لَهَا أَسَاسٌ مِنَ الصِّحَّةِ فَتَكُونُ عِنْدَ ذَلِكَ النَّظْرَةُ الْحَاقِدَةُ مِنَ الْبَايِ وَالْكَلِمَةُ النَّابِيَةُ مِنْهُ ، لِتَصِلَ فِي بَعْضِ الأَحْيَانِ إِلَى الأَمْرِ بِلُزُومِ دَارِي وَالاقْلاَعِ عَنْ زِيَارَةِ قَصْرِهِ . وَأَنْتَ لَوْ تَنَبَّهْتَ لَوَجَدْتَ أَنَّنِي عُزِلْتُ مَرَّتَيْنِ فِي هَذِهِ السَّنَوَاتِ بِدُونِ أَنْ يَسْمَعَ أَحَدٌ .. وَأَذْكُرُ لَكَ شَيْئًا آخَرَ فَحَتَّى الأَصْدِقَاءُ يُمْنَعُونَ عَنْ زِيَارَتِي أَوْ هُمْ يَسْتَنْكِفُونَ

مِنْ ذَلِكَ لِئَلاَّ يَنَالَهُمْ سُخْطُ ٱلْبَايِ وَحَاشِيَتِهِ . نَعَمْ أَنَا مِنَ ٱلْحَاشِيَةِ وَلَسْتُ مِنَ ٱلْحَاشِيَةِ ، هَذِهِ حَالُنَا يَا « طَاهِر » .. حُكْمٌ بِدُونِ سُلْطَةٍ ... بَهْرَجٌ وَلاَ كَرَامَةَ .

ـ وَلَكِنْ لِمَاذَا لاَ تُقْلِعُ عَنْ هَذِهِ ٱلْخِدْمَةِ وَأَنْتَ لَكَ مِنَ الثَّرَاءِ مَا يَكْفِيكَ مَؤُونَةَ هَذَا ٱلْوَظِيفِ ؟

ـ أَنْتَ لاَ تَعْرِفُ سَفَالَةَ هَؤُلاَءِ . إِنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَى أَنْ يَحِيكُوا لِي ٱلْمُؤَامَرَاتِ وَيُخْرِجُونِي مِنْ رِزْقِي أَوْ يُصِيبُونِي فِي وَلَدِي « عَادِل » .

ـ أَنْتَ عَبْدٌ لِهَؤُلاَءِ إِذَنْ .

ـ عُبُودِيَّةٌ مُذْهَبَةٌ ... لاَ تُحِسُّ فِيهَا بِالْقُيُودِ وَلاَ مَحِيدَ عَنْهَا ... هَذَا كَلاَمٌ قُلْتُهُ لَكَ يَا « طَاهِر » لأَنَّنِي أَعْتَبِرُكَ إِبْنِي وَوَاحِدًا مِنَّا فَإِيَّاكَ أَنْ تَتَحَدَّثَ بِهِ لأَيٍّ كَانَ وَإِلاَّ فَالْكَارِثَةُ وَٱلْمُصِيبَةُ ٱلْعُظْمَى تَحِلاَّنِ بِنَا .

ـ وَلِمَاذَا أَتَحَدَّثُ بِهَذَا ..؟ وَلَكِنْ كُلُّ هَذِهِ الأُمُورِ تُحَيِّرُنِي يَا « سِيدِي مُصْطَفَى » وَتَجْعَلُنِي لاَ أَرْتَاحُ إِلَى هَذِهِ ٱلْحَيَاةِ .

ـ كَيْفَ يَا « طَاهِر » ... لاَ تَرْتَاحُ إِلَى هَذِهِ ٱلْحَيَاةِ ... بَعْدَ كُلِّ الَّذِي صَنَعْتُهُ مَعَكَ ..؟ هَذَا لاَ يُعْقَلُ ..!

ـ لاَ تَغْضَبْ يَا « سِيدِي مُصْطَفَى » ... أَنَا أَعْتَرِفُ بِجَمِيلِكَ وَأُقَدِّرُ فِيكَ عَوَاطِفَكَ النَّبِيلَةَ وَلَكِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُشَاطِرَكَ مَا تُحِسُّهُ أَنْتَ ...

ـ آ ... تُشَاطِرُنِي مَا أُحِسُّهُ أَنَا ...

ـ نَعَمْ يَا « سِيدِي مُصْطَفَى » ...

وَخَرَجَ « الْفَرِيك مُصْطَفَى » لاَ يَلْوِي عَلَى شَيْءٍ ....

* * *

مَضَتْ ثَلاَثُ سَنَوَاتٍ أُخْرَى ... كَبُرَتْ فِيهَا « عَائِشَة » وَبَدَأَتْ مَلاَمِحُهَا الرَّقِيقَةُ تُضْفِي عَلَى ٱلْقَصْرِ رِقَّةً أَوْقَعَ مِنْ رِقَّةِ أُمِّهَا : وَجْهٌ جَمِيلٌ يَمِيلُ إِلَى النَّحَافَةِ وَالسُّمْرَةِ وَيَأْخُذُ مِنْ مَلاَمِحِ الأَبِ وَالأُمِّ وَفَمٌ صَغِيرٌ ، حُلْوٌ وَأَنْفٌ ظَرِيفٌ وَعَيْنَانِ تَشْتَعِلاَنِ



عايشة

ذَكاءً وَلُطفًا .

أمَّا لَعِبُهَا ، وَجَرْيُهَا بَيْنَ رَدَهَاتِ ٱلْقَصْرِ ، وَقَفْزُهَا ثُمَّ كَلاَمُهَا ٱلْحُلْوُ الَّذِي يَتَنَاقَلُهُ أَهْلُ ٱلْقَصْرِ ، سَادَةً وَخَدَمًا ، كَانَ كُلُّ هَذَا يُعَمِّرُ أَرْكَانَ هَذَا ٱلْبَيْتِ السَّاكِنِ سُكُونَ ٱلْقُبُورِ ، لأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ يَجِبُ أَنْ يَسِيرَ بِدُونِ ضَجَّةٍ وَبِرِفْقٍ فَلاَ صَخَبَ ، وَلاَ صِيَاحَ ، وَلاَ عِرَاكَ . كُلُّ شَيْءٍ يَأْكُلُ بَعْضُهُ بَعْضًا فِي سُكُونٍ كَمَا يَأْكُلُ الدُّودُ الأَمْوَاتَ . ٱلْحَيَاةُ ، هُنَا يَجِبُ أَنْ تَسِيلَ بِرِفْقٍ ، خَيْطًا ، خَيْطًا ، كَمَا يَدِبُّ ٱلْمَوْتُ فِي جِسْمِ « الْفَرِيك مُصْطَفَى » عِرْقًا عِرْقًا ، وَتَنْطَفِيءُ جَذْوَةُ ٱلْعَيْشِ فِي « عَادِل » فَتِيلاً فَتِيلاً ، وَتَخْبُو مِسْحَاتُ ٱلْجَمَالِ مِنْ وَجْهِ زَوْجَةِ « الْفَرِيك » وَتُغْشِي شَغَافَ قَلْبِ « الطَّاهِرِ » طَبَقَاتٌ مِنَ ٱلْحُزْنِ الدَّاكِنِ ، وَتَنْفَذُ إِلَى صَمِيمِ فُؤَادِ « زُبَيْدَة » رَشَقَاتُ الأَخْذِ بِالثَّأْرِ الَّذِي كَانَ يَبْدُو سَرَابًا .

إلاَّ « عَائِشَة » كَانَتْ أَمَلَ ٱلْجَمِيعِ ، وَفَرْحَتَهُمْ ، وَمُحَيَّاهُمْ ، وَسِرَّ وُجُودِهِمْ : فَهِيَ لَهَا ٱلْحَقُّ فِي أَنْ تَصْرُخَ ، وَتَصِيحَ ، وَتَضْرِبَ ، وَتَسُبَّ ، وَتَعْبَثَ بِاللِّحَى ، وَالشَّوَارِبِ ، وَتَعَضَّ ، وَتَسْأَلَ فِي إِلْحَاحٍ ، وَتُكَسِّرَ مَا شَاءَ لَهَا أَنْ تُكَسِّرَ ، وَتُفْسِدَ التُّحَفَ ، وَتُلْقِي بِهَا فِي ٱلْبُسْتَانِ ، وَتُقَطِّعَ ٱلْكُتُبَ حَتَّى النَّفَائِسَ مِنْهَا .

هِيَ الثَّوْرَةُ ٱلْعَارِمَةُ ٱلْوَحِيدَةُ الَّتِي يَقْبَلُهَا أَهْلُ ٱلْقَصْرِ ، وَيَقْبَلُونَ صَاحِبَتَهَا فِي الأَحْضَانِ ، وَيَتَنَدَّرُونَ بِكَلاَمِهَا ، وَيُرَدِّدُونَهُ ، وَيُفَرِّجُونَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ بِهِ .

وَلَوْلاَ « عَائِشَة » لَمَا أَطَاقَ « الطَّاهِرِ » ٱلْبَقَاءَ طَوِيلاً فِي ٱلْقَصْرِ وَلَرَاحَ هَارِبًا مِنَ ٱلْكَابُوسِ الَّذِي يَجْثُمُ عَلَى صَدْرِهِ ، وَلَيْسَ بِإِمْكَانِهِ أَنْ يُزَحْزِحَهُ . وَلَوْلاَ « عَائِشَة » لَرَمَى بِكُلِّ هَذِهِ ٱلْخَيْرَاتِ ، وَهَذَا النَّعِيمِ وَسَرَحَ فِي مُلْكِ اللهِ ٱلْوَاسِعِ ..

وَكَانَ « الطَّاهِرِ » يَقُولُ فِي نَفْسِهِ :

ـ نَعَمْ هَذَا ٱلْعِبْءُ الَّذِي أُحِسُّ بِهِ هُوَ ثَمَرَةُ تَجْرِبَةٍ طَوِيلَةٍ عَرَّفَتْنِي مَا كُنْتُ غَيْرَ قَادِرٍ عَلَى اسْتِكْنَاهِهِ ، وَأَوْسَعَتْ مَعْلُومَاتِي فِي كُلِّ شَيْءٍ ، الضَّرُورِيِّ مِنْهَا وَٱلْكَمَالِيِّ

وَأَصْبَحْتُ إِنْسَانًا كَامِلاً وَلَكِنَّنِي إِنْسَانٌ شَقِيٌّ .. سَجِينٌ ... عَبْدٌ لاَ إِخْتِيَارَ لِي ... حَيَاتِي مُسَطَّرَةٌ بِالْـمِسْطَرَةِ ، خَطًّا مُسْتَقِيماً لاَ يَنْتَهِي إِلاَّ بِنِهَايَتِي . بَلْ هَلْ مِنْ سَبِيلٍ إِلَى ذَلِكَ ؟ فَهَلْ نِهَايَتِي سَتَنْتَهِي مَعَ « عَائِشَة » أَوْ مَعَ الآخَرِينَ الَّذِينَ سَيَأْتُونَ ؟ أَنَا لاَ أُرِيدُ أَنْ تَكُونَ حَيَاتِي خَطًّا مُسْتَقِيماً ... أَرْفُضُ هَذِهِ اَلْحَيَاةَ وَلَكِنْ كَيْفَ ؟ هَذِهِ اَلْحَيَاةُ الَّتِي لاَ يَجِدُ فِيهَا اَلْفَرْدُ مَكَانَةً فَهُوَ قَطِيعٌ : إِمَّا قَطِيعٌ لَيْسَ لَهُ حَظْوَةٌ وَلاَ إِعْتِبَارَ لاِنْسَانِيَّةِ عَنَاصِرِهِ ، فَهُوَ يُسَاقُ كَمَا تُسَاقُ اَلْغَنَمُ وَيُحْشَرُ فِي زُمْرَةِ اَلْعَبِيدِ . أَوْ قَطِيعٌ لَهُ حَظْوَةٌ وَهُوَ مَحْظُوظٌ ، جُمْلَةً أَمَامَ عَامَّةِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَفْرَادَهُ فِي عُبُودِيَّةٍ تَامَّةٍ يَخْضَعُونَ إِلَى الطُّقُوسِ وَالتَّقَالِيدِ وَاَلْـمَرَاسِمِ ، مَتَى سَيَأْتِي الزَّمَنُ الَّذِي تَكُونُ فِيهِ اَلْحُرِّيَةُ لِلْفَرْدِ وَالاعْتِبَارُ لَهُ كَإِنْسَانٍ كَامِلِ الانْسَانِيَّةِ !؟ لَنْ تَكُونَ الثَّوْرَةُ اَلْحَقِيقِيَّةُ إِلاَّ إِذَا بُنِيَ نِظَامٌ لاَ يَكُونُ فِيهِ أَيُّ ظُلْمٍ وَعَسْفٍ وَامْتِهَانٍ لأَيِّ فَرْدٍ مِنَ الأَفْرَادِ غَنِيًّا كَانَ أَوْ فَقِيرًا ، شَيْخًا أَوْ شَابًا أَوْ طِفْلاً ، اَمْرَأَةً أَوْ رَجُلاً .

مَتَى ... مَتَى ... يَكُونُ ذَلِكَ !؟

كُلُّ جِهَازٍ وَكُلُّ هَيْكَلٍ ، قَبِيلَةً كَانَ أَوْ عَشِيرَةً ، أَوْ عَائِلَةً مَالِكَةً ، أَوْ تَنْظِيماً جَمَاهِيرِيًّا أَعْمَى ، يَسْتَهِينُ بِالْفَرْدِ مِنْ أَجْلِ « خَيْرِ » جَمَاعَةٍ وَلاَ يَعْرِفُ مَا يُحِسُّهُ وَيُقَاسِيهِ أَفْرَادُهَا إِنَّمَا هُوَ مَصْدَرُ اَلْعُبُودِيَّةِ . عِنْدَمَا يَسِيرُ اَلْفَرْدُ فِي الطَّرِيقِ وَيَدْخُلُ دُكَّانًا ، أَوْ مَقْهَى ، وَيَعْمَلُ فِي مِهْنَتِهِ ، وَيَأْوِي إِلَى دَارِهِ وَهُوَ يَدْفِنُ فِي نَفْسِهِ أَلَمَ فَقْرِهِ ، أَوْ بُؤْسَهُ اَلْـمَعْنَوِيَّ أَوْ اَلْـمَرَضَ الَّذِي يَأْكُلُهُ ، أَوْ كَابُوسَ عَائِلَتِهِ وَمِهْنَتِهِ وَمَنْ حَوْلَهُ ، أَوْ حَيَاءَهُ مِنْ نَفْسِهِ وَتَهْوِيمَاتِهَا ، أَوْ خَجَلَهُ مِنْ سَيِّئَاتِهِ ، أَوِ إعْتِزَازَهُ بِنُبْلِ عَوَاطِفِهِ وَأَتْوَاقِهِ وَأَشْوَاقِهِ وَلاَ يَجِدُ اَلْفُرْصَةَ لِتَجْسِيمِهَا أَمَامَ إِخْوَانِهِ لِتَلاَفِيهَا أَوِ الاشْعَاعِ بِهَا فَإِنَّ اَلْعُبُودِيَّةَ مَازَالَتْ سَاكِنَةً بِالْـمُجْتَمَعِ مَهْمَا صَلُحَ اَلْـمُسْتَوَى اَلْـمَادِّيُّ وَارْتَفَعَتْ دَرَجَةُ اَلْـمَدَنِيَّةِ .

هَذِهِ اَلْـهَوَاجِسُ كَانَتْ تُلِمُّ بِهِ مِنْ حِينٍ إِلَى آخَرَ . وَلَكِنَّ « زُبَيْدَة » كَانَتْ تَشُدُّ مِنْ

عَزْمِهِ ، وَتُسَيِّرُهُ بِكُلِّ لُطْفٍ وَمَهَارَةٍ خاصَّةً وَأَنَّ « عَادِل » يَنْطَفِئُ شَيْئًا فَشَيْئًا ، وَتَتَفَاقَمُ عُيُوبُهُ ، وَبَدَأَتْ تَظْهَرُ إِلَىَ ٱلْعِيَانِ . وَكَانَ كُلُّ شَيْءٍ يَدْعُو « الطَّاهِر » إِلَىَ الاجْهَازِ وَالتَّعَلُّلِ عَلَيْهِ ، وَلَيْسَ لَهُ مِنْ نَصِيرٍ الآنَ حَتَّى أُمُّهُ فَقَدْ فَقَدَتْ صَوْتَهَا ، وَلَيْسَ فِي إِمْكَانِهَا أَنْ تُدَافِعَ عَنْهُ .

وَفِي صَبِيحَةِ يَوْمٍ بَيْنَمَا كَانَ ٱلْجَمَاعَةُ يُصَبِّحُونَ عَلَىَ زَوْجَةِ الْفَرِيك : « عَادِل » وَ « الطَّاهِر » وَ « زُبَيْدَة » وَالْفَرِيك فِي غُرْفَتِهِ يُهَيِّءُ نَفْسَهُ لِلْخُرُوجِ وَبَعْضُ ٱلْخَدَمِ يَجِيئُونَ وَيَرُوحُونَ إِذْ « بِعَادِل » يَقُولُ « لِلطَّاهِر » :

ـ يَا طَاهِر أَنْتَ ذَاهِبٌ إِلَىَ تُونِسَ وَأَنَا ٱلْيَوْمَ لاَ أُرِيدُ ٱلْخُرُوجَ ، فَاشْتَرِ لِي عُلَبَ سَقَائِرَ وَ « دَبُوزَةَ » عِطْرٍ (وَهُوَ يُسَمِّي قَارُورَةَ ٱلْخَمْرِ « ٱلْبُوخَةِ » عِطْرًا) .

فَصَاحَ فِيهِ « الطَّاهِر » حَانِقًا قَائِلاً :

ـ هَلْ تَظُنُّ أَنَّنِي خَدِيمُ السَّيِّدِ الْوَالِدِ .

ـ إِيهْ ... يَعْنِي !؟

وَلَمْ يَسْمْلِكْ « الطَّاهِر » نَفْسَهُ فَأَهْوَى بِصَفْعَةٍ قَوِيَّةٍ عَلَىَ خَدِّ « عَادِل » أَطَاحَتْ بِشَاشِيَّتِهِ ، وَأَرَادَ ضَرْبَهُ مَرَّةً أُخْرَى .

وَقَامَتِ الضَّجَّةُ وَٱلْتَفَّتْ بِـهِمَا النِّسَاءُ وَجَاءَ « الْفَرِيك » فَزِعًا مِنْ غُرْفَتِهِ فَوَجَدَ « عَادِل » يُجْهِشُ بِالْبُكَاءِ ثُمَّ أُغْمِيَ عَلَيْهِ مِنْ فَرْطِ ٱلْغَضَبِ ، وَحُمِلَ إِلَىَ فِرَاشِهِ وَكَانَ يَوْمًا أَسْوَدَ لَمْ يَعْرِفْ فِيهِ أَحَدٌ مِنَ ٱلْقَصْرِ مَا يَقُولُهُ لِلآخَرِ .

وَبَقِيَ « عَادِل » فِي ٱلْفِرَاشِ مَرِيضًا ، وَقَرَّرَ « الطَّاهِر » أَنْ يَزُورَ أَهْلَهُ فِي قَرْيَتِهِ بَعْدَ أَنِ اعْتَذَرَ «لِلْفَرِيك مُصْطَفَى» .وَلَكِنَّهُ أَصَرَّ عَلَىَ أَلاَّ يَعُودَ « عَادِل » فِي غُرْفَتِهِ وَأَنْ يَذْهَبَ لِلتَّفْرِيجِ عَنْ نَفْسِهِ مِنْ هَذِهِ ٱلْحَادِثَـةِ وَزِيَارَةِ أَهْلِـهِ وَأُمِّـهِ . فَوَافَقَـهُ « الْفَرِيك مُصْطَفَى » عَلَىَ ذَلِكَ وَقَالَ لَهُ عِنْدَ تَوْدِيعِهِ :

ـ لاَ تَنْسَ أَنَّنِي أُعَوِّلُ عَلَيْكَ يَا « طَاهِر » وَلاَ تَنْسَ ٱلْـمَعْرُوفَ .

ـ كَيْفَ أَنْسَى وَجُزْءٌ مِنْ نَفْسِي هُنَا .

وَكَانَتْ « زُبَيْدَة » حَاوَلَتْ أَنْ تُهَدِّئَ مِنْ نَفْسِ « الطَّاهِر » وَتَدْفَعُهُ إِلَى التَّسَامُحِ وَلَكِنَّهُ أَصَرَّ عَلَى عَدَمِ رُؤْيَةِ « عَادِل » مَعَ أَنَّ « زُبَيْدَة » تَعْرِفُ أَنَّ « عَادِل » هُوَ نَفْسُهُ مُصَمِّمٌ عَلَى أَنْ يُؤَدِّبَ هَذَا الأَرْعَنَ إِذَا هُوَ لَمْ يُكَفِّرْ عَنْ سَيِّئَتِهِ .

وَخَرَجَ « الطَّاهِر » مِنَ ٱلْقَصْرِ وَلَمْ يَأْخُذْ كَالْعَادَةِ « الْكَرُّوسَة » وَأَحَسَّ بِالْفِرَاجِ وَهُوَ يَتَّجِهُ نَحْوَ « التَّرَامْوَايْ » فَكَأَنَّهُ كَانَ سَجِينًا وَأُطْلِقَ سَرَاحُهُ .

* * *

وَرَجَعَ ٱلْقَصْرُ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ . وَكَانَتْ « زُبَيْدَة » تَزُورُ مَعَ سَيِّدَتِهَا « عَادِل » فِي غُرْفَتِهِ لِمُوَاسَاتِهِ وَهُوَ يَشْكُو مِنَ التَّعَبِ وَالانْهِيَارِ . وَكَانَ الَّذِي يُحَيِّرُ « زُبَيْدَة » هُوَ بَقَاءُ ٱلْعَلاَقَاتِ بَيْنَ « الطَّاهِر » وَ« عَادِل » عَلَى هَذَا التَّوَتُّرِ وَهُوَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُغْضِبَ « الْفَرِيك مُصْطَفَى » وَيُفْسِدَ عَلَيْهَا مُخَطَّطَهَا . فَقَرَّرَتْ أَنْ تَزُورَهُ وَحْدَهُ لِتَهْدِئَةِ خَاطِرِهِ وَقَالَتْ فِي نَفْسِهَا :

ـ هُوَ مَرِيضٌ وَمَاذَا يُمْكِنُ أَنْ يَلْحَقَنِي مِنْهُ وَأَنَا أَكْرَهُهُ .

وَبَيْنَمَا كَانَ « عادِل » فِي فِرَاشِهِ ، فِي ٱلْقَيْلُولَةِ وَإِذَا بِبَابِ « الْمَقْعَدِ » يُفْتَحُ وَتُطِلُّ مِنْهُ « زُبَيْدَة » فَيَسْتَغْرِبُ « عَادِل » مَجِيئَهَا وَحْدَهَا وَيُرَحِّبُ بِهَا مِنْ دُونِ أَنْ يَقُومَ مِنْ فِرَاشِهِ ، وَتَجْلِسُ هِيَ فِي نَاحِيَةٍ مِنَ ٱلْفِرَاشِ ، وَتَبْدَأُ فِي ٱلْحَدِيثِ مَعَهُ وَإِذَا بِهِ يُجْهِشُ بِالْبُكَاءِ ، وَيَلُومُهَا عَلَى كُلِّ مَا صَدَرَ مِنْهَا فِي ٱلْقَدِيمِ فَتَقْتَرِبُ مِنْهُ ، وَتَمْسَحُ لَهُ دُمُوعَهُ ، وَتَهُمُّ بِتَقْبِيلِ جَبِينِهِ ، وَلَكِنَّهُ يَمُدُّ يَدَيْهِ فِي رِفْقٍ ، وَيُحَوِّلُ الْقُبْلَةَ إِلَى فَمِهِ ، وَلَمْ يَفْطَنْ لاَ هُوَ وَلاَ هِيَ إِلاَّ وَهُمَا فِي فِرَاشٍ وَاحِدٍ ، مُلْتَصِقَيْنِ أَشَدَّ الالْتِصَاقِ ، يُطْفِئَانِ لَهِيبًا لَمْ يَعْرِفَا شُوَاظَهُ مِنْ قَبْلُ .

لَمْ تَدْرِ « زُبَيْدَة » كَيْفَ وَصَلَ بِهَا الأَمْرُ إِلَى هَذِهِ ٱلْحَالِ ! وَكَيْفَ ذَهَبَ عَقْلُهَا بِهَذِهِ الصُّورَةِ ! وَلَمْ تَفْهَمْ لِمَاذَا أَحَسَّتْ مَعَ « عَادِل » بِاللَّذَّةِ ٱلْقُصْوَى الَّتِي لَمْ يَكُنْ

« الطَّاهِر » قَادِرًا عَلَى إمْتَاعِهَا بِهَا ! وَلَبِسَتْ ثِيَابَهَا بِسُرْعَةٍ ، وَخَرَجَتْ لاَ تَلْوِي عَلَى شَيءٍ وَبَقِيَتْ لَيْلَتَهَا تِلْكَ ، وَهِيَ بَيْنَ ٱلْيَقَظَةِ وَالنَّوْمِ تَسْبُـرُ أَعْمَاقَ نَفْسِهَا وَتُسَائِلُهَا لِمَاذَا كَانَ ذَلِكَ ٱلْيَوْمُ أَكْثَرَ أَثَرًا فِي نَفْسِهَا مِنْ يَوْمِ زَفَافِهَا ؟

وَفِي ٱلْيَوْمِ ٱلْـمُوَالِي لَمْ تَتَمَـالَكْ « زُبَيْدَة » عَنِ اللِّقَاءِ مَرَّةً أُخْرَى مَعَ « عَادِل » الَّذِي نَشِطَ نَشَاطًا لَمْ يَعْرِفْهُ مِنْ قَبْلُ وَقَرَّرَ أَنْ يُبْطِلَ طُقُوسَهُ ٱلْجِنْسِيَّةَ الأُخْرَى ، وَيَبْقَى عَلَى تِلْكَ ٱلْحَالِ هُوَ وَ« زُبَيْدَة » خَمْسَةَ أَيَّامٍ اِتَّفَقَ أَثْنَاءَهَا مَعَ خَلِيلَتِهِ ٱلْجَدِيدَةِ أَنْ يَتَنَازَلَ فِي حَقِّهِ تُجَاهَ « الطَّاهِر » وَيَجْنَحَ إلَى التَّسَامُحِ .

وَرَجَعَ « الطَّاهِر » مِنْ قَرْيَتِهِ وَصَلُحَ الأَمْرُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ « عَادِل » وَلَكِنَّهُ أَحَسَّ بِأَنَّ ٱلْجَوَّ فِي ٱلْقَصْـرِ قَدْ تَبَدَّلَ ، وَأَنَّ « عَادِل » قَدْ تَغَيَّرَ سُلُوكُهُ مَعَـهُ وَأَنَّ « زُبَيْدَة » أَصْبَحَتْ أَشَدَّ إنْغِلاَقًا مِنْ قَبْلُ . وَعَزَا ذَلِكَ بَعْدَ أَسَابِيعَ إلَى أَنَّهَا حَامِلٌ . وَبَقِيَ فِي هَذِهِ ٱلْـهَوَاجِسِ وَهُوَ يُكَذِّبُ ، وَيُنَسِّي خَاصَّةً عِنْدَمَا يَعْتَرِضُ « زُبَيْدَة » وَهِيَ نَازِلَةٌ مِنْ مَدْرَجِ «مَقْعَدٍ» « عَادِل » فَتَقُولُ لَهُ : إنَّهَـا وَقَفَـتْ فِي النَّافِـذَةِ ٱلْـمُقَابِلَـةِ لِلْمَدْرَجِ لِتُنَادِيَ ٱلْجَنَّانَ لِيَقُومَ بِخِدْمَةٍ لِعُمَّالِ ٱلْـمَطْبَخِ .

وَمَضَتْ تِسْعَةُ أَشْهُرٍ . وَوَضَعَتْ « زُبَيْدَة » طِفْلاً كَأَنَّهُ ٱلْقَمَرُ مُدَوَّرَ ٱلْوَجْهِ ، بَشَرَتُهُ بَيْضَاءُ نَاصِعَةٌ لاَ يُشْبِهُ لاَ أُمَّهُ وَلاَ أَبَاهُ . وَسَمَّـاهُ « عَادِل » « النَّاصِـر » وَلَـمْ يُمَانِعْ « الطَّاهِر » وَلَكِنَّهُ تَيَقَّنَ فِي قَرَارَةِ نَفْسِهِ أَنَّهُ لَيْسَ إبْنَهُ .

وَلَـمَّا مَرَّتْ أَرْبَعُونَ يَوْمًا عَلَى وِلاَدَةِ « النَّاصِرِ » وَاسْتَعَادَتْ « زُبَيْدَة » قُوَاهَـا جَاءَهَا « الطَّاهِر » وَقَالَ لَهَا :

- بَعْدَ أُسْبُوعٍ نُفَارِقُ هَذَا ٱلْقَصْـرَ... فَلْتَجْمَعِي كُلَّ أَثَاثِكِ . وَأَنْتِ بَيْنَ حَلَّيْنِ إثْنَيْنِ : إمَّا أَنْ تَتْبَعِينِي حَيْثُمَا أَذْهَبُ أَوْ أَنْ تَبْقَـيْ فِي هَذَا ٱلْقَصْـرِ وَلَنْ تَفْرَحِـي بِرُؤْيَتِي أَبَدًا .

- لِـمَاذَا ... ؟ مَا هَذَا ٱلْقَرَارُ ... ؟ وَسِيدِي مُصْطَفَى عَلَى عِلْمٍ !

ـ « سيدك مُصْطَفَى » عَلىَ عِلْمٍ وَهُوَ الَّذِي أعَانَنِي عَلىَ التَّحْصِيلِ عَلىَ وَظِيفٍ فِي إِدَارَةِ ٱلْمَالِيَّةِ وَاكْتَرَيْتُ « عُلُوًا » قُرْبَ حَيِّ نَهْجِ ٱلْبَاشَا .

وَأُسْقِطَ فِي يَدَيْ « زُبَيْدَة » وَلَمْ يَسَعْهَا إِلاَّ أَنْ تَمْتَثِلَ وَنَزَلَ ٱلْخَبَرُ عَلىَ أَهْلِ ٱلْقَصْرِ كَالصَّاعِقَةِ وَظَهَرَ « الطَّاهِر » ذَاكَ ٱلْمُتغَطْرِسَ الطَّاغِيَةَ الَّذِي لاَ يَقْدِرُ أَحَدُ عَلىَ الاقْتِرَابِ مِنْهُ لاَ « عَادِل » وَلاَ أيٌّ سَاكِنٍ مِنْ سُكَّانِ ٱلْقَصْرِ إِلاَّ « الْفَرِيك مُصْطَفَى » فَقَدْ بَقِيَ يَتَوَدَّدُ إِلَيْهِ، وَيَرْتَجِي أَنْ يَعُودَ لَهُ « الطَّاهِر » وَ« زُبَيْدَة » بَعْدَ أَشْهُرٍ مُعْتَقِدًا أَنَّهَا نَزْوَةُ شَبَابٍ ، وَطَيْشُ رَجُلٍ لَمْ تُؤَدِّبْهُ ٱلْحَيَاةُ فَهُوَ عِنْدَمَا سَيَفْطَنُ إِلىَ ضِيقِ ذَاتِ يَدِهِ وَيُقَارِنُ بَيْنَ حَيَاتِهِ ٱلْحَاضِرَةِ وَٱلْمَاضِيَةِ يَعُودُ إِلَيْهِ رُشْدُهُ .

وَوَدَّعَ أَهْلُ ٱلْقَصْرِ عَائِلَةَ « الطَّاهِر » وَهُمْ يَبْكُونَ ، وَشَيَّعُوهُمْ وَقَدْ رَحَلُوا بِمَتَاعٍ فَاخِرٍ وَتُحَفٍ لاَ تُعَدُّ وَلاَ تُحْصَى .

وَرَتَّبَ « الطَّاهِر » أَثَاثَهُ فِي « الْعُلُو » وَبَاتَ لَيْلَتَهُ وَكَأَنَّهُ أُنْقِذَ مِنْ جُبٍّ مُظْلِمٍ كَانَ فِيهِ . وَانْتَهَتْ بِالنِّسْبَةِ إِلىَ ٱلْعَائِلَةِ حَيَاةٌ وَبَدَأَتْ حَيَاةٌ أُخْرَى ، أُغْلِقَ فِيهَا « بَابُ ٱلْعَرْشِ » بِدُونِ رَجْعَةٍ ، وَتَوَارَى عَنْ أَنْظَارِهِمْ بَابُ « ٱلْخُضْرَة » الَّذِي رَجَعَ يُفْتَحُ « لِعَادِل » كُلَّ صَبَاحٍ .

* * *

وَتَغَيَّرَ مَجْرَى حَيَاةِ ٱلْعَائِلَةِ رَأْسًا عَلىَ عَقِبٍ : فَأَصْبَحَتْ السُّكْنَى تَقْتَصِرُ عَلىَ غُرْفَتَيْنِ يَفْصِلُهُمَا عَنِ ٱلْمَطْبَخِ مَمَرٌّ يُفْضِي إِلىَ مَدْرَجٍ طَوِيلٍ مُلْتَوٍ ضَيِّقٍ لاَ تَكَادُ قَدَمُ النَّازِلِ أَوِ الصَّاعِدِ تَظْفَرُ بِمَسَاحَةٍ تَتَشَبَّثُ بِهَا ، خَوْفَ السُّقُوطِ إِلاَّ بِجُهْدٍ جَهِيدٍ . نَعَمْ الدُّرْبَةُ وَٱلْعَادَةُ تَتَكَفَّلاَنِ بِحِذْقِ الصُّعُودِ وَالنُّزُولِ ، وَالْيَدَانِ تُسَاعِدَانِ عَلىَ حِفْظِ التَّوَازُنِ بِلَمَسَاتٍ رَفِيقَةٍ عَلىَ جِدَارِ ٱلْيَمِينِ وَجِدَارِ الْيَسَارِ .

وَيَظْهَرُ أَنَّ هَذَا الطَّابِقَ الأَوَّلَ هُوَ جُزْءٌ مِنْ قَصْرٍ صَغِيرٍ كَانَ لأَحَدِ الأَعْيَانِ فِي ٱلْعَاصِمَةِ ، قُسِّمَ إِلىَ مَنَازِلَ كَثِيرَةٍ لِلْكِرَاءِ ، وَلَمْ يَبْقَ وَاضِحًا مِنْهُ إِلاَّ الاصْطَبْلُ الَّذِي

يَأْوِي « الْكَرَارِط » وَالطَّابِقُ الأَوَّلَ الَّذِي مِنْهُ « الْعُلُوّ » اَلْـمُكْتَرَى مِنَ « الطَّاهِر » وَمَقْعَدُ أَصْبَحَ دُكَّانًا لِبَيْعِ الْخُبْزِ وَالتَّوَابِلِ . أَمَّا اَلْـمَنَازِلُ الَّتِي تُشْرِفُ عَلَى الشَّارِعِ الآخَرِ فَهِيَ غَيْرُ وَاضِحَةٍ . كُلُّ هَذَا لاَ يُـمْـكِنُ فَهْمُـهُ إِلاَّ عِنْـدَ تَبَـيُّنِ التَّدَهْـوُرِ الاقْتِصَادِي الَّذِي أَصَابَ بَعْضَ اَلْعَائِلاَتِ التُّونِسِيَّةِ وَجَعَلَهَا تَجْرِي وَرَاءَ مَعْلُـومِ الْكِرَاءِ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ تَنْعَمُ فِي اَلْخَيْرَاتِ .

وَلَكِنَّ هَذَا لَيْسَ شَأْنَنَا ، وَلْنَـكْتَفِ بِمُتَابَعَـةِ « الطَّاهِر » فِي شَقِّـهِ لِلْحَيَاةِ هُوَ وَعَائِلَتِهِ ، وَلْنَصْعَدْ مِنْ اَلْـمَمَرِّ دَرَجَاتٍ أُخْرَى ، ثَلاَثًا أَوْ أَرْبَعًا لِنَجِدَ سِوَى غُرْفَةٍ لَعَلَّهَا كَانَتْ مُعَدَّةً لِلْخَادِمِ وَلَكِنَّهَا تَحَوَّلَتْ إِلَى مَطْبَخٍ وَبَيْتِ رَاحَةٍ . هِيَ صَغِيرَةٌ جِدًّا ، يُقَابِلُ اَلْمَدْرَجَ مِنْهَا بَابٌ يُفْضِي إِلَى فِنَاءٍ سَمَّوْهُ « السَّطَحْ » وَاَلْبَابُ « بَابْ السَّطَحْ » وَمِنْ هَذَا السَّطْحِ ، يُـمْكِنُ أَنْ يُطِلَّ اَلْمَرْءُ عَلَى سَقْفِ الاصْطَبْلِ وَعَلَى الطَّابَقِ الأَوَّلِ مِنَ اَلْـمَجْمُوعَةِ السَّكَنِيَّةِ . وَلَيْسَ لِلْعَائِلَةِ مُتَنَفَّسٌ إِلاَّ السَّطْحَ أَوْ النَّافِذَتَيْنِ اَلْـمُطِلَّتَيْنِ عَلَى الشَّارِعِ وَاللَّتَيْنِ يَجِبُ أَنْ تَبْقَيَا مُغْلَقَتَيْنِ خَوْفًا مِنَ اَلْعُيُونِ اَلْـمُصَوَّبَةِ نَظَرَاتُهَا مِنَ اَلْمَنَازِلِ اَلْـمُقَابِلَةِ أَوْ حَتَّى الـمَارَّةِ فِي الشَّارِعِ .

لَمْ يَكُنْ « لِزُبَيْدَة » مِنْ مُتَنَفَّسٍ إِلاَّ السَّطْحُ وَالنَّافِذَةُ اَلْـمَوْجُودَةُ فِيهِ ، اَلْـمُطِلَّةُ عَلَى الشَّارِعِ مِنْ دُونِ خِشْيَةِ اَلْعُيُونِ الطُّفَيْلِيَّةِ .

أَحَسَّتْ « زُبَيْدَة » بِالضِّيقِ حِسًّا وَمَعْنًى ، وَلَمْ تَتَمَكَّنْ مِنْ تَرْتِيبِ كُلِّ مَا لَدَيْهَا مِنْ أَثَاثٍ فَاقْتَرَحَ عَلَيْهَا « الطَّاهِر » بَيْعَ هَذِهِ التُّحَفِ وَالرُّسُومِ الَّتِي لاَ مَعْنَى لَهَا فِي بَيْتٍ مِثْلِ هَذَا . وَلَيْسَ « لِزُبَيْدَة » فِي اَلْوَاقِعِ أَنْ تَقُولَ لاَ . لأَنَّ ضِيقَ اَلْيَدِ أَيْضًا فَرَضَ عَلَيْهَا أَنْ تَنْحَنِيَ لِمَشِيئَةِ « الطَّاهِر » الَّذِي أَصْبَحَ لاَ يَرْدَعُـهُ رَادِعٌ إِلاَّ هَذَا التَّقْدِيرُ أَوْ لَيْسَ يَدْرِي مَا الَّذِي يَشُدُّهُ إِلَى هَذِهِ اَلْـمَرْأَةِ .

وَسَارَتِ الأَيَّامُ الأُولَى اَلْـمَلِيئَةُ بِالشُّغْلِ اَلْـمَنْزِلِيِّ ، خَفِيفَةَ اَلْوَطْءِ خَاصَّـةً أَنَّ « الْفَرِيك مُطْصَفَى » كَانَ مِنْ حِينٍ إِلَى آخَرَ يَزُورُ « زُبَيْدَة » وَكَانَ يَتَحَاشَى دَائِماً أَنْ

يَلْتَقِيَ « بِالطَّاهِرِ » فَيَمُدُّ يَدَ الاعَانَةِ إِلىَ هَذِهِ ٱلْعَائِلَةِ الَّتِي بَدَأَتْ تَشْعُرُ بِشَيءٍ مِنَ الضِّيقِ بَعْدَ السَّعَةِ الَّتِي عَرَفَتْهَا سَابِقًا .

أَرَادَتْ « زُبَيْدَة » أَنْ تَعْرِفَ لِمَاذَا تَسَاهَلَ « الْفَرِيك مُصْطَفَى » وَتَرَكَهَا تَخْرُجُ مِنَ ٱلْقَصرِ بِسُهُولَةٍ ، وَهِيَ النُّقْطَةُ ٱلْغَامِضَةُ وَالسِّرُّ ٱلْـمُغْلَقُ ٱلْبَاقِيَانِ فِي صَدْرِهَا . وَكَانَتْ تَسْتَقْبِلُ « الْفَرِيك » فِي كُلِّ مَرَّةٍ بِالدُّمُوعِ ٱلْـمُتَرَقْرِقَةِ ثُمَّ ٱلْبُكَاءِ ثُمَّ النَّشِيجِ . وَتَجَرَّأَتْ مَرَّةً وَقَالَتْ لَهُ :

ـ يَا سَيِّدِي كَيْفَ تَرَكْتَنِي أَخْرُجُ مِنْ بَيْتِكَ إِلىَ هَذَا السِّجْنِ ٱلَّذِي لاَ تَجِدُ فِيهِ « عَائِشَة » فُسْحَةً لِلَّعَبِ وَالتَّرْوِيحِ .

ـ يَا بُنَيَّتِي « زُبَيْدَة » سَأَلَنِي « الطَّاهِر » يَوْمًا عَنْ سَبَبِ تَوَانِـي ٱلْبَـايِ فِي الدِّفَاعِ عَنْ مَصَالِحِ الشَّعْبِ فَأَجَبْتُهُ بِأَنَّنِي لاَ أَدْرِي فَقَالَ : كَيْفَ لاَ تَدْرِي وَأَنْتَ « فَرِيك » تَدْخُلُ قَصرَ ٱلْبَايِ مَتَى تَشَاءُ وَتُحَادِثُهُ مَتَى تَشَاءُ ؟ لِمَاذَا لاَ تُحَدِّثُهُ بِآلاَمِ هَذَا الشَّعْبِ وَٱلْفَسَادِ ٱلْـمُتَفَشِّي فِي الادَارَةِ مِنْ رَشْوَةٍ ، وَمَحْسُوبِيَّةٍ ، وَتَفْقِيرٍ لِلطَّبَقَاتِ ٱلْـمُوسِرَةِ ، وَإِسْتِغْلاَلٍ لِلْفِئَاتِ الضَّعِيفَةِ ؟ قُلْتُ لَهُ حِينَ ذَاكَ : ٱلْبَايُ لاَ يَصِلُهُ إِلاَّ ٱلْقَلِيلُ مِماَّ يَقَعُ ، فَلَهُ وُزَرَاءُ وَنِظَامُ ٱلْحِمَايَةِ يَكْفِيهِ مَؤُونَةَ النَّظَرِ فِي شُؤُونِ رَعِيَّتِهِ ، وَهُوَ لاَ يَهْتَمُّ هُوَ وَأَبْنَاؤُهُ إِلاَّ بِمَا يُيَسِّرُ عَلَيْهِ ٱلْحَيَاةَ ، وَنَحْنُ لاَ يُمْكِنُ لَنَا أَنْ نُبَاشِرَهُ فِي هَذِهِ ٱلْمَوَاضِيعِ ، خِيفَةَ إِبْعَادِنَا وَالتَّعَلُّلِ عَلَيْنَا . وَيَكْفِينَا مَا نُقَاسِيهِ مِنَ الْوِشَايَاتِ ، وَالأَحَابِيلِ ، وَٱلْـمَكَائِدِ ٱلْـمُحَاكَةِ فِي الظَّلاَمِ وَٱلْـمُهَدِّدَةِ لِحَيَاتِنَا وَمَعِيشَةِ أَهْلِنَا . هَذَا هُوَ ٱلْوَاقِعُ يَا « طَاهِر » وَلاَ تَبْحَثْ عَنْ شَيْءٍ آخَرَ ، وَأَنَا فِي خَرِيفِ ٱلْعُمُرِ . أَتُرِيدُ أَنْ تُوضَعَ هَذِهِ اللِّحْيَةُ فِي التُّرَابِ ؟ فَصَاحَ قَائِلاً : هَذِهِ حَيَاةُ ٱلْعَبِيدِ وَٱلْخُنُوعِينَ ، حَيَاةُ ٱلْعَبِيدِ ٱلْـمُرَكَّبَةُ : ٱلْبَايَاتُ عَبِيدُ ٱلْفِرَنْسِيِّينَ وَأَنْتُمْ عَبِيدُ ٱلْبَايَاتِ . أَنْتُمْ عَبِيدُ ٱلْعَبِيدِ . يَا لَهَا مِنْ حَيَاةِ الذُّلِّ وَٱلْـمَسْكَنَةِ ! أَتُرِيدُ مِنِّي أَنْ أَبْقَى مُرْتَبِطًا بِرَجُلٍ يَعِيشُ فِي كَابُوسٍ مِنْ أَجْلِ ٱلْفَخْفَخَةِ وَالنَّيَاشِينِ ؟ أَنَا لاَ أُرِيدُ أَنْ أَحْيَا حَيَاةَ ٱلْعَبِيدِ وَلاَ

أَتْرُكُ أَبْنَائِي يَعِيشُونَ بَعِيدًا عَنْ طَبَقَتِي وَبَعِيدًا عَنْ كَافَّةِ الشَّعْبِ . إِنِّي صَمَّمْتُ أَنْ أُغَادِرَ قَصْرَكَ مَهْمَا كَانَتِ التَّكَالِيفُ وَيَجِبُ أَنْ تُعِينَنِي عَلَى ذَلِكَ وَإِلاَّ أَحْدَثْتُ أَمْرًا سَتَتَحَدَّثُ بِهِ الأَجْيَالُ فِي ٱلْمُسْتَقْبَلِ . وَلَمْ يَكُنْ لِي إِلاَّ أَنْ بَحَثْتُ لَهُ عَنْ هَذَا ٱلْوَظِيفِ وَلِي أَمَلُ أَنْ يَجِدَ فِي حَيَاتِهِ هَذِهِ بَعْضَ الضِّيقِ فَيَرْجِعَ إِلَيَّ .

ـ أَتَأَمَّلُ فِي ذَلِكَ يَا سَيِّدِي ؟ وَأَنَا إِذْ عَلِمْتُ ٱلْحَقِيقَةَ فَلاَ مَفَرَّ لِي مِنَ الأَذْعَانِ إِلَيْهِ . وَاعْتَبِرْ مِنَ الآنَ فَصَاعِدًا « زُبَيْدَة » تِلْكَ الَّتِي مَلأَتْ حَيَاتَكَ فَرَحًا ، وَغِبْطَةً ، وَعَاشَتْ فِي كَنَفِ ٱلْغَفْلَةِ قَدْ مَاتَتْ ، وَأَنَّهَا لَنْ تَعْرِفَ مِنَ ٱلْيَوْمِ مَلْجَأً لَـهَا إِلاَّ ٱلْبُكَاءَ ، ٱلْبُكَاءَ عَلَى نَفْسِي وَعَلَيْكُمْ يَا سَيِّدِي ذَهَبَتْ الأَيَّامُ ٱلْحُلْوَةُ وَرَاحَتْ أَيَّامُ ٱلْعِزِّ .

وَأَجْهَشَتْ بِالْبُكَاءِ ، وَلَمْ يُنْقِذْهَا مِنْ غَيْبُوبَتِهَا إِلاَّ صِيَاحُ « عَائِشَة » الَّتِي تَدَحْرَجَتْ مِنَ ٱلْـمَدْرَجِ . فَهَرَعَا إِلَيْهَا ، وَكَفْكَفَا مِنْ دُمُوعِهَا وَوَعَدَ ٱلْفَرِيك « عَائِشَة » بِأَنْ يُرْسِلَ إِلَيْهَا « دُوجَة » لِتُؤْنِسَهَا فِي وِحْشَتِهَا .

وَخَرَجَ ٱلْفَرِيك دَامِعَ ٱلْعَيْنَيْنِ ، وَرَكِبَ عَرَبَتَهُ تَحْتَ أَنْظَارِ ٱلْجَالِسِينَ فِي ٱلْـمَقْهَى ٱلْـمُقَابِلِ وَالْـمَارَّةِ ٱلْمُتَأَمِّلِينَ فِي هِنْدَامِهِ الأَنِيقِ ٱلْـمُغَايِرِ لِلْـمَأْلُوفِ فِي هَذَا ٱلْحَيِّ الشَّعْبِيِّ . وَشَيَّعَتْهُ « زُبَيْدَة » مِنْ وَرَاءَ الشُّرْفَةِ وَعَيْنُهَا دَامِعَةٌ وَقَلْبُهَا يَتَقَاطَرُ دَمًا ، وَالضَّجِيجُ يَمْلأُ الشَّارِعَ وَيَغْمُرُ دِمَاغَهَا النَّاشِفَ .

* * *

مَضَتْ سِنُونَ عَدِيدَةٌ وَعَائِلَةُ « الطَّاهِر » تَسْكُنُ ذَلِكَ ٱلْبَيْتَ . فَالْعَائِلَةُ دَخَلَتِ ٱلْـمَنْزِلَ وَهْيَ تَضُمُّ بِنْتًا وَوَلَدًا وَإِذَا بِهَا أَصْبَحَتْ تَجْمَعُ سِتَّةَ أَطْفَالٍ مِنْهُمْ مَنْ يَسْكُنُ غُرْفَةَ وَالِدِهِ فِي رُكْنٍ مُظْلِمٍ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَرْقُدُ فِي ٱلْغُرْفَةِ الثَّانِيَةِ فِي فِرَاشٍ قُرْبَ مَائِدَةِ الأَكْلِ . وَ « دُوجَة » فِي إِقَامَتِهَا يُوَسَّعُ لَـهَا مَكَانٌ بَيْنَ ٱلْكَرَاسِيِّ وَقُرْبَ ٱلْخِزَانَةِ وَتَفْرِشُ فِرَاشَهَا عَلَى الأَرْضِ .

لَمْ يَبْقَ مِنَ الأَثَاثِ ٱلْفَاخِرِ إِلاَّ ٱلْقَلِيلُ إِذْ كَانَ يَذْهَبُ عَلَى النَّسَقِ الَّذِي تَنْهَمِرُ بِهِ دُمُوعُ « زُبَيْدَة » فَهْيَ إِذَا هَزَّهَا الشَّوْقُ إِلَى قَصْرِ « الْفَرِيك » وَبَكَتْ بُكَاءً أَقْلَقَ

« الطَّاهِر » دَفَعَهَا دَفْعًا إِلَىَ زِيَارَةِ أَهْلِ « سِيدِي مُصْطَفَى » فَتَبْقَى ثَلاَثَةَ أَوْ أَرْبَعَةَ أَيَّامٍ يَخْتَارُ فِيهَا « الطَّاهِر » مِنَ الأَثَاثِ مَا يُمَكِّنُهُ مِنْ إِرْضَاءِ شَهَوَاتِهِ . وَشَهَوَاتُهُ أَصْبَحَتْ لاَ تُحْصَى وَلاَ تُعَدّ : مَلاَهِيَ وَمَجَالِسَ أُنْسٍ وَمَسْرَحًا وَسِينَمَا وَمُعَاشَرَةً لأَهْلِ الذَّوْقِ وَالْفَنِّ مِنْ أَصْحَابِ « خَالْ عَلِي » . وَأَكْثَرُ مِنْ هَذَا فَهُوَ يُلْقِي بِالرُّسُومِ الْمُسَجَّلَةِ لِحَيَاةِ أَهْلِ الْقَصْرِ فِي الْقَصْعَةِ الْمَمْلُوءَةِ مَاءً وَتَنْحَلُّ الأَصْبَاغُ كَمَا يَشْتَهِي « الطَّاهِر » أَنْ تَنْحَلَّ أَجْسَامُ الأَشْخَاصِ الْمُزَيَّنَةَ بِهَا فَيَرْتَاحُ إِلَى فِعْلِهِ وَيَشْفِي حِقْدَهُ فَيُرْضِي عَاطِفَةَ الشَّمَاتَةِ إِرْضَاءً غَرِيبًا .

وَكُلَّمَا رَجَعَتْ « زُبَيْدَة » إِلَى بَيْتِهَا ، أَحَسَّتْ بِأَنَّهَا دَفَعَتْ ثَمَنَ شَوْقِهَا غَالِيًا . وَلَكِنْ لاَ مَفَرَّ لَهَا مِنْ ذَلِكَ . فَخَيْطُ حَيَاتِهَا مُرْتَبِطٌ بِسِيدِي مُصْطَفَى وَعَائِلَتِهِ حَتَّى جَاءَهَا يَوْمًا نَعْيُهُ فَخَرَجَتْ كَالْمَيِّتَةِ فِي « كَرُّوسَة » وَمَشَتْ مُفْتَرِشَةً دُمُوعَهَا فِي رَدْهَاتِ الْقَصْرِ وَدَخَلَتْ الْغُرْفَةَ الْمُسَجَّى فِيهَا . وَفَهِمَتْ مَعْنَى الصَّمْتِ الَّذِي يُخَيِّمُ عَلَى الْجَالِسَاتِ وَالْجَالِسِينَ فَلَمْ تَرْفَعْ صَوْتَهَا وَلَمْ تَقْدِرْ عَلَى الْبُكَاءِ وَسَقَطَتْ أَرْضًا وَأَسْعَفَتْهَا الْحَاضِرَاتُ .

وَكَانَ « عَادِل » فِي غَيْبُوبَتِهِ الْمَعْرُوفَةِ ، وَفِي لاَمُبَالاَتِهِ الْمَعْهُودَةِ يَنْظُرُ إِلَى وَالِدِهِ الْمُسَجَّى ، وَهُوَ يَشْعُرُ بِأَنَّ عَالَمًا قَدْ رَحَلَ بِدُونِ رَجْعَةٍ ، وَأَنَّ خُيُوطَ الْعَنْكَبُوتِ الَّتِي كَانَتْ تَجْمَعُ أَفْرَادَ الْعَائِلَةِ وَكُلَّ سَاكِنِي الْقَصْرِ قَدْ تَقَطَّعَتْ بِيَدِ الْقَدَرِ ، فَهُمْ إِلَى الْفُرْقَةِ وَالضَّيَاعِ وَالتَّلاَشِي .

وَكَانَتْ « زُبَيْدَة » عِنْدَمَا أَفَاقَتْ تَنْظُرُ إِلَى « عَادِل » وَكَأَنَّهُ خَرَجَ مِنَ الْقَبْرِ وَتَشْعُرُ أَنْ لاَ مَلْجَأَ لَهَا بَعْدَ الْيَوْمِ إِلاَّ دَفْنُ نَفْسِهَا فِي أَحْزَانِهَا ، لأَنَّهَا أَحَسَّتْ أَنَّ الدُّمُوعَ فِي عَيْنَيْهَا قَدْ جَمَدَتْ ، وَنُورَ بَصَرِهَا قَدْ خَبَا ، فَهِيَ كَالشَّمْعَةِ الذَّابِلَةِ لَيْسَ لَهَا إِلاَّ أَنْ تَنْتَظِرَ مَصَائِبَ الدَّهْرِ وَأَرْزَاءَهُ .

وَلَمْ تَفُتْ أَرْبَعِينِيَّةُ الْفَرِيك حَتَّى بَدَأَتْ يَدُ الدَّهْرِ تَعْبَثُ بِالْقَصْرِ بَلْ بِالأَحْرَى يَد

« عَادِل » تَجُولُ فِي الضِّيَاعِ وَالأَمْلاَكِ . فَقَسَّمَ ٱلْقَصْرَ مَنَازِلَ وَاكْتَرَاهَا ثُمَّ بَاعَهَا إِلىَ أَحَدِ ٱلْفِرَنْسِيِّينَ وَٱنْقَطَعَتْ أَخْبَارُهُ عَنْهَا .

وَتَنَمَّرَ « الطَّاهِر » عِنْدَ ذَلِكَ وَأَصْبَحَ يَعْتَبِرُ « زُبَيْدَة » مُجَرَّدَ خَادِمَةٍ لاَ يُكَلِّمُهَا إِلاَّ فِي ٱلْقَلِيلِ النَّادِرِ وَلَيْسَ لَهُ فِي ٱلْبَيْتِ مَنْ يُحَدِّثُهُ وَيَنْبَسِطُ مَعَهُ إِلاَّ « عَائِشَة » .

فَعَائِشَةُ تَذْهَبُ مَعَهُ إِلىَ السِّينِمَا وَٱلْمَسْرَحِ وَتَخْرُجُ صُحْبَتَهُ وَهْيَ « بِلَحْفَتِهَا ٱلْمِصْرِيَّةِ » السَّوْدَاءِ وَ « خَامَتِهَا » حِجَابِهَا إِلىَ شَوَارِعِ ٱلْعَاصِمَةِ وَتَتَفَسَّحُ مَعَهُ فِي ٱلْمُتَنَزَّهَاتِ ، وَيُقَدِّمُهَا إِلىَ أَصْدِقَائِهِ إِعْجَابًا بِهَا وَبِذَكَائِهَا .

أَمَّا النَّاصِرِ فَهْوَ « قَطُّوسَةُ الرَّمَادِ » بِالْمَنْزِلِ . « فَالطَّاهِر » لاَ يُخَاطِبُهُ إِلاَّ بِالْكَلِمَةِ النَّابِيَةِ ، أَوِ الضَّرْبَةِ ٱلْعَابِرَةِ ، وَحَذَارِ إِذَا هُوَ أَخْطَأَ خَطَأً أَوْ لَمْ يَقُمْ بِمَا أُمِرَ بِهِ فَالْعَصَا تَأْكُلُ أَجْنَابَهُ أَكْلاً وَالسَّبُّ وَالشَّتْمُ نَصِيبُهُ . فَكَأَنَّ إِكْرَامَ « الطَّاهِر » « لِعَائِشَة » هُوَ نَوْعٌ مِنَ الانْتِقَامِ مِنَ « النَّاصِرِ » وَحَتَّى إِرْسَالُهُ إِلىَ ٱلْمَدْرَسَةِ ، مَدْرَسَةِ ٱلْحَلْفَاوِينِ ٱلْبَعِيدَةِ عَنِ ٱلْحَيِّ لاَ الْفَرْعِ الصَّادِقِيِّ هُوَ ضَرْبٌ مِنْ ضُرُوبِ التَّنْكِيلِ بِهِ ، وَتَعْرِيضِهِ إِلىَ مُغْرَيَاتِ الشَّارِعِ وَالتَّسَكُّعِ فِي مُنْعَرَجَاتِ الأَحْيَاءِ . أَمَّا « عَائِشَة » فَهْيَ ٱلْمُدَلَّلَةُ ، ٱلْمُحَجَّبَةُ ، ٱلْمَسْتُورَةُ ، ٱلْمَمْنُوعَةُ حَتَّى عَنْ عَنَاءِ ٱلْعِلْمِ وَالتَّعْلِيمِ .

وَإِذَا كَانَ « لِلطَّاهِر » جَوْلاَتٌ فِي مَدِينَةِ تُونِسَ الَّتِي أَصْبَحَ يَرُودُ ٱلْكَثِيرَ مِنْ نَوَادِيهَا وَمَقَاهِيهَا ، وَمَلاَهِيهَا ، فَإِنَّ ٱلْعَائِلَةَ لَيْسَ لَهَا إِلاَّ « بَابُ السَّطْح » تُنَفِّسُ بِفَتْحِهِ عَنِ الضِّيقِ ٱلْمُحِيطِ بِهَا .

مِنْ « بَاب السَّطْح » تَخْرُجُ « عَائِشَة » وَتَنْتَصِبُ وَرَاءَ النَّافِذَةِ ٱلْمَسْتُورَةِ ، فَيَسْرَحُ نَظَرُهَا فِي ٱلْجَالِسِينَ بِالْمَقْهَى ٱلْمُقَابِلِ عَلىَ حَافَةِ طِوَارٍ لاَ يَفُوتُ عَرْضُهُ ٱلْمِتْرَيْنِ . فَتَنْظُرُ إِلىَ أَشْخَاصٍ لاَ حَرَاكَ بِهِمْ ، تُوضَعُ أَمَامَهُمْ إِمَّا كُؤُوسُ الشَّايِ أَوِ ٱلْقَهْوَةِ . فَيَبْقَوْنَ السَّاعَاتِ يَنْظُرُونَ إِلىَ الرَّائِحِ وَٱلْغَادِي ، وَيَتَرَشَّفُونَ مَا فِي

ٱلْكُؤُوسِ بِبُطْءٍ شَدِيدٍ ، ثُمَّ يَنْصرِفُونَ لِيَجْلِسَ آخَرُونَ ، وَالنَّادِلُ يَقِفُ أَمَامَهُمْ ، وَيَمْسَحُ مَرَّةً الطَّاوِلَةَ وَمَرَّةً يَأْخُذُ ٱلْكَأْسَ كَأَنَّهُ يَخْطِفُهُ خَطْفًا عِنْدَمَا يَشْعُرُ بِأَنَّ ٱلْحَرِيفَ قَدْ شرِبَهُ حَتَّى الثُّمَالَةِ ، وَمَرَّةً أُخْرَى يَنْظُرُ شَزْرًا إِلَى صَاحِبِهِ ٱلْمُتَثَاقِلِ فِي الذَّهَابِ أَوِ ٱلْـمُنْسِكِ بِصَدِيقٍ لَهُ وَاقِفٍ أَمَامَهُ فَلاَ هُوَ يَدْعُوهُ إِلَى ٱلْجُلُوسِ وَلاَ هُوَ يَصرِفُهُ عَنْهُ .

كُلُّ نَـمَاذِجِ ٱلْبِطَالَةِ مَنْشُورَةٌ أَمَامَ ٱلْـمَقْهَى وَخَاصَّةً فِي الصَّبَاحِ . أَمَّا دَاخِلَ ٱلْـمَقْهَى فَلاَ تَلْمَحُ شَيْئًا لِكَثْرَةِ الدُّخَانِ ٱلْـمُتَصَاعِدِ وَلاَ تَسْمَعُ إِلاَّ ضَجِيجًا مُتَعَالِيًا ، يَتَخَلَّلُهُ صَوْتُ الرَّادِيُو فِي بَعْضِ الأَحْيَانِ .

وَحِذْوَ ٱلْمَقْهَى مَصْنَع صغِير لِصُنْعِ «الْقُوتَة» وَهُوَ نَوْع مِنَ ٱلْجُبْنِ الطَّرِيِّ وَكَانَ يَعْمَلُ بِالْـمَصْنَعِ رَجُلٌ أَبْكَمُ سُمِّيَ « ٱلْبَكُّوشْ » وَهُوَ مُرَابِطٌ لَيْلاً نَهَارًا لاَ يَبْرَحُ ٱلْـمَكَانَ ، لَهُ غُرْفَةٌ مُلاَصِقَةٌ لِلْمَصْنَعِ يَضَعُ أَمَامَهَا كُرْسِيًّا فَتَرَاهُ جَالِسًا يَوْمَهُ كُلَّهُ إِلاَّ قَلِيلاً . كُلُّ شُغْلِهِ فِي ٱلْهَزِيعِ الأَخِيرِ مِنَ اللَّيْلِ . وَأَهْلُ ٱلْحَيِّ يَفْهَمُونَهُ بِسُهُولَةٍ بِدُونِ أَنْ يَصْرَخَ وَإِذَا هُوَ صَرَخَ عَالِيًا فَذَاكَ إِنْذَارٌ بِخُرُوجِ « النَّاصر » مِنْ بَابِ ٱلْـمَنْزِلِ فَتَنْتَبِهُ أُمُّهُ « زُبَيْدَة » وَتُرْسِلُ إِلَيْهِ « عَائِشَة » لِتَمْنَعَهُ مِنَ ٱلْخُرُوجِ . فَكَأَنَّ « الْبَكُّوش » صَارَ أَجِيرًا « لِلطَّاهِر » يَقْتَصِرُ عَمَلُهُ فِي النَّهَارِ عَلَى حِرَاسَةِ ٱلْبَيْتِ وَمَعْرِفَةِ الدَّاخِلِ وَٱلْخَارِجِ . أَمَّا تُرْجُمَانُهُ فَهُوَ ٱلْعَمُّ « صُوَيْلِحْ » صَاحِبُ الدُّكَّانِ ٱلْـمُحَاذِي لِلْبَيْتِ ، فَهُوَ ٱلْـمُفْصِحُ عَنْ لِسَانِ « الْبَكُّوشِ » إِذَا عَجَزَ « الطَّاهِر » عَنْ فَهْمِ إِشَارَاتِ « أَجِيرِهِ » .

وَكُلُّ هَمِّ « الطَّاهِر » عِنْدَمَا يَدْخُلُ ٱلْبَيْتَ هُوَ تَصْفِيَةُ ٱلْحِسَابِ مَعَ « النَّاصر » وَ « زُبَيْدَة » هَذَا « النَّاصر » أَفْلَتَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَلَمْ يَرْجِعْ إِلاَّ بَعْدَ سَاعَةٍ وَرَآهُ « ٱلْبَكُّوش » يَلْعَبُ بِالْخُذْرُوفِ مَعَ أَصْحَابِهِ ثُمَّ أَخْفَاهُ فِي جَيْبِهِ . فَتَنْتَصِبُ مَحْكَمَةٌ لِمَعْرِفَةِ مَصْدَرِ ٱلْخُذْرُوفِ أَوَّلاً ثُمَّ يُصَرِّحُ بِالْحُكْمِ ثَانِيًا وَفِي كَثِيرٍ مِنَ الأَحْيَانِ يَكُونُ

« النّاصر » قَدْ أَوْلَجَ يَدَهُ فِي جَيْبِ أَبِيهِ وَهُوَ غَارِقٌ فِي قَيْلُولَتِهِ أَوْ تَحَيَّلَ عَلَى أُمِّهِ فِي شِرَائِهِ لِبَعْضِ ٱلْمَوَادِ. وَتَكُونُ ٱلْكَارِثَةُ فِي ٱلْبَيْتِ إِذْ يُطْرَحُ « النَّاصِرِ » أَرْضًا وَيَنْهَالُ عَلَيْهِ أَبُوهُ ضَرْبًا بِحِزَامٍ مِنَ ٱلْجِلْدِ بِطَرْفِهِ صَفِيحَةٌ ثُمَّ يَطَؤُهُ بِأَقْدَامِهِ وَيَجِبُ عَلَى « النَّاصِرِ » أَلاَّ يَصِيحَ وَلاَ يَصْرُخَ إِذْ كُلَّمَا صَاحَ وَصَرَخَ إِلاَّ وَأَهْوَى عَلَيْهِ « الطَّاهِرِ » بِمَا هُوَ أَدْهَى وَأَمَرُّ وَلاَ يَفُكُّهُ مِنْهُ أَيُّ إِنْسَانٍ لاَ أُمُّهُ وَلاَ زَوْجَتُهُ فَإِذَا سَكَتَ « النَّاصِر » فَذَاكَ نِهَايَةُ الْفَرَجِ لِلْعَائِلَةِ وَٱلْبُغْيَةُ لِلنَّاصِرِ.

وَلاَ يَظُنَّنَّ أَحَدٌ أَنَّ قِسْمَةَ «النَّاصِرِ» مِنْ أَبِيهِ أَحْدَثَتْ فِي بَدَنِهِ عَاهَةً، أَو صَدَّتْهُ عَنِ الْمُخَالَفَاتِ فَكَأَنَّهُ خُلِقَ مِنْ أَجْلِ هَذَا وَأَصْبَحَ فِي حَصَانَةٍ لاَ تُؤَثِّرُ فِيهِ لاَ الضَّرَبَاتُ وَلاَ ٱلْكَاسِحَاتُ. فَيَقُومُ مِنْ حِصَّتِهِ الأُسْبُوعِيَّةِ وَكَأَنَّهُ سَلِيمٌ مُعَافًى، وَكَأَنَّهَا تَزِيدُهُ مَنَاعَةً مِنْ كَوَارِثِ أَبِيهِ. أَمَّا إِخْوَتُهُ وَأُمُّهُ فَإِنَّ أَقْصَى مَا يُصَابُونَ بِهِ هُوَ تِلْكَ ٱلْهَيْعَةُ ٱلْعَظِيمَةُ ٱلْمُصَاحِبَةُ لِتَنْفِيذِ ٱلْحُكْمِ فَيَخْتَلِطُ صُرَاخُ « النَّاصِر » بِتَهْدِيدِ « الطَّاهِر » :

ـ أُسْكُتْ ... أُسْكُتْ ... يَا كَلْبْ ... يَا وِلْدْ ... وَاللّهِ لأَقْتُلَنَّكَ ... وَلأُطْفِيَنَّ لَكَ رُوحَكَ ...

وَلَكِنَّ «النَّاصِر» لَمْ يَمُتْ وَلَوْ تَدَخَّلَتْ أُمُّهُ وَصَكَّهَا « الطَّاهِر » صَكَّةً هَوَتْ بِهَا عَلَى الأَرْضِ أَمَّا الاخْوَةُ فَإِنَّهُمْ وَرَاءَ الأَبْوَابِ أَوْ تَحْتَ ٱلْمَائِدَةِ كَالفِئْرَانِ ٱلْمُتَرَبِّصِ بِهِمْ قِطٌّ : قُلُوبُهُمْ تَدُقُّ وَأَبْصَارُهُمْ خَاسِئَةٌ يَنْتَظِرُونَ سُقُوطَ ٱلْكَارِثَةِ.

ثُمَّ يَهْدَأُ كُلُّ شَيْءٍ وَيَلْبَسُ « الطَّاهِر » طَرْبُوشَهُ، وَيَخْرُجُ وَحْدَهُ، أَوْ يَأْمُرُ « عَائِشَةَ » بِمُصَاحَبَتِهِ، وَيَجِبُ أَنْ تَكُونَ مُتَهَيِّئَةً وَإِلاَّ خَرَجَ وَتَرَكَهَا. وَ« الطَّاهِر » قَرَّرَ مُنْذُ أَنْ تُوُفِّيَ « الْفَرِيك مُصْطَفَى » أَنْ يُطَلِّقَ اللِّبَاسَ الافْرَنْجِيَّ وَيَلْبَسَ الْجُبَّةَ التُّونِسِيَّةَ مَعَ ٱلْبِدْعِيَّةِ وَٱلْبُرْنُسِ وَالطَّرْبُوشِ ٱلْمَجِيدِيِّ.

وَتصفِيَةُ ٱلْحِسَابِ مَعَ « زُبَيْدَة » تَبْدَأُ دَائِماً بِتَذَمُّرِهَا مِنْ فَرَاغِ ٱلْبَيْتِ مِنَ اللَّوَازِمِ وَيَنْتَهِي بِتَسَاؤُلِهِ حَوْلَ الزَّائِرَاتِ اللَّوَاتِي تَأْتِينَ مِنْ حِينٍ إِلَى آخَرَ وَيُفْضِي كُلُّ ذَلِكَ إِلَى السَّبِّ وَالشَّتْمِ وَالتَّهْدِيدِ ثُمَّ ٱلْـمُقَاطَعَةِ ٱلْكَلاَمِيَّةِ عِدَّةَ أَيَّامٍ .

وَغَالِبًا مَا تَحْدُثُ هَذِهِ ٱلْـهَيْعَاتُ فِي ٱلْعَشِيَّةِ قَبْلَ ٱلْـمَغْرِبِ بِقَلِيلٍ فَيَتَيَقَّنُ أَهْلُ ٱلْبَيْتِ أَنَّ « الطَّاهِر » لَنْ يَعُودَ إِلاَّ بَعْدَ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ فَيَنْفَتِحُ عِنْدَ ذَلِكَ « بَابُ السَّطَحِ » وَتُطِلُّ « زُبَيْدَة » مِنْ فَوْقِ ٱلْجِدَارِ عَلَى جَارَتِهَا ، وَيَدُومُ ٱلْحَدِيثُ طَوِيلاً لاَ يَقْطَعُهُ إِلاَّ عِرَاكُ بَيْنَ الاخْوَةِ أَوْ دُخُولُ زَوْجِ ٱلْجَارَةِ .

أَمَّا « عَائِشَة » فَمَلْجَؤُهَا هُوَ النَّافِذَةُ لِتُسَرِّحَ نَظَرَهَا فِيمَا يَحْدُثُ بِالشَّارِعِ : فَأَصْوَاتُ الْبَاعَةِ ٱلْـمُتَجَوِّلِينَ لاَ تَفْتُرُ ، هَذَا يَتَغَزَّلُ بِالزَّعْرُور :

ـ زَعْرُورْ يَا لِلِيّ الدَّاوِي ٱلْقَلْبْ ٱلْـمَعْلُولْ .

وَهَذَا « حَلاَوَهْ خَرُّوبْ » بَائِعُ شَرَابِ هَذِهِ النَّبْتَةَ وَهْوَ مِصرِيٌّ بِقَامَتِهِ الطَّوِيلَةِ ، وَجُثَّتِهِ ٱلْعَظِيمَةِ الَّتِي زَادَهَا عِظَماً مَا يَحْمِلُهُ عَلَى بَطْنِهِ مِنْ إِبْرِيقٍ ضَخْمٍ مُجَلَّبٍ بِالنُّحَاسِ وَمَحْفُوفٍ بِالْكُؤُوسِ . وَسُمِّيَ « حَلاَوَهْ خَرُّوبْ » لأَنَّهُ لاَ يُتَعَرَّفُ عَنْهُ إِلاَّ بِهَذِهِ ٱلْعِبَارَةِ عِنْدَ مُرُورِهِ بِالشَّارِعِ :

ـ حَلاَوَهْ خَرُّوبْ ... حَلاَوَهْ خَرُّوبْ .....

وَلَيْسَ لَهُ عِنْدَ تَلْبِيَتِهِ رَغْبَةَ ٱلْحَرِيفِ إِلاَّ أَنْ يَأْخُذَ ٱلْكَأْسَ وَيَنْحَنِيَ شَيْئًا مَا فَيَدْفَعُ بَطْنُهُ الابْرِيقَ وَيَسِيلُ شَرَابُ « ٱلْخَرُّوبِ » كَالشَّايِ يَطْفُو عَلَى سَطْحِهِ زَبَدٌ شَهِيٌّ .

وَكَمْ كَانَتْ « عَائِشَة » تَتَمَنَّى أَنْ تَشْرَبَ مِنْهُ كَأْسًا وَلَكِنْ دُونَ ذَلِكَ خَرْتُ ٱلْقَتَادِ ، أَوْ شُرْبُ مَاءِ ٱلْخَرُّوبِ . إِلاَّ « النَّاصر » فَهْوَ يَتَحَيَّلُ دَائِماً لِيُرْضِيَ رَغَبَاتِهِ وَيَقُصَّ عَلَى أُخْتِهِ ذَلِكَ مُتَشَفِّيًا مِنْهَا وَمِنْ وَالِدِهِ . وَيَقُولُ لَـهَا :

ـ أَبُوكِ يُحِبُّكِ وَلَكِنَّهُ لاَ يُعْطِيكِ مَا تَرْغَبِينَ وَأَنَا أَفُكُّ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ عَيْنَيْهِ .

ـ وَجَزَاؤُكَ « الْـمَسْبَطُ » أَمَّا أَنَا فَإِنَّهُ لاَ يَرْضَى لِي أَنْ أَشْرَبَ ذَلِكَ ٱلْمَاءَ ٱلْقَذِرَ .

وَيَمُرّ بَائِعُ « أُمّ ٱلْفَلاَفِلْ » أَيْضًا وَهُوَ مِصرِيٌّ وَ « عَائِشَة » لاَ تَعْرِفُ مِنْ هَذَا ٱلْبَائِعِ إِلاَّ صَوْتَهُ وَلاَ يُمْكِنُ أَنْ تُمَيِّزَ هَذَا الطَّعَامَ الَّذِي تَظُنُّهُ مَرَّةً شَبِيهًا بِالْكَبَابِ وَمَرَّةً أُخْرَى « بِالْكَفْتَاجِي » وَعَلَى كُلٍّ فَهُوَ يُعَمِّرُ الشَّارِعَ بِصَوْتِهِ ، وَيَدْفَعُ عَرَبَتَهُ بِكُلِّ فَنٍّ جَارًّا عَبَاءَتَهُ وَرَافِعًا عَقِيرَتَهُ لِلتَّغَنِّي بِبِضَاعَتِهِ .

وَيَظْهَرُ بَيْنَ ٱلْحِينِ وَالآخَرِ وَجْهُ « الطَّرَّاحِ » وَهُوَ حَامِلُ ٱلْخُبْزَ إِلَى ٱلْفُرْنِ : يَتَرَدَّدُ عَلَى الدُّورِ الَّتِي لاَ تَرْضَى بِخُبْزِ السُّوقِ وَتُفَضِّلُ صُنْعَهُ بِنَفْسِهَا . وَ « الطَّرَّاحُ » فِي غَالِبِ الأَحْيَانِ لاَ يُعَدُّ رَجُلاً بِأَتَمِّ مَعْنَى ٱلْكَلِمَةِ إِذْ أَنَّ عَمَلَهُ وَضِيعٌ وَيَكُونُ لَهُ عَاهَةٌ كَالْعَورِ أَوِ الْعَرَجِ أَو الْبَلَهِ فَيُسْمَحُ لَهُ بِالدُّخُولِ إِلَى ٱلْمَنَازِلِ وَمُخَاطَبَةِ النِّسَاءِ بِدُونِ حَرَجٍ . وَلَكِنَّهُ لاَ يَتَوَقَّفُ كَثِيرًا بِمَنْزِلِ « الطَّاهِر » إِذْ صَوْتُ « الْبَكّوش » يَقْلَعُهُ قَلْعًا مِنْ أَمَامِ ٱلْبَابِ إِلاَّ فِي ٱلْقَلِيلِ النَّادِرِ عِنْدَمَا يَتَوَارَى هَذَا ٱلْحَارِسُ الأَمِينُ لِقَضَاءِ بَعْضِ شُؤُونِهِ .

ثُمَّ تَغِيبُ الشَّمْسُ عَنِ الشَّارِعِ ، وَتَبْزُغُ ٱلْفَوَانِيسُ ٱلْبَاهِتَةُ ، وَيَخِفُّ الضَّجِيجُ إِلاَّ صَوْتَ رَادِيُو ٱلْمَقْهَى فَإِنَّهُ ٱلْمُحَبَّبُ عِنْدَ ٱلْجَمِيعِ وَهُوَ الزَّائِرُ ٱلْمُفَضَّلُ عِنْدَ كُلِّ ٱلْبُيُوتِ ٱلْمُجَاوِرَةِ ، ٱلْعَاجِزَةِ عَنْ شِرَاءِ هَذِهِ ٱلآلَةِ ٱلْجَدِيدَةِ .

وَتَقِفُ « عَائِشَة » أَمَامَ هَذِهِ النَّافِذَةِ بَعْدَ تَخَطِّي « بَاب السَّطح » السَّاعَاتِ الطِّوَالَ لاَ تَنْقَطِعُ إِلاَّ لأَكْلِ لُقْمَةِ ٱلْعَشَاءِ مَعَ إِخْوَتِهَا حَوْلَ آنِيَةِ الطَّعَامِ ٱلْمُشْتَرَكَةِ .

وَتَسْرَحُ بِخَاطِرِهَا عِنْدَ فَرَاغِ الشَّارِعِ مِنَ ٱلْمَارَّةِ لِتَتَذَكَّرَ طُفُولَتَهَا فِي قَصْرِ « الْفَرِيك » وَجَرْيَهَا فِي ٱلْبُسْتَانِ بَيْنَ الأَشْجَارِ وَالأَزْهَارِ وَسَمَاعَهَا لِصَوْتِ ٱلْعُودِ وَغِنَاءِ بَعْضِ ٱلْجَوَارِي فِي حَضْرَةِ سَيِّدَةِ ٱلْقَصْرِ ثُمَّ يَقْطَعُ عَنْهَا شَرِيطَ ذِكْرَيَاتِهَا مُرُورُ سَكْرَانَ يَتَمَايَلُ مِنْ شِدَّةِ السُّكْرِ فَيُغَنِّي غِنَاءً نَاشِزًا وَيَنْطِقُ كَلاَمًا نَابِيًا لاَ تَفْهَمُ مَدْلُولَهُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَحْيَانِ وَتُضْطَرُّ إِلَى مُغَادَرَةِ النَّافِذَةِ بِنِدَاءٍ مُلِحٍّ مِنْ أُمِّهَا .

وَعِنْدَمَا يَنْزِلُ ٱلْـمَطَرُ ثُمَّ يَكِفُ تَقِفُ أَيْضًا « عَائِشَة » أَمَامَ النَّافِذَةِ ، وَقَدْ تَعَوَّدَتْ عِنْدَما كَانَتْ صَغِيرَةً أَنْ تَخْرُجَ بَعْدَ نُزُولِ ٱلْـمَطَرِ إِلَىٰ ٱلْبُسْتَانِ لِتَلْتَقِطَ ٱلْحَلَزُونَ . أَمَّا ٱلْيَوْمَ فَهْيَ تَخْرُجُ إِلَىٰ السَّطْحِ لِتَنْتَظِرَ مَجِيءَ حَلَزُونٍ كَبِيرٍ ، حَلَزُونٍ آدَمِـيٍّ .

لَقَدْ تَعَوَّدَ هَذَا ٱلْحَلَزُونُ أَنْ يَخْرُجَ فِي اللَّيْلِ وَبَعْدَ نُزُولِ ٱلْـمَطَرِ . هُوَ رَجُلٌ لَهُ قَامَةٌ طَوِيلَةٌ وَلِحْيَةٌ كَثَّةٌ فِي الأَرْبَعِينَ مِنَ ٱلْعُمُرِ ، لاَ تَرَاهُ قَائِماً بَلْ هُوَ يَـمْشِي كَمَا تَـمْشِي ٱلْقِرَدَةُ ، وَهَمُّهُ هُوَ ٱلْتِقَاطُ الأَوْسَاخِ أَوِ ٱلْقِطَطِ ٱلْـمَيِّتَةِ أَوِ ٱلْجِرَاءِ ٱلْـمَقْتُولَةِ ثُمَّ الزَّجُّ بِهَا فِي أَفْوَاهِ ٱلْبَالُوعَاتِ وَهْوَ يَصِيحُ مُقَلِّدًا النَّبَرَاتِ الأُولَىٰ مِنْ نُبَاحِ ٱلْكَلْبِ :

ـ أُو ... أُو ... مَاوْ قُلْتُ لَكْ : « مَسْكُوكَهْ » .

وَفِي أَغْلَبِ الأَحْيَانِ يَكُونَ عَارِيًا رَغْمَ ٱلْبَرْدِ إِلاَّ مِنْ إِزَارٍ لاَ يَسْتُرُ عَوْرَتَهُ عِنْدَمَا يَنْحَنِي لِلْقِيَامِ « بِعَمَلِهِ » ...

وَكَانَتْ « عَائِشَة » لاَ تَتَمَـالَكُ مِنَ ٱلْبُكَاءِ عِنْدَمَا تَرَاهُ لأَنَّهَا تَتَذَكَّرُ قِصَّتَهُ : كَانَ مِنَ الأَغْنِيَاءِ فَأَصَابَهُ الدَّهْرُ بِنِبَالِهِ فَأَفْقَدَهُ عِيَالَهُ وَمَالَهُ وَعَقْلَهُ وَتَرَكَهُ سُخْرِيَّةً أَمَامَ النَّاسِ .

هَذِهِ هِيَ حَيَاةُ ٱلْعَائِلَةِ لاَ هُدُوءَ إِلاَّ عِنْدَمَا يَكُونُ « الطَّاهِر » خَارِجَ ٱلْبَيْتِ أَوْ لَيْلَةَ ٱلْخَمِيسِ . فَفِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ يَعُودُ « الطَّاهِر » إِلَىٰ ٱلْبَيْتِ مُبَكِّرًا وَيَتَهَيَّأُ لِسَمَاعِ حَفْلَةِ الرَّشِيدِيَّةِ ٱلآتِيَةِ مِنْ رَادِيُو ٱلْـمَقْهَى . وَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ السُّكُونُ تَامًّا ، فَلاَ آنِيَةَ يُسْمَعُ صَوْتُهَا وَلاَ حَدِيثَ يُعَكِّرُ صَفْوَ السَّمَاعِ اللَّهُمَّ إِلاَّ دُخُولَ « ٱلْكَرِيطَة » إِلَىٰ « ٱلْفُنْدُقِ » . وَلَكِنَّ صَوْتَ ٱلْعَجَلاَتِ ٱلْـمُدَمْدِمَةِ وَٱلْـمُزَلْزِلَةِ لاَ يَدُومُ طَوِيلاً مِنْ حُسْنِ حَظِّ ٱلْعَائِلَةِ . وَتَرَى « الطَّاهِر » عِنْدَمَا يَهُزُّهُ الطَّـرَبُ يَضْرِبُ عَلَىٰ رُكْبَتِـهِ ضَرَبَاتٍ خَفِيفَةً مُوَقِّعًا النَّوْبَاتِ وَٱلْبَرَاوِلَ وَيُغَنِّي بِصَوْتٍ خَافِتٍ مَرَّةً وَعَالٍ مَرَّاتٍ مُمَاشِيًا لأَصْوَاتِ ٱلْـمَجْمُوعَةِ .

أَمَّا أَفْرَادُ ٱلْعَائِلَةِ فَكُلٌّ لَهُ مَا يَشْغَلُهُ . الأُمُّ تُفْنِي وَقْتَهَا وَصِحَّتَهَا فِي الشُّؤُونِ

ٱلْـمَنْزِلِيَّةِ وَالأَوْلاَدُ مِنْهُمْ النَّائِمُ وَمِنْهُمْ ٱلْـمُتَخَفِّي فِي مَكَانٍ مَعَ أَخِيهِ يَضْرِبُـهُ أَوْ يَلْكُمُهُ فِي صَمْتٍ غَرِيبٍ خَوْفًا مِنْ تَفَطُّنِ ٱلْوَالِدِ. إلاَّ « عَائِشَة » فَهِيَ ٱلْوَحِيدَةُ ٱلْـمَيَّالَةُ إِلَى السَّمَاعِ وَٱلْجَالِسَةُ فِي دَلاَلٍ قُرْبَ « الطَّاهِرِ ». وَتَنْتَهِي السَّهْرَةُ بِسَلاَمٍ فِي أَغْلَبِ الأَحْيَانِ، وَيَدْخُلُ رَبُّ ٱلْعَائِلَةِ إِلَى غُرْفَتِهِ لِيُخْرِجَ « السِّبْسِي » ٱلْـمُجَلَّبَ بِالْفِضَّةِ وَيَتَنَاوَلُ حِصَّتَهُ مِنَ « التَّكْرُورِي » فِي شِبْهِ ظُلْمَةِ ٱلْغُرْفَةِ. وَهُنَاكَ يَقَعُ فِي غَيْبُوبَـةِ ٱلْحَشِيشِ فِي صَمْتٍ مُوحِشٍ لاَ يُنَغِّصُ عَلَيْهِ سُكُونَـهُ إِلاَّ عَجَـلاَتُ « الكَرَارِطِ » الدَّاخِلَةِ إِلَى الْفُنْدُقِ.

* * *

وَلَمْ تَكُنِ ٱلْعَائِلَةُ فِي عُزْلَةٍ عَمَّا يَجْرِي فِي ٱلْـمَدِينَةِ وَخَاصَّةً فِي بَعْضِ الدُّورِ عَلاَوَةً عَلَى الشَّرِيطِ الْيَوْمِـيِّ ٱلْمَعْرُوضِ مِنْ وَرَاءِ « بَاب السَّطْح » فِي الشَّارِعِ: صَخَبٌ، وَعِرَاكٌ، وَنِدَاءٌ، وَغِنَاءٌ، وَحِوَارٌ بِصَوْتٍ عَالٍ.

كَانَ فَرِيقٌ مِنَ ٱلْعَجَائِزِ يَتَرَدَّدُ عَلَى مَنْزِلِ « الطَّاهِرِ » يُبَدِّدُ عَنْ أَفْرَادِ ٱلْعَائِلَةِ ٱلْعُزْلَةَ الَّتِي ضَرَبَهَا حَوْلَـهُمْ عَائِلُهُمْ. فَهَذِهِ أُمُّ « الطَّاهِرِ » أَصْبَحَتْ تُفَارِقُ قَرْيَتَهَا كُلَّ سَنَةٍ لِتَقْضِـيَ وَقْتًا بِجَانِبِ إِبْنِهَا فِي تُونس وَهْيَ اِمْرَأَةٌ فِي الثَّمَانِينَ حَنَّكَتْهَا التَّجَارِبُ وَعَرَفَتْ مِنَ الدَّهْرِ حُلْوَهُ وَمُرَّهُ وَعَجَمَتِ النَّاسَ وَلَكِنَّهَا لاَ حَوْلَ لَـهَا وَلاَ قُوَّةَ أَمَامَ زَوْجِهَا « أَبِي مُحَمَّد » وَابْنِهَا « الطَّاهِر ». هِيَ قَصِيرَةُ ٱلْقَامَةِ زَادَهَا ثِقَـلُ الأَيَّامِ قِصَرًا. مَلاَمِحُهَا رَقِيقَةٌ وَصِحَّتُهَا جَيِّدَةٌ تَصَـرُّفُهَا فِي إِعَانَةِ « زُبَيْدَة » عَلَى ٱلْقِيَامِ بِشُؤُونِ ٱلْعَائِلَةِ إِلاَّ عَيْنَيْهَا فَقَدْ أَثَّرَ فِيهَا الدَّهْرُ بِآفَاتِهِ وَأَحْزَانِهِ وَلَمْ يُبْقِ مِنْهَا إِلاَّ بَصِيصًا تَزِيدُهُ الدُّمُوعُ خُفُوتًا وَضَبَابًا.

تَلْبَسُ أُمُّ « الطَّاهِرِ » نَوْعًا مِنَ ٱلْـمُـلاَءَةِ تُسَمَّـى « التَّخْلِيلَـة » تَشُدُّهَـا إِلَيْهَـا « بِالْخِلاَلِ » وَتَتَمَنْطَقُ بِشَمْلَةٍ وَتَضَعُ عَلَى رَأْسِهَا « تُوفِيَّةً » كَأَنَّهَـا قَارِبٌ مَقْلُـوبٌ وَتَلْبَسُ فِي أُذُنَيْهَا أَخْرَاصًا وَفِي يَدَيْهَا حَدِيدَتَيْنِ مِنَ ٱلْفِضَّةِ، وَفِي رِجْلَيْهَا ٱلْخَلاَخِلُ.



الأُمّ حفصيّة

لَمْ تَكُنْ لَـهَا مِنْ عِنَايَةٍ إِلاَّ التَّحْصِيلُ عَلَى « النَّفَّةِ » لِلتَّفْرِيجِ عَلَى النَّفْسِ ، وَالدَّوَاءِ لِتَطْبِيبِ عَيْنَيْهَا ، وَالصُّرَّةِ لِتَكْبِيرِهَا مَا أَمْكَنَ لِتَـوْزِيعِ مَحْصُولِـهَـا عَلَى أَبْنَائِهَا فِي ٱلْقَرْيَةِ مِنْ ثِيَابٍ ، وَآنِيَةٍ ، وَنَزْرٍ قَلِيلٍ مِنَ ٱلْـمَالِ .

وَالظَّفَرُ بِهَذِهِ الْكُنُوزِ هُوَ سَبَبُ فَرَحِهَا وَانْشِرَاحِهَا ، وَدَعَوَاتِهَا الصَّالِحَةِ ، وَحِكَايَاتِهَا ٱلْحُلْوَةِ ، وَفُكَاهَاتِهَا ٱلْـمُتَوَاصِلَةِ . أَمَّا إِذَا انْقَطَعَ رَافِدٌ مِنْ هَذِهِ الرَّوَافِدِ فَإِنَّهَا تَنْصِبُ « مِنْدِيلَهَا » خَيْمَةً عَلَى رَأْسِهَا وَتَخْتَبِيءُ تَحْتَهُ لاَ تُكَلِّمُ إِنْسِيًّا وَلاَ تَسْمَعُ مِنْهَا إِلاَّ شِبْهَ نَشِيجٍ لاَ يَعْرِفُ السَّامِعُ هَلْ هُوَ بُكَاءٌ أَوِ اسْتِنْشَاقَةٌ قَوِيَّةٌ لِنَفَّتِهَا ٱلْـمُعَطَّرَةِ .

أَمَّا أُخْتُ « زُبَيْدَةَ » فَلاَ تَدْعُوهَا ٱلْعَائِلَةُ إِلاَّ بِاسْمِ « خَالَتِي » . وَأَصْبَحَتْ تَتَرَدَّدُ كَثِيرًا عَلَى زَوْجَةِ « الطَّاهِرِ » عِنْدَمَا قَرُبَتْ إِلَى تُونِسَ وَاعْتَبَرَتْهَا غَيْرَ هَانِئَةِ ٱلْبَالِ مِثْلَمَا كَانَتْ فِي ٱلْقَدِيمِ .

وَهِيَ إِمْرَأَةٌ لاَ يُعْرَفُ شَيْئًا عَنْ عُمُرِهَا إِلاَّ أَنَّهَا مُتَقَدِّمَةٌ فِي السِّنِّ ، عَجُوزٌ مَا فِي ذَلِكَ شَكٌّ وَلَكِنَّ خُطُوَاتِهَا نَشِيطَةٌ كَخُطُوَاتِ إِمْرَأَةٍ فِي مُقْتَبَلِ ٱلْعُمُرِ ، وَحَرَكَاتِهَـا رَشِيقَةٌ كَالْغَانِيَةِ ٱلْـمُتَغَنِّجَةِ : أَثَّرَ فِيهَا الدَّهْرُ حَتَّى أَصْبَحَتْ جِلْدًا عَلَى عَظْمٍ ، وَأَكَلَ الزَّمَانُ مِن عَيْنَيْهَا فَتَرَهَّلَتِ الأَجْفَانُ وَتَآكَلَتِ الأَهْدَابُ وَلَكِنَّ فِي نَظَرِهَا بَرِيقًا يُحَيِّرُ ٱلْـمُتَفَحِّصَ لِـهَذَا الْوَجْهِ الشَّبِيهِ بِقَرْنِ الْخَرُّوبِ .

إِكْتَسَبَتْ مِنْ صُمُودِ جِسْمِهَا أَمَامَ آفَاتِ الزَّمَانِ إِرَادَةً فُولاَذِيَّةً ، وَصَوْتًا نُحَاسِيًّا ، وَلِسَانًا ذَرِبًا لَهُ وَقْعُ السَّوْطِ فِي لَدْغَتِهِ . لاَ تَتَكَلَّمُ إِلاَّ لِتُصْدِرَ أَمْرًا ، أَوْ تُقَوِّمَ مُعْوَجًّا ، أَوْ تُؤَنِّبَ مُخَالِفًا أَوْ تَسُبَّ مُشَاكِسًا أَوْ تَسْتَهِيـنَ بِضَعِيفٍ هَادِيءِ الطَّبْعِ .

فِي بَيْتِهَا ، هِيَ رَبَّةُ ٱلْعَائِلَةِ ، الآمِرَةُ النَّاهِيَةُ ، تَقُودُ زَوْجَهَا وَأَبْنَاءَهَا وَبَنَاتِهَا كَمَا يُقَادُ ٱلْعَبِيدُ ، وَتَظْلِمُ فَلاَ يَشْكُو أَحَدٌ ، وَتُدَلِّلُ ٱلْمُتَحَيِّلَ وَٱلْمُرَاوِغَ فَلاَ يُشْعِرُهَا فَرْدٌ مِنَ ٱلْعَائِلَةِ بِتَنَكُّبِهَا عَنْ أُصُولِ التَّرْبِيَةِ أَوْ أَلِفْبَاءِ الْعَدَالَةِ .

إِكْتَسَبَتْ هَذَا الطَّبْعَ ٱلْحَادَّ مِنَ ٱلْـمُعَمَّرِ الَّذِي سَلَّـمَ لَـهَـا الضَّيْعَـةَ الصَّغِـيرَةَ

الـمُقِيمَةَ فِيهَا هِيَ وَأَوْلاَدُهَا ، وَشَرَطَ عَلَيْهَا أَلاَّ تَتَصَرَّفَ فِي ٱلْعَمَلَةِ إِلاَّ بِأُسْلُوبِهِ فَأَطَاعَتْهُ فِي أَوَّلِ الأَمْرِ مُكْرَهَةً مُتَذَمِّرَةً ضَمَانًا لِلُقْمَةِ ٱلْعَيْشِ ثُمَّ ارْتَاحَتْ لِهَـذَا الدَّوْرِ ، وَتَعَوَّدَتْ الطَّاعَةَ ٱلْعَمْيَاءَ مِنَ ٱلْغَيْرِ.

عِنْدَمَا تَـمْشِي فِي الطَّرِيقِ وَهْيَ مُلْتَحِفَةٌ « بِالسِّفْسَارِي » لاَ « عَجَارَ » ٱلْعَجَائِزِ يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا ٱلْـمَارَّةُ مُعْجَبِينَ بِرَشَاقَتِهَا ، وَمِشْيَتِهَا ٱلْـمُتَغَنِّجَةِ . وَكَمْ مِنْ مَرَّةٍ يُـمَاشِيهَا أَحَدُ ٱلْخُبَثَاءِ مِنْ أَهْلِ الدَّعَارَةِ وَوَرَاءَهُ أَخْدَانُهُ يَنْتَظِرُونَ ٱلْغَنِيمَةَ فَتُغْرِيهِ بِإِطْمَاعِهِ فِيهَا حِينًا مِنَ الزَّمَنِ ثُمَّ تَكْشِفُ لَهُ عَنْ وَجْهِهَا فَيَصِيحُ مَذْعُورًا : عَجُوزٌ ... عَجُوزٌ ... وَاللّٰهِ عَجُوزٌ ! وَتَنْهَالُ عَلَيْهِ سَبًّا وَشَتْمًا وَلَعْنًا وَتُحَاوِلُ الأَخْذَ بِتَلاَبِيبِهِ فَيَفِرُّ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهَا رَاضِيًا مِنَ ٱلْغَنِيمَةِ بِالنَّظَرِ إِلَى ٱلْوَجْهِ ٱلْقَبِيحِ وَسَمَاعِ فَاحِشِ الْقَوْلِ .

وَهْيَ ، إِنْ دَخَلَتْ بَيْتَ « زُبَيْدَة » فَلِلأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَقَوْلِ « ٱلْحَقّ » كَمَا يَحْلُو لَهَا تَأْكِيدُهُ ، فَهْيَ لاَ تَرَى فِي الْبَيْتِ غَيْرَ الأَعْوِجَاجِ فِي الأَثَاثِ وَٱلْعِبَادِ إِلاَّ مَعَ « الطَّاهِر » فَهْيَ لاَ تَدْرِي لِمَاذَا لاَ تَسْلُكُ مَعَهُ نَفْسَ السُّلُوكِ ؟ وَلَكِنَّهَا تُحَاوِلُ أَنْ تَقُولَ مَعَهُ « الْحَقّ » مُرَاوِغَةً مَا أَمْكَنَ لَـهَا ٱلْـمُرَاوَغَةَ وَلَعَلَّهَا كَانَـتْ تَتَيَقَّـنُ أَنَّ « الطَّاهِر » لاَ يَسْتَنْكِفُ مِنْ طَرْدِهَا مِنَ الدَّارِ وَحِرْمَانِهَا مِنْ رُؤْيَةِ أُخْتِهَا .

كُلُّ مَا تَشْرَبُهُ مِنْ شَرَابٍ فَهْوَ مَاسِطٌ أَوْ مُرٌّ أَوْ لاَ طَعْمَ لَهُ وَلاَ نَكْهَةَ وَمَعَ هٰذَا فَهْيَ لاَ تُحْسِنُ الطَّبْخَ وَلاَ تَقُومُ بِشُؤُونِ ٱلْـمَنْزِلِ مَهْمَا وَاجَهَتْهَا الظُّرُوفُ . لَقَدْ خَلَقَهَا اللّٰهُ وَعَلَّمَهَا ٱلْـمُعَمِّرُ أَنْ تَكُونَ الآمِرَةَ وَالنَّاهِيَةَ لاَ غَيْرُ .

وَ « دُوجَة » ٱلْـمَلاَّنَةُ صِحَّةً فِي سَنَوَاتِ ٱلْخِصْبِ ، اضْطُرَّتْ بَعْدَ تَلاَشِي قَصْرِ الفَرِيك إِلَى ٱلْعَمَلِ فِي مَعْمَلِ « لِلْكُسْكُسِي » عِنْـدَ مُعَمِّرٍ وَإِلَى السُّكْنَـى هِيَ وَأَوْلاَدُهَا فِي كُوخٍ بِـمَشَارِفِ بَارْدُو وَإِلَى الرُّجُوعِ إِلَى لِبَاسِهَا ٱلْبَدَوِيِّ ٱلْقَدِيمِ .

أَصْبَحَتْ « دُوجَة » لاَ تَأْتِي إِلاَّ فِي ٱلْقَلِيلِ النَّادِرِ إِلَى « زُبَيْدَة » وَتَدْخُلُ بَابَ

الدَّارِ وَالأثَاثُ مُنْبَعِثَةٌ مِنْ صَدْرِهَا وَالظَّهْرُ مُنْحَنٍ وَالْخُطَوَاتُ وَئِيدَةٌ يَخَالُهَا النَّاظِرُ أَنَّهَا سَتَمُوتُ غَدًا أَوْ أَنَّ مُصِيبَةً نَزَلَتْ عَلَيْهَا فِي يَوْمِهَا .

وَإِذَا هِيَ رَجَعَتْ لَهَا أَنْفَاسُهَا ، وَشَرِبَتْ قَهْوَتَهَا وَأَكَلَتْ نَصِيبًا مِنَ الزَّيْتِ وَالْخُبْزِ وَالزَّيْتُونِ تَفَشَّتْ فِيهَا الْحَيَاةُ بِسُرْعَةٍ مُدْهِشَةٍ وَرَجَعَتْ إِلَى حَيَوِيَّتِهَا وَنَهَضَتْ بِعَمَلِ أَيَّامٍ مِنْ غَسْلٍ وَصَقْلٍ وَغَيْرِهَا ثُمَّ قَصَّتْ قِصَصَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ مِمَّا يُرَوِّعُ الصِّغَارَ وَالْكِبَارَ ، وَيَبْعَثُ الرُّعْبَ فِي الْقُلُوبِ ، فَيَفِرُّ مِنْ أَمَامِهَا مَنْ نَجَا بِنَفْسِهِ وَيَلْتَجِىءُ إِلَى الصُّرَاخِ مَنْ بَقِيَ فِي قَبْضَتِهَا .

وَأُمُّك « عَزِيزَة » ، وَهَكَذَا تَدْعُوهَا الْعَائِلَةُ ، نَازِعَةً مِنْهَا يَاءَ النِّسْبَةِ ، وَرَامِيَةً بِهَا إِلَى الْغَيْرِ ، مَلْجَؤُهَا فِي ذَلِكَ كَافُ الْمُخَاطَبِ ، هِيَ لَيْسَتْ مِنْ فَصِيلَةِ الانْسَانِ وَلاَ الْحَيَوَانِ ، هِيَ بَيْنَ بَيْنَ ، أَخَذَتْ مِنَ الانْسَانِ الْقُدْرَةَ عَلَى الْوُقُوفِ عَلَى سَاقَيْنِ ، وَمَلَكَةَ الْكَلاَمِ ، وَلَكِنْ مِنَ الأَنْفِ فَقَطْ . وَاسْتَعَارَتْ مِنَ الطَّيْرِ الْجَوَارِح قُوَّةَ الْبَصَرِ وَحِدَّتَهُ وَاسْتِدَارَةَ الْحَدَقَةِ . وَاسْتَعَاضَتْ عَنِ الْمِنْقَارِ بِأَنْفٍ مُذَبَّبٍ بِطَرَفِهِ شَعْرَةٌ قَوِيَّةٌ فِي مَضَاءِ الْمِخْلَبِ يَكَادُ يَلْتَقِي بِذَقْنٍ غَارَ مِنَ الأَنْفِ فَشَاكَلَهُ اِسْتِرْقَاقًا وَصَلاَبَةَ شَعْرٍ ، أَمَّا الْجَبِينُ فَلاَ جَبِينَ وَفَاءً رُبَّمَا لِلْقِرْدِ جَدِّ الانْسَانِ ، وَالْوَجْنَتَانِ ، فَحَدِّثْ عَنْ غَوْرٍ مِنَ الأَغْوَارِ فِي صُورَةٍ لِلْقَمَرِ غَيْرِ وَاضِحَةٍ ، وَاللِّحْيَةُ ، لأَنَّ لَهَا لِحْيَةً وَيَا لِلْغَرَابَةِ ! فَهِيَ بِلِحْيَةِ التَّيْسِ أَشْبَهُ ، وَالْيَدَانِ ، فَانْسِبْهُمَا ـ وَأَغْرَبُ مَا فِيهِمَا الأَصَابِعُ ـ إِلَى مَخَالِبِ جَارِحٍ مِنَ الْجَوَارِحِ . أَمَّا الْبَشَرَةُ فَهِيَ لَيْسَتْ بِالسَّوْدَاءِ وَلاَ السَّمْرَاءِ وَلاَ الْبَيْضَاءِ وَإِنَّمَا لَهَا مِسْحَةٌ مِنْ سَوَادِ الْقُدُورِ .

وَأُمُّكَ « عَزِيزَة » تَلْبَسُ اللِّبَاسَ الْبَدَوِيَّ الَّذِي لاَ يَكْشِفُ عَنْ شَيْءٍ مِنَ الْبَدَنِ ، وَحَسْبُكَ مِنَ الْوَجْهِ عَيِّنَةٌ تَكْفِيكَ مَغَبَّةَ الفُضُولِ . وَلَوْ تَنَبَّهَ الْعُلَمَاءُ لِهَذِهِ الْفَصِيلَةِ الْفَرِيدَةِ لاَشْتَرَوْهَا بِالْمَالِ الْوَفِيرِ . وَلَوْ وَضَعُوهَا فِي مَتْحَفٍ مِنْ مَتَاحِفِ الْعَالَمِ أَوْ مَخْبَرٍ لِلْعُلُومِ الطَّبِيعِيَّةِ لَكَانَتْ سَبَبًا فِي تَسْوِيدِ الآلاَفِ الْمُؤَلَّفَةِ مِنَ الأَوْرَاقِ

وَلاَرتَزَقَ مِنْهَا آلْـمِئَاتُ مِنْ عُمَّالِ آلْـمَطَابِعِ ، وَازْدَهَرَ النَّشْرُ فِي آلْعَالَمِ وَخَرَجَـتْ الصَّحَافَةُ مِنْ أَزْمَتِهَا . وَلَكِنَّ آلْعَالَمَ فِي غَفْلَةٍ عَنْهَا وَهْيَ آلْمُتَحَرِّكَةُ فِي سُرْعَةٍ فَائِقَةٍ وَبِدُونِ انْقِطَاعٍ كَرَقَّاصِ السَّاعَةِ بَيْنَ آلْـمَطْبَخِ وَالنُّقَطِ الأُخْرَى مِنَ آلْبَيْتِ : هَذِهِ قَهْوَةٌ تُطْبَخُ فِي لَـمْحِ آلْبَصَـرِ وَتُعْرَضُ فِي كَأْسٍ مَـمْسُوكٍ بِقَبْضَةِ الْيَدِ وَمَشْدُودٍ بِوَاسِطَتِهَا الْـمَغْمُوسَةِ إِلَى الظُّفْرِ تُدَاعِبُ الْـمَشْرُوبَ اللَّذِيذَ . وَهَـذَا فُلْفُـلٌ مَقْلِيٌّ يُسْمَعُ نَشِيشُهُ وَيُحْضَرُ فِي بُرْهَةٍ مِنَ الزَّمَنِ وَجِيزَةٍ ، وَهَذِهِ بَطَاطَا تُقَطَّعُ بِسُرْعَـةِ الْبَرْقِ وَتُرْمَى فِي الزَّيْتِ آلْـمُتَنَاثِرِ إِلَى السَّقْفِ . وَهَكَذَا إِخْتَصَّتْ أُمُّكَ « عَزِيزَة » فِي الطَّبْخِ السَّرِيعِ وَلَرُبَّـمَا النَّظِيفِ وَهَذَا يَحْتَاجُ إِلَى تَجْرِبَةٍ وَبُرْهَانٍ .

غَيْرَ أَنَّ أَكْبَرَ الصِّفَاتِ الَّتِي بَرَّتْ بِهَـا الانْسَـانَ وَآلْحَيَوَانَ هِيَ تَرْدِيدُ الْـكَلاَمِ وَالْـمُحَاكَاة وَهْيَ بِهَذَا دَلَّتْ عَلَى إِنْحِدَارِهَا مِنْ فَصِيلَةِ الْقِرْدِ وَآلْبَبَّغَاءِ . وَلَعَلَّهَا أَخَذَتْ كُلَّ مِيزَاتِهَا آلْخَلْقِيَّةِ وَآلْخُلُقِيَّةِ مِنْ هَذَا الطَّائِرِ إِلاَّ زِينَةَ رِيشِهِ أَوْ عَفْوًا هِيَ لِلْبُومَةِ أَقْرَبُ وَبِهَا آلْصَقُ ، وَاعْذِرُونِي إِذَا أَنَا لَمْ أَمْلِكْ قَلَمِي فِي هَذَا آلْوَصْفِ وَلَمْ أُدَقِّقْهُ ، وَلَمْ أَكُنْ فِيهِ مُوَفَّقًا نَظَرًا إِلَى أَنَّ « أُمَّكْ عَزِيزَهْ » حَازَتْ فِي خُطُوطٍ أَوَّلِيَّةٍ سَرِيعَةٍ كُلَّ مَا اتَّصَفَ بِهِ الانْسَانُ وَآلْحَيَوَانُ . وَلَعَلَّهَا تَذْكِيرٌ مُعَاصِرٌ مِنَ الطَّبِيعَةِ لِمَا كَانَ عَلَيْهِ أَصْلُ الانْسَانِ وَآلْحَيَوَانِ .

فَهْيَ تُمَاشِي مُخَاطِبَهَا فِي آلْكَلاَمِ وَتُطِيعُهُ إِلَى أَبْعَدِ حُدُودِ الطَّاعَةِ وَتَذْهَبُ مَعَهُ إِلَى مَشَارِفِ آلْوَهْمِ وَالايهَامِ بِمَا يُحَيِّرُ كُلَّ عَاقِلٍ . فَإِنْ أَنْتَ أَوْهَمْتَهَا أَنَّ الَّذِي أَمَامَهَا هُوَ آلْبَايُ بِنَفْسِهِ فَإِنَّهَا بَعْدَ بُرْهَةٍ تَعْتَقِدُ أَنَّهُ وَاقِفٌ فَتَقُومُ بِمَا تَرَاهُ لاَئِقًا بِمَقَامِهِ . وَإِنْ أَنْتَ أَوْهَمْتَهَا أَنَّهَا أَمَامَ زَوْجِهَا الَّذِي طَلَّقَهَا بِالثَّلاَثِ فَهْيَ لاَ تَلْبَثُ أَنْ تَرْتَمِـيَ فِي عُنُقِكَ وَتَدْعُوكَ إِلَى آلْقِيَامِ بِوَاجِبِكَ الزَّوْجِي ، وَحَذَارِ أَنْ تَتَمَلَّصَ مِنْ ذَلِكَ ، فَسُرْعَةُ الايهَامِ يُقَابِلُهَا بُطْءٌ فِي نَزْعِ مَا عَلِقَ بِالذِّهْنِ . وَهْيَ لاَ تُقْلِعُ عَنْ ذَلِكَ إِلاَّ بِقَهْوَةٍ مِنْهَا أَوْ طَبْخَةٍ سَرِيعَةٍ تُؤْمَرُ بِتَهْيِئَتِهَا .



خـالتي

وَالأُمُّ « حَفْصِيَّة » وَهِيَ ٱلْعَجُوزُ ٱلْخَامِسَةُ لَمْ تَدْخُلِ ٱلْمَنْزِلَ إلاَّ بِفَضْلِ ابْنَتِهَا « سُكَيْلَة » الَّتي عَرَفَهَا « الطَّاهِر » في يَوْمٍ مِنَ الأَيَّامِ وَهِيَ مُحْتَاجَةٌ إلىَ قَضَاءِ شَأْنٍ مِنَ الشُّؤُونِ في إِدَارَةِ ٱلسَّالِ ، فَسَاعَدَهَا عَلىَ ذَلِكَ ، وَهِيَ مِنْ قَرْيَتِهِ تَـمُتُّ إِلَيْهِ بِبَعْضِ ٱلْقَرَابَةِ وَهِيَ الأَرْمَلَةُ ٱلْـمُحْتَفِظَةُ بِجَمَالِهَا رَغْمَ أَبْنَائِهَا الثَّلاَثَةِ ٱلْكِبَارِ .

تَعَوَّدَتْ الأُمُّ « حَفْصِيَّه » هِيَ وَابْنَتُهَا التَّنَقُّلَ مِنْ دَارٍ إلىَ دَارٍ ، وَتَدُومُ ضِيَافَتُهُمَا عَلىَ حَسَبِ مَا يَقْتَضِيهِ ٱلْحَالُ ، وَهِيَ عَجُوزٌ قَصِيرَةُ ٱلْقَامَةِ ، مُدَوَّرَةُ ٱلْوَجْهِ ، دَرْدَاءُ ٱلْفَمِ ، يَلْتَقِي فَمُهَا مَعَ ذَقْنِهَا فِي احْتِشَامٍ قَلِيلٍ ، وَلَمْ يَبْقَ لَهَا مِنَ الشَّبَابِ إلاَّ مِيزَتَانِ : صِحَّةُ ٱلْعَيْـنِ وَالافْرَاطُ في الأَكْلِ رَغْمَ ضَيَاعِ الأَسْنَانِ ثَنَايَا وَرُبَاعِيَاتٍ وَنِيَابًا وَطَوَاحِنَ . وَلَكِنَّهَا حَفِظَتْ مِنَ ٱلْخُرَافَاتِ مَا يَحَارُ لَهُ اللُّبُّ وَهِيَ تَحْكِيهَا عِنْدَمَا يَتْرُكُ لَـهَا ٱلْعَجَائِزُ الأُخْرَيَاتُ ٱلْـمَسْرَحَ فَارِغًا مُتَرَشِّفَةً قَهْوَةً فِيهَا لُقْمَةٌ مُتَرَجْرِجَةٌ مِنَ السَّمْنِ .

أَمَّا « سُكَيْلَه » إِبْنَتُهَا فَهِيَ ٱلْبَارِعَةُ فِي ٱلْكَلاَمِ ٱلْوَاجِدَةُ دَائِماً ذَرِيعَةً لِدُخُولِ الدَّارِ طَالِبَةً مِنَ الطَّاهِرِ مُسَاعَدَةً لِلتَّدَخُّلِ لَدَى مَسْؤُولٍ فِي هَذِهِ الادَارَةِ أَوْ تِلْكَ . وَهِيَ لاَ تَفْتَأُ ، عِنْدَ رُجُوعِ « الطَّاهِر » إلىَ ٱلْمَنْزِلِ تَتَوَسَّلُ إِلَيْهِ ، وَتَتَغَزَّلُ بِهِ عَلىَ مَرْأَى وَمَسْمَعٍ مِنْ « زُبَيْدَة » وَتَمْضِي فِي تَقْبِيلِهِ ٱلْقُبُلاَتِ الحَارَّةَ ٱلْبَرِيئَةَ فِي الطَّاهِرِ ، الأَخَوِيَّةَ طَبْعًا ، فَيَلِينُ جَانِبُ « الطَّاهِر » وَيَعِدُهَا ٱلْوُعُودَ ٱلْكَثِيرَةَ وَتَتَرَاقَصُ عَيْنَاهُ شَهْوَةً فَتَفِرُّ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَتَتْرُكُهُ كَالْفَرَسِ ٱلْفَحْلِ قَدْ كُبِحَ جِمَاحُهُ .

وَلَكِنَّهَا ، بَعْدَ خُرُوجِ « الطَّاهِر » تَتَنَمَّرُ وَتَصِيرُ الآمِرَةَ ، النَّاهِيَةَ فِي ٱلْبَيْتِ تُؤَدِّبُ الصِّغَارَ ، وَتَحْرِمُهُمْ مِنَ ٱلْخُبْزِ وَٱلْحَلْوَى وَتَلُومُ « زُبَيْدَة » عَلىَ إِسْرَافِهَا ، وَتَبْذِيرِهَا ، وَتُصْبِحُ كَأَنَّهَا صَاحِبَةُ ٱلْبَيْتِ .

وَإِذَا كَانَ جَمْعُ هَؤُلاَءِ النِّسَاءِ ٱلْمُسِنَّاتِ مُتَفَرِّقًا أَثْنَاءَ النَّهَارِ فَإِنَّهُ لاَ تَأْتِي ٱلْعَشِيَّةُ حَتَّى يَلْتَئِمَ مَجْلِسُ ٱلْعَجَائِزِ فِي بَيْتِ ٱلْفَطُورِ إلىَ ٱلْهَزِيعِ الأَخِيرِ مِنَ اللَّيْلِ ، فَهُنَّ إلىَ الذِّكْرَيَاتِ وَٱلْخُرَافَاتِ مَا دَامَ الأَوْلاَدُ مُسْتَيْقِظِينَ ثُمَّ إلىَ ٱلْخِصَامِ أَوِ ٱلْحِكَايَاتِ

الشَّبَقِيَّةِ وَٱلْحَرَكَاتِ ٱلْمُرِيبَةِ بَعْدَ نَوْمِ الصِّغَارِ . وَكَانَ « الطَّاهِرِ » يُشَجِّعُهُنَّ عَلَىَ ذَلِكَ إِذَا قَرَّرَ السَّهَرَ فِي ٱلْبَيْتِ وَحَدَّثَتْهُ نَفْسُهُ بِنَيْلِ وَطَرٍ مِنْ « سُكَيْلَه » الَّتِي كَانَتْ تَتَمَنَّعُ حِيَالَهُ وَتُحَدِّثُ نَفْسَهَا بِتَنْفِيذِ خُطَّةٍ بَعِيدَةِ الْمَدَى .

ثُمَّ بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ تَفْتَرِشُ ٱلْعَجَائِزُ مَا وَجَدْنَهُ مِنَ ٱلْفِرَاشِ وَتَنَمْنَ ٱلْوَاحِدَةَ حِذْوَ الأُخْرَى وَكَأَنَّهُنَّ خَرَجْنَ مِنْ مَعْرَكَةٍ حَرْبِيَّةٍ ضَارِيَةٍ وَقَدْ أَخَذَ مِنْهُنَّ التَّعَبُ وَلَيْسَ لَهُنَّ مِنْ أَمَلٍ إِلاَّ التَّبَارِي فِي الْقِيَامِ مُبَكِّرًا لِلظَّفَرِ بِأُكْلَةٍ أَكْبَرَ وَأَدْسَمَ .

هَكَذَا تَعِيشُ ٱلْعَائِلَةُ حَيَاةً مَفْرُوضَةً عَلَيْهَا فَرْضًا ، لأَنَّ « زُبَيْدَة » أَصْبَحَتْ كَأَنَّهَا ٱلْحَاضِرَةُ ٱلْغَائِبَةُ لاَ يَهُمُّهَا مِنَ ٱلْحَيَاةِ شَيْئًا إِلاَّ سَيْرُهَا كَمَا اتَّفَقَ وَجَرَيَانُهَا عَلَىَ حَسَبِ مَشِيئَةِ أَيٍّ كَانَ وُجِدَ فِي ٱلْبَيْتِ . وَمَا هِيَ قِيمَةُ ٱلْحَيَاةِ بَعْدَ ٱلْعَيْشِ فِي قَصرْ « الفَرِيك مُصْطَفَى » وَقَدْ ضَاعَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ .

أَمَّا « عَائِشَة » وَهْيَ الَّتِي لاَ حَوْلَ لَهَا وَلاَ قُوَّةَ فِي هَذَا ٱلْخِضَمِّ فَلَقَدْ لَجَأَتْ إِلَىَ « بَابْ السَّطَحْ » لاَ تَسْمَعُ مِنْ أَخْبَارِ الْمَنْزِلِ إِلاَّ الْقَلِيلَ وَلاَ يَتَهَيَّأُ لَهَا مِنَ ٱلْقِيَامِ بِشُؤُونِ ٱلْمَنْزِلِ إِلاَّ الْهَيِّنُ الطَّفِيفُ . وَلَكِنَّهَا كَانَتْ دَائِماً حَرِيصَةً عَلَىَ سَمَاعِ ٱلْعَجَائِزِ وَحِفْظِ أَخْبَارِهِنَّ وَالتَّجَسُّسِ عَلَيْهِنَّ أَثْنَاءَ حِكَايَاتِهِنَّ الشَّبَقِيَّةِ .

وَلَكِنَّ « عَائِشَة » كَانَتْ تَحْرِصُ عَلَىَ سَمَاعِ شَيْخٍ يَنْضَمُّ إِلَىَ مَجْلِسِ ٱلْعَجَائِزِ هُوَ « أُبَيْكْ صَالَح » . وَهُوَ عَمُّ « الطَّاهِرِ » كَبِيرٌ فِي السِّنِّ تَعَوَّدَ أَنْ يَأْتِيَ إِلَىَ تُونِسَ مِنْ حِينٍ إِلَىَ آخَرَ وَخَاصَّةً فِي الصَّيْفِ . وَيَلَذُّ لَهُ أَنْ يَتَمَدَّدَ فِي ٱلْعَشِيَّةِ فِي فِنَاءِ السَّطْحِ وَيَضَعَ أَمَامَهُ مَا يُسَمِّيهَا « جْنِينَـة » وَهْيَ عِبَارَةٌ عَنْ مَجْمُوعَةٍ مِنَ ٱلْغِلاَلِ ٱلْمُصَفَّفَةِ مِنْ تُفَّاحٍ ، وَإِجَاصٍ وَغُصَيْنَاتٍ مِنَ النَّعْنَعِ وَالْحَبَقِ ثُمَّ يَنْصُبُ «ٱلْمَعَدّ» وَيُخْرِجُ « البَشْقِي » وَيَبْدَأُ فِي تَرْقِيقِ التَّكْرُورِي (نَوْعٌ مِنَ ٱلْحَشِيشِ) عَلَىَ صُورَةِ « رَكَايِبْ نِسَالَه » . ثُمَّ يَسْتَلُّ مِنْ جَيْبِهِ « سِبْسِيًا » وَيُعَبِّيءُ فُوهَتَهُ حَشِيشًا وَيُشْعِلُهُ ، وَعِنْدَ ذَلِكَ تَنْحَلُّ عُقْدَةُ لِسَانِهِ ، وَيَحْكِي لِلصِّغَارِ رَحَلاَتِهِ ٱلْقَدِيمَةَ وَمُحَاوَلاَتِ

قَتْلِهِ مِنْ قُطَّاعِ الطَّرِيقِ فِي مَسِيرَتِهِ إِلَى ٱلْحَجِّ وَنَجَاتِهِ بِأُعْجُوبَةٍ مَرَّاتٍ عَدِيدَةٍ .

وَهُوَ فِي هَذِهِ ٱلْقِصَصِ يُبَالِغُ وَيَخْتَرِعُ وَلَكِنَّهُ لاَ يُبَالِي بِذَلِكَ وَالأَطْفَالُ أَنْفُسُهُمْ يُشَجِّعُونَهُ عَلَى هَذِهِ النَّزْعَةِ ٱلْخَيَالِيَّةِ ثُمَّ يَسْكُتُ قَلِيلاً وَيَنْتَقِلُ إِلَى ٱلْغِنَاءِ فَيُغَنِّي :

« دَقَفْتُ عَلَى بَابِ الْجُنَانِ فَجَاوَبَنِي وَرَقُ التُّوتْ

وَقَالَ لِي : حَبِيبُكْ يَوْمِ ٱلْخَمِيسْ يَمُوتْ » .

وَهِيَ الأُغْنِيَّةُ ٱلْوَحِيدَةُ الَّتِي يُرَدِّدُهَا دَائِماً وَتُنْبِىءُ بِنِهَايَةِ ٱلْحِصَّةِ . ثُمَّ يَسْكُتُ وَيَطْرُدُ عَنْهُ الأَطْفَالَ وَلاَ يُطِيقُ أَيَّ إِزْعَاجٍ .

* * *

وَفِي يَوْمٍ مِنَ الأَيَّامِ بَيْنَمَا كَانَتِ ٱلْعَائِلَةُ مُنْصَرِفَةً إِلَى شُؤُونِهَا وَٱلْبَابُ يُطْرَقُ لِتَدْخُلَ عَجُوزٌ مِنْ تِلْكَ ٱلْعَجَائِزِ إِذْ بِوَالِدِهَا يَصْعَدُ الدَّرَجَ لاَهِثًا وَيَقُولُ :

ـ ٱلْحَرْبُ أَتَتْ إِلَى تُونِسَ .

وَتَغَيَّرَ مِنْ ذَلِكَ ٱلْيَوْمِ كُلُّ شَيْءٍ . فَلَقَدْ أَحَسَّتْ ٱلْعَائِلَةُ بِفِقْدَانِ ٱلْـمَوَادِّ ٱلْغِذَائِيَّةِ الضَّرُورِيَّةِ وَعَرَفَتِ التَّقْسِيطَ فِي كُلِّ شَيْءٍ : فِي ٱلْخُبْزِ وَالشَّايِ وَٱلْقَهْوَةِ وَكُلِّ مَا لَمْ يَكُنْ لِيُحِسَّ بِوُجُودِهِ أَحَدٌ مِن قَبْلُ نَظَرًا إِلَى الرَّخَاءِ النِّسْبِيِّ ٱلْمُنْجَرِّ عَنْ مُرَتَّبِ « الطَّاهِرِ » وَكَثْرَةِ أَوْلاَدِهِ وَارْتِفَاعِ ٱلْمِنْحَةِ ٱلْعَائِلِيَّةِ فِي كُلِّ مَرَّةٍ .

وَأَحَسَّتْ ٱلْعَائِلَةُ بِالْجُوعِ نِسْبِيًّا وَهُوَ شُعُورٌ لَمْ تَكُنْ لِتَعْرِفَهُ « زُبَيْدَةُ » وَلاَ « عَائِشَة » وَلاَ الأَوْلاَدُ . وَتَيَقَّنَ « الطَّاهِرِ » أَنَّ كَثْرَةَ ٱلْـمَالِ وَقِلَّتَهُ لاَ تُفِيدَانِ لاَ قَلِيلاً وَلاَ كَثِيرًا لأَنَّ ٱلْـمُهِمَّ هُوَ إِيجَادُ ٱلْـمَوَادِّ ٱلْغِذَائِيَّةِ وَحَتَّى السُّوقُ السَّوْدَاءُ فَهِيَ مَحْدُودَةُ الامْكَانِيَّاتِ لِفِقْدَانِ الْـمُقَوِّمَاتِ الضَّرُورِيَّةِ لِلْحَيَاةِ .

شُعُورٌ بِالْجُوعِ وَبِالْحِرْمَانِ لَمْ تَكُنْ « زُبَيْدَة » لِتَحْسِبَ لَهُ حِسَابًا مِنْ قَبْلُ بَلْ إِنَّهَا لَمْ تَتَصَوَّرْ وُجُودَهُ بِهَذَا ٱلْعُنْفِ ٱلْـمُدَمِّرِ الَّذِي يَجْعَلُهَا تَرْفَعُ يَدَيْهَا أَمَامَ ٱلْعَجَائِزِ لِتَقُولَ لَـهُنَّ :

ـ لاَ قَهْوَةَ وَلاَ شَايَ وَلاَ سُكَّرَ وَلاَ ...

وَأَحَسَّتِ ٱلْعَائِلَةُ أَيْضًا بِشَيْءٍ آخَرَ هُوَ ٱلْخَوْفُ مِنَ ٱلْمَوْتِ ، لاَ ٱلْخَوْفُ مِنَ « الطَّاهِرِ » وَمِنْ هَيْعَاتِهِ فَهْيَ لاَ تُمِيتُ وَلاَ تُفْنِي بَلْ ٱلْخَوْفُ مِنْ سُقُوطِ ٱلْبِنَايَةِ كُلِّهَا .

مَرَّتَانِ فِي ٱلْيَوْمِ تُحِسُّ ٱلْعَائِلَةُ هَذَا الاحْسَاسَ : فِي ٱلْحَادِيَةَ عَشْرَةَ مِنَ الصَّبَاحِ وَفِي التَّاسِعَةِ أَوِ ٱلْعَاشِرَةِ لَيْلاً .

فَفِي الصَّبَاحِ تَسْمَعُ ٱلْعَائِلَةُ فَوْقَهَا دَوِيًّا يَزْحَفُ زَحْفًا ، تَرْتَجُّ لَهُ ٱلْبِنَايَةُ وَتَمُوجُ كَأَنَّهَا مَرْكَبٌ تَتَقَاذَفُهُ اللُّجَجُ ثُمَّ تَتْلُو ذَلِكَ أَصْوَاتُ ٱلْمَدَافِعِ ٱلْمُضَادَّةِ لِلطَّائِرَاتِ وَهْيَ تَنْبَحُ نُبَاحًا مُنْكَرًا تَطِيرُ لَهُ ٱلْقُلُوبُ مِنَ الصُّدُورِ .

وَبَعْدَ بُرْهَةٍ تَطُولُ أَوْ تَقْصُرُ يُسْمَعُ هَزِيمٌ كَهَزِيمِ الرَّعْدِ وَلَكِنَّهُ أَشَدُّ وَأَقْوَى تَتَزَلْزَلُ بِهِ الأَرْضُ زِلْزَالاً وَتَتَحَرَّكُ لَهُ فِي ٱلْبَيْتِ ٱلْفَوَانِيسُ وَتَتَنَاطَحُ ٱلْكُؤُوسُ وَالأَوَانِي ، وَتَتَعَالَى عِنْدَ ذَلِكَ أَصْوَاتُ الصِّغَارِ بِتِلاَوَةِ الآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ وَتَقِفُ فِي ٱلْحُلُوقِ دَعَوَاتُ ٱلْكِبَارِ وَتَنْظُرُ ٱلْعُيُونُ شَاخِصَةً إِلَى السَّقفِ فِي انْتِظَارِ سُقُوطِهِ .

لَقَدْ حَرَّمَ « الطَّاهِرِ » عَلَى ٱلْعَائِلَةِ أَنْ تَخْرُجَ إِلَى ٱلْخَنَادِقِ ٱلْمَحْفُورَةِ عِنْدَ انْطِلاَقِ صَفَّارَاتِ الانْذَارِ وَحَرَّضَ الصِّغَارَ عَلَى تِلاَوَةِ ٱلْقُرْآنِ ، وَاعْتَقَدَ ٱلْجَمِيعُ أَنَّ اللَّهَ حَفِظَهُمْ مِن شَرِّ ٱلْقَنَابِلِ الَّتِي كَانَتْ تَسْقُطُ قَرِيبًا مِنَ ٱلْبِنَايَةِ مَرَّةً بِبَابِ ٱلْعُلُوجِ وَأُخْرَى « بِحَوانِتْ عَاشُورْ » وَبِسِيدِي « الْبَشِيرِ » . وَكَانَتِ الطَّائِرَاتُ تَأْتِي عَالِيَةً وَتَصُبُّ قَنَابِلَهَا عَلَى مَحَطَّةِ السِّكَكِ الْحَدِيدِيَّةِ وَمِينَاءِ تُونِسَ بِالْخُصُوصِ .

وَبَعْدَ أَنْ يَكِفَّ هَذَا ٱلْوَابِلُ مِنَ ٱلْقَنَابِلِ تَسْمَعُ ٱلْعَائِلَةُ مِنَ ٱلْجِيرَانِ وَمِنَ ٱلْمَارَّةِ أَخْبَارًا تَدْمَى لَهَا ٱلْقُلُوبُ وَتَرْتَاعُ مِنْهَا النُّفُوسُ وَخَاصَّةً إِذَا كَانَتِ الضَّحَايَا مَعْرُوفَةً مِنَ ٱلْعَائِلَةِ : فَهَذِهِ أُمِّي « نَفِيسَةُ » سَقَطَ عَلَيْهَا السَّقْفُ وَهْيَ تُصَلِّي فَوَجَدُوهَا تَحْتَ الرُّكَامِ مُهَشَّمَةَ الرَّأْسِ ، وَهَؤُلاَءِ أَطْفَالُ « سِي عَلِي » وَجَدُوهُمْ تَحْتَ الْفِرَاشِ كَأَنَّهُمْ فِي عُلْبَةِ مُصَبَّرَاتٍ وَهَذِهِ دَارُ « سِي عَبْدِ السَّلاَمِ » تَهَدَّمَتْ كُلُّهَا وَلَمْ يَسْلَمْ مِنَ السَّاكِنِينَ بِدَارِهِ إِلاَّ كَلْبٌ صَغِيرٌ وَهَذَا صَدِيقُ « الطَّاهِرِ » « سِي الزِينْ » كَانَ ذَاهِبًا

إِلَى حَمَّامِ الأَنْفِ وَرَأَوْهُ فِي مَحَطَّةِ السِّكَكِ ٱلْحَدِيدِيَّةِ وَلَـمْ يَرْجِـعْ إِلَى أَهْلِـهِ فَيَدُلُّ « الطَّاهِر » رِجَالَ الاسْعَافِ إِلَى عَرَصَةٍ تَرَكَهُ مُخْتَبِئًا تَحْتَهَا فِي الْـمَحَطَّةِ فَيَجِدُونَهُ كُتْلَةً مُهَشَّمَةً .

وَيَتْبَعُ هَذِهِ الاخْبَارَ مِنَ ٱلْعَجَائِبِ مَا يُحَيِّرُ ٱلْعُقُولَ وَخاصَّةً مَا يَتَعَلَّقُ بِنَجَاةِ ٱلْكَثِيرِ مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ يَخْرُجُونَ مِنَ الرُّكَامِ أَصِحَّاءَ ، سَالِمِينَ بِفَضْلِ « سِيدِي بِلْحَسَنْ » أَوْ « سِيدِي عَبْدِ الْقَادِرِ » أَوْ غَيْرِها مِنَ الأَسَاطِيرِ الَّتِي تَبْعَثُ الأَمَلَ فِي نُفُوسٍ لَيْسَ لَهَا مِنْ رَجَاءٍ فِي خِضَمِّ هَذِهِ ٱلْحَرْبِ الضَّرُوسِ إِلاَّ إِيـمَانُهَا بِاللهِ وَبِالرَّسُولِ وَالأَوْلِيَاءِ الصَّالِحِينَ .

وَلَمْ تَشْعُرِ«عَائِشَة»بِالْيَأْسِ شُعُورَهَا فِي تِلْكَ الأَيَّامِ وَلَمْ يَكُنْ لَـهَا مِنْ مَلْجَإٍ إِلاَّ التَّوَجُّهُ إِلَى اللهِ لابْعَادِ الشَّرِّ عَنْهَا . وَبَدَأَتْ تَسْتَقْبِلُ ٱلْحَيَاةَ بِصُورَةٍ لَمْ تَعْرِفْهَا مِنْ قَبْلُ : هِيَ مَزِيجٌ مِنْ خُرَافَاتِ مَجْلِسِ ٱلْعَجَائِزِ وَمِنْ أَصْدَاءَ كَانَتْ تَنْفُذُ إِلَى أُذُنِهَا فِي مُصَاحَبَتِهَا لِوَالِدِهَا سَوَاءٌ مِنَ الأَفْلاَمِ السِّنَمَائِيَّةِ وَالْمَسْرَحِيَّاتِ أَوْ حَدِيثِ وَالِدِهَا مَعَ مَنِ اسْتَوْقَفَهُ فِي الطَّرِيقِ مِنْ أَصْحَابِهِ .

كُلُّ مَا فِي ٱلْحَيَاةِ غَامِضٌ عِنْدَهَا وَلَيْسَ مِنْ أَمَلٍ لَدَيْهَا إِلاَّ بَرِيقٌ مِنْهُ تَرَاءَى لَهَا أَثْنَاءَ زِيَارَاتِ « سُكَيْلَة » ٱلْمُتَكَرِّرَةِ وَمَعَهَا أَوْلاَدُهَـا : « سَالِم » وَ « فَاطِمَـة » وَ « الـهَادِي » .

كَانَ « سَالِم » فِي عُمُرِهَا هِيَ تَقْرِيبًا وَكَانَ يَنْظُرُ إِلَيْهَا نَظَرَاتٍ مِلْؤُهَا الشَّـوْقُ وَاللَّهْفَةُ . وَلَمْ تَعْرِفْ « عَائِشَةُ » لِمَاذَا كَانَ وَالِدُهَا يَتْرُكُ هَذَا الأَعْزَبَ يَدْخلُ دَارَهُ وَلاَ يَحْتَرِزُ مِنْهُ مِثْلَمَا دَرَجَ عَلَيْهِ مَعَ الآخَرِينَ .

وَلَكِنَّهَا فَهِمَتْ فِي يَوْمٍ مِنَ الأَيَّامِ أَنَّ الأَمْرَ أَخْطَرُ مِـماَّ تَتَصَوَّرُ إِذْ عَلِمَتْ مِنْ أُمِّهَا مَا تُدَبِّرُهُ « سُكَيلَة » فِي سَبِيلِ الزَّوَاجِ « بالطَّاهِر » . فَكَانَتِ الصَّدْمَةُ كَبِيرَةً وَلَكِنْ مَا حِيلَتُهَا هِيَ وَأُمُّهَا أَمَامَ غَطْرَسَةِ « الطَّاهِر » وَعَجْزِ « زُبَيْدَة » عَنْ مُوَاجَهَتِهِ



عائشة

وَالاسْتِنْجَادِ بِمَنْ هُوَ أَقْوَى مِنْهُ فِي عَائِلَتِهِ : لاَ حَوْلَ لَهَا وَلاَ قُوَّةَ أَمَامَ زَحْفِ « سُكَيْلَة » وَأَبْنَائِها وَأَمَامَ تَصْمِيمِ « الطَّاهِر » عَلَىَ إِرْضَاءِ شَهَوَاتِهِ وَتَعْدِيدِ مَوَارِدِهِ عَنْ طَرِيقِ ٱلْـمِنَحِ ٱلْعَائِلِيَّةِ الَّتِي سَتَزْدَادُ بِكَفَالَتِهِ لأَبْنَاءِ « سُكَيلَة » وَمَا سَتُنْجِبُهُ مِنْهُ .

وَنَزَلَتِ الصَّاعِقَةُ فِي يَوْمٍ مِنَ الأَيَّامِ عَلَىَ ٱلْعَائِلَةَ وَجَعَلَتْهَا فِي ذُهُولٍ مِنْ أَمْرِهَا وَصَادَفَ ذَلِكَ دُخُولُ جُيُوشِ ٱلْخُلَفَاءِ بِتُونِسَ . وَكَانَتْ هَذِهِ الصَّاعِقَةُ لَهَا ضَرَبَاتٌ ثَلاَثٌ : قَرَارُ « الطَّاهِر » بِالتَّحَوُّلِ إِلَىَ قَرْيَتِهِ لأَنَّهُ عُيِّنَ بِقَبَاضَتِهَا مِنْ قِبَلِ إِدَارَتِهِ وَنَبَأُ سِجْنِ « النَّاصر » إِثْرَ جَرِيمَةٍ أَخْلاَقِيَّةٍ وَقَرَارُ رَبِّ ٱلْعَائِلَةِ ٱلْـمُتَمَثِّلِ فِي زَوَاجِهِ « بِسُكَيْلَة » .

كَيْفَ يُـمْكِنُ لِهَؤُلاَءِ ٱلْـمُسْتَضْعَفِينَ أَنْ يَقِفُوا أَمَامَ هَذِهِ الزَّلاَزِلِ . كُلُّ شَيْءٍ اِنْقَلَبَ رَأْسًا عَلَىَ عَقِبٍ : ٱلْبِلاَدُ بِالْحَرْبِ الدَّائِرَةِ فِيهَا ثُمَّ بِتَنْكِيلِ ٱلْفِرَنْسِيِّينَ بِالتُّونسِيِّينَ سِجْنًا وَتَقْتِيلاً وَتَشْرِيدًا عِنْدَ دُخُولِ ٱلْخُلَفَاءِ وَالْعَائِلَةُ بِتَصَرُّفِ « الطَّاهِر » الأَخْرَقِ الَّذِي لَمْ يُرَاعِ مَا يَحْدُثُ حَوْلَهُ مِنْ أَهْوَالٍ تُصِيبُ مُوَاطِنِيهِ وَأَقَارِبِهِ وَحَتَّى اِبْنِهِ « الناصر » ؟

كُلُّ هَذَا زَلْزَلَ فِي عَائِشَةَ إِيمانَهَا بِالْحَيَاةِ وَبِالنَّاسِ وَبِالْقَدَرِ ، وَزَادَهَا تَشَاؤُمًا عَلَىَ تَشَاؤُمِهَا بَعْدَ أَنْ كَانَتْ تِلْكَ ٱلْفَتَاةَ الضَّحُوكَ ، الـمِمْرَاحَةَ ٱلْـمُسْتَقْبِلَةَ لِلْحَيَاةِ بِكُلِّ تَفَاؤُلٍ وَفَرْحَةٍ .

وَلَقَدْ زَادَ قَلْبُهَا غَماً عَلَىَ غَمٍّ عِنْدَمَا زَارَتْ مَعَ أُمِّهَا أَخَاهَا « النَّاصر » فِي السِّجْنِ وَرَأَتْهُ فِي حَالَةٍ يُرْثَى لَـهَا مِنَ ٱلْيَأْسِ وَالتَّشَاؤُمِ وَالنَّقْمَةِ عَلَىَ حَظِّهِ النَّكِدِ .

أَمَّا أُمُّهَا « زُبَيْدَة » فَقَدْ هَزَّتْهَا الزِّيَارَةُ الأُولَىَ إِلَىَ السِّجْنِ هَزَّةً مُرِيعَةً وَخَرَجَتْ مِنْ لاَمُبَالاَتِهَا وَبَكَتْ بِالدِّمَاءِ عَلَىَ اِبْنِهَا وَعَلَىَ « عَادِل » الَّذِي وَجَدَهُ « النَّاصر » فِي السِّجْنِ .

لَمْ يَبْقَ « عَادِل » ذَلِكَ ٱلْمُقَرَّبَ مِنْ عَائِلَةِ ٱلْـمَلِكِ بَعْدَ نَفْيِ « ٱلْـمُنْصِف بَاي » عِنْدَ دُخُولِ ٱلْحُلَفَاءِ وَبَعْدَ ضَيَاعِ ثَرْوَتِهِ فِي ٱلْقِمَارِ. وَكَانَ يُذِيعُ أَصْحَابُهُ ٱلْعَطُوفُونَ عَلَيْهِ أَنَّهُ سُجِنَ لِأَنَّهُ وَطَنِيٌّ وَتَخَلَّى عَنْهُ ٱلْبَايُ الجَدِيد خَوْفًا مِنْ فِرَنْسَا وَٱلْحَقِيقَةُ هُوَ تَوَرُّطُهُ فِي قَضِيَّةِ قِمَارٍ وَفَسَادٍ .

وَهَكَذَا خَلاَ ٱلْجَوُّ « لِلطَّاهر » وَأَرْضَى شَهَوَاتِهِ فِي هَذِهِ ٱلْحَالَةِ ٱلْـمُضْطَرِبَةِ الَّتِي لَمْ يَبْقَ فِيهَا أَيُّ تُونسِيٌّ غَيْرُ مَشْغُولٍ بِعَنَتٍ أَصَابَهُ أَوْ مُصِيبَةٍ حَلَّتْ بِهِ أَوْ ضِيقٍ لَزِمَهُ وَحَيَّرَ عَقْلَهُ .

وَكَانَ « الطَّاهِر » يَخْشَى رُعُونَةَ « النَّاصر » وَلَكِنَّ الظُّرُوف سَاعَدَتْهُ ، وَأَلْقَتْ بِابْنِهِ فِي السِّجْنِ فَلَمْ يَعْمَلْ وَالِدهُ شَيْئًا لاخْرَاجِهِ مِنْهُ بَلْ كَانَ نَاقِماً عَلَيْهِ وَمُتَحَامِلاً أَشَدَّ التَّحَامُلِ ، وَلاَئِماً إِيَّاهُ عَلَى هَذِهِ الْوَرْطَةِ الَّتِي زَجَّ بِنَفْسِهِ فِيهَا .

وَرَحَلَ ٱلْجَمِيعُ مِنْ تُونسَ فِي يَوْمٍ مُـمْطِرٍ ، مُكْفَهِرِّ السَّمَاءِ مُرْعِدٍ ، مُبْرِقٍ وَتَوَجَّهُوا نَحْوَ ٱلْقَرْيَةِ لِسُكْنَى بَيْتٍ جَدِيدٍ سَيَجِدُونَ فِيهِ « سُكَيْلَة » الَّتِي بَنَى بِهَا « الطَّاهِر » مُنْذُ أَيَّامٍ وَكَذَلِكَ أَبْنَاءَهَا : « سَالم » وَ « الْهَادِي » وَ « فَاطِمَة » .

* * *

بَابُ الجَنَانْ

نَزَلَتِ ٱلْعَائِلَةُ فِي مَنْزِلٍ قَدِيمٍ ، إِكْتَرَاهُ « الطَّاهِر » بِثَمَنٍ زَهِيدٍ وَلَيْسَ بِهِ إِلاَّ غُرْفَتَانِ كَبِيرَتَانِ وَمَدْخَلٌ يُفْضِي إِلَى بَهْوٍ بِهِ دُكَّةٌ وَبَابٌ لِشِبْهِ غُرْفَةٍ بِلاَ نَافِذَةٍ .

وَلَكِنْ لِلْمَنْزِلِ فِنَاءٌ وَاسِعٌ تَرْكُضُ فِيهِ ٱلْخَيْلُ ، وَمَطْبَخٌ وَبَيْتُ خَلاَءٍ ، وَفِي رُكْنٍ مِنَ ٱلْـمَطْبَخِ « بَابُ الجُنَانْ » يَفْتَحُ عَلَى مَا يُسَمِّيهِ أَهْلُ ٱلْقَرْيَةِ « جِنَانْ » وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ بُسْتَانٍ فَسِيحِ الأَرْجَاءِ فِيهِ شَجَرُ التُّفَّاحِ وَالاِجَّاصِ وَالرُّمَّانِ وَاللَّوْزِ وَفِيهِ بَعْضُ ٱلْكُرُومِ وَٱلْخُضرَ وَشَجَرِ التِّينِ .

وَهَكَذَا لَمْ يَكُنْ لِلْعَائِلَةِ فِي ٱلْوَاقِعِ إِلاَّ غُرْفَتَانِ مُتَقَابِلَتَانِ مِنَ النَّمَطِ ٱلْقَدِيمِ ، ذَاتُ « قَبْوٍ وَمَقَاصِرَ » ضَاعَتْ مِنْهُمَا « ٱلْـمَقَاصِرُ » يَسْكُنُ فِي الأُولَى « الطَّاهِر » مَعَ زَوْجَتِهِ وَأَبْنَائِهَا وَفِي الثَّانِيَةِ « زُبَيْدَة » وَصُحْبَتُهَا أَبْنَاؤُهَا .

وَكَانَتْ غُرْفَةُ « الطَّاهِر » مُتَرَامِيَةَ الأَطْرَافِ بِهَا فِرَاشَانِ عَالِيَانِ مِنَ ٱلْخَشَبِ تَحْتَهُمَا مَخْبَآنِ لِلأَثَاثِ ، وَشَتِيتِ الأَشْيَاءِ يُـنْفَذُ إِلَى الْـمَخْبَإِ الَّذِي بِهِ فِرَاشُ الأَبْنَاءِ مِنْ بَابٍ صَغِيرٍ يُفْتَحُ عِنْدَ ٱلْحَاجَةِ لِلْخُرُوجِ إِلَى ٱلْفِنَاءِ .

وَلاَبُدَّ أَنَّ ٱلْغُرْفَةَ كَانَتْ فِي أَوَّلِ أَمْرِهَا تُحْفَةً فَنِّيَةً بِالنُّقُوشِ ٱلْمَوْجُودَةِ ، وَأَجْـزَاءِ الرُّسُومِ الظَّاهِرَةِ عَلَى الأَخْشَابِ ، وَلَكِنَّ الزَّمَنَ ٱلْـمَرْفُوقَ بِآفَةِ ٱلْغَفْلَةِ وَالتَّهَاوُنِ أَضَرَّ بِالْغُرْفَةِ وَأَفْسَدَ وَجْهَهَا وَطَعَنَ وَسَامَتَهَا بِخِنْجَرِ الاِهْمَالِ ، فَانْقَلَبَتِ الطَّعَنَاتُ ضَفَائِرَ تَنْحَلُّ فِي صَمْتِ الاِنْهِيَارِ ، وَتَتَهَافَتُ تَحْتَ لَمَسَاتِ رَفِيقِ التَّلاَشِي وَمَيِّتِ الاِنْتِهَاءِ فَتَئِنُّ بِأَنِينِ خَشَبِهَا ، وَتَدْمَعُ عَيْنُهَا بِدَفْقِ رُطُوبَتِهَا ، وَيِتَنَاثَرِ جِلْدِهَا فِي أَنَاةٍ ضِيقًا بِالْحَيَاةِ وَتَعَبًا أَلِيمًـا .

أَمَّا شِبْهُ ٱلْغُرْفَةِ فَيَخْتَلِي فِيهَا الذُّكُورُ مِنَ الاخْوَةِ وَالأَرِبَّةِ مِنْ حِينٍ إِلَى آخَرَ، فَيَلْتَئِمُ جَمْعُهُمْ شِجَارًا تَارَةً، وَلَعِبًا بَرِيئًا وَغَيْرَ بَرِيءٍ تَارَةً أُخْرَى. فَهْيَ كَقِدْرِ «الْبَبُّوشِ» (الْحَلَزُونِ) يَأْكُلُ بَعْضُهُ بَعْضًا.

وَلَمْ يَكُنْ «لِزُبَيْدَةَ» وَأَبْنَائِهَا، عَدَا «النَّاصر» ٱلْـمَوْجُودِ فِي السِّجْنِ، إِلاَّ أَنْ يَنْسَجِمُوا مَعَ ٱلْحَيَاةِ ٱلْجَدِيدَةِ: «زُبَيْدَةَ» أُحِيلَتْ عَلَى التَّقَاعُدِ الزَّوْجِيِّ وُجُوبًا، وَأَصْبَحَتْ عَلاَقَاتُهَا مَعَ «الطَّاهِرِ» عَلاَقَاتِ جِوَارٍ، فِيهَا التَّقْدِيرُ وَٱلْـمَحَبَّةُ حِينًا، وَالسُّخْطُ وَالاحْتِقَارُ وَعَدَمُ ٱلْـمُبَالاَةِ أَحْيَانًا أُخَرَى.

فَحَالَةُ جَوِّ ٱلْعَلاَقَاتِ بَيْنَ «الطَّاهِرِ» وَ«زُبَيْدَةَ» رَهِينَةُ التَّيَّارَاتِ ٱلْبَارِدَةِ وَٱلْحَارَّةِ الَّتِي تَهُبُّ بَيْنَ الزَّوْجَةِ ٱلْقَدِيمَةِ وَضَرَّتِهَا، فَهْيَ إِمَّا أَنْ تَكُونَ لُعْبَةً لِلْعَوَاصِفِ ٱلْكَاسِحَةِ، ٱلْـمُزَلْزِلَةِ، ٱلْـمُحْرِقَةِ أَوْ نَهْبَةَ الرَّخَاءِ مِنَ الرِّيَاحِ الدَّافِعَةِ عَلَى الضَّحِكِ وَالسُّخْرِيَّةِ مِنَ «الطَّاهِرِ» وَنَزَوَاتِهِ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ.

أَمَّا «عَائِشَةَ» فَهْيَ، وَقَدْ شَارَفَتِ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمُرِهَا، تَمُرُّ بِالْـمَرْحَلَةِ الثَّالِثَةِ مِنْ حَيَاتِهَا: فَطَوْرُ قَضَتْهُ فِي قَصْرِ «الْفَرِيك» تَحُفُّ بِهَا النِّعْمَةُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَيَغْمُرُهَا جَوٌّ مِنَ ٱلْفَنِّ وَالسُّمُوِّ، وَالرِّفْعَةِ وَالتَّقْوَى جَعَلَ مَلاَمِحَهَا تَتَرَبَّى عَلَى الرِّقَّةِ وَالنَّظْرَةِ ٱلْمَلِيئَةِ حَنَانًا وَذَكَاءً. وَطَوْرُ قَضَتْهُ فِي حَيٍّ قُرْبَ نَهْجِ ٱلْبَاشَا، تَشْهَدُ وَهْيَ صَامِتَةٌ شَرِيطَ ٱلْحَيَاةِ ٱلْيَوْمِيَّةِ الشَّعْبِيَّةِ بِحُلْوِهَا، وَمُرِّهَا، بِمُفْرِحِهَا وَمُحْزِنِهَا، بِسَفْسَافِهَا وَعَمِيقِهَا، وَتَعِيشُ سَيْرَ الزَّمَنِ فِي «الْعُلُوِّ» بَيْنَ مَجَالِسِ ٱلْعَجَائِزِ، وَهَيْعَاتِ وَالِدِهَا وَنَزَغَاتِ أَخِيهَا «النَّاصر».

لَقَدْ عَلَّمَتْهَا ٱلْحَيَاةُ أَنْ تَسْكُتَ وَلاَ تَنْبِسَ بِكَلِمَةٍ مِماَّ يَدُورُ بِخَلَدِهَا. فَهْيَ دَائِماً تَظْهَرُ فِي غَفْلَةٍ عَماَّ يَشْغَلُ بَالَ أَهْلِهَا، فَلاَ تَصِيحُ وَلاَ تَفْرَحُ، وَلاَ تَهْتَزُّ لِنَبَإٍ مِنَ الأَنْبَاءِ، وَلاَ حَادِثَةٍ مِنَ الأَحْدَاثِ، مَلْجَؤُهَا ٱلْـمُشَاهَدَةُ وَالأَمَلُ، ثُمَّ مِنْ وَقْتٍ إِلَى آخَرَ، ٱلْبُكَاءُ لِتُفَرِّجَ عَنْ نَفْسِهَا كُرْبَةً، أَوْ تَقْتُلَ رَغْبَةً مِلْحَاحَةً لَمْ تَدْرِ مَا هِيَ،

تُذَكِّرُهَا فِي مَصْدَرِهَا بِمَا كَانَتِ ٱلْعَجَائِزُ يَجِدْنَهُ مِن ارْتِيَاحٍ عِنْدَ حَدِيثِهِنَّ الشَّهْوَانِيِّ .

وَهَا هِيَ ٱلْيَوْمَ تَدْخُلُ طَوْرًا آخَرَ مِنْ حَيَاتِهَا لاَ تَرَى فِيهِ ٱلْحَيَاةَ ٱلْحَضَرِيَّةَ ٱلْـمَلِيئَةَ بِجَلَسَاتِ ٱلْعَشَايَا ، وَٱلْحَفَلاَتِ ، وَزِيَارَاتِ الأَحِبَّاءِ وَالاصْدِقَاءِ وَلاَ زِحَامَ الشَّـارِعِ وَضَوْضَاءَ ٱلْمَدِينَةِ . فَهْيَ مَسْجُونَةٌ فِي هَذِهِ الدَّارِ لاَ خُرُوجَ وَلاَ دُخُولَ اللَّهُـمَّ إِلاَّ ٱلْمُتَنَفَّسَ ٱلْوَحِيدَ : « بَاب الجِنَانْ » الَّذِي أَصْبَحَ بِـمَثَابَةِ بَابِ ٱلْجَنَّةِ مِنْهُ تَنْفَذُ النِّسَاءُ إِلَى فُسْحَةٍ فِيهَا ٱلْخُضْرَةُ وَٱلْجَرْيُ وَالرَّقْصُ وَاللَّعِبُ وَتَعَاطِي الْفِلاَحَةِ .

وَبَقِيَتِ ٱلْعَائِلَةُ فِي هُدُوءٍ مُدَّةَ شَهْرَيْنِ ، إِنْتَقَلَتْ إِثْرَهُمَا إِلَى ٱلْمَصِيفِ فِي بَيْتٍ يَكَادُ يَكُونُ عَلَى نَفْسِ النَّمَطِ ، وَلَكِنَّهُ وَسَطَ بُسْتَانٍ كَبِيرٍ فِيهِ مِنَ الْغِلاَلِ مَا لَذَّ وَطَابَ وَفِيهِ أَيْضًا « بَابْ الجَنَّانْ » يَنْتَشِرُ مِنْهُ أَفْرَادُ ٱلْعَائِلَةِ بَيْنَ ٱلْكُرُومِ وَأَشْجَارِ التِّينِ وَاللَّوْزِ وَالرُّمَّانِ وَالتُّفَّاحِ وَالإِجَّاصِ .

* * *

وَكَانَ « أَبَيْ مُحَمَّد » الَّذِي بَلَغَ مِنَ الْكِبَرِ عُتِيًّا لَمْ يَبْقَ ذَلِكَ الرَّجُلَ الْجَرِيءَ الْـمُطَّلِعَ عَلَى الأُمُورِ ، الْـمُسَيْطِرَ عَلَى أَهْلِهِ ، وَالنَّافِذَ ٱلْكَلِمَةِ بَلْ أَصْبَحَ يَخْلِطُ دَائِماً ٱلْجِدَّ بِالْـهَزْلِ وَٱلْحَقِيقَةَ بِالْخَيَالِ حَتَّى نَفَرَ مِنْهُ ٱلْكِبَارُ وَاسْتَطَابَ حَدِيثَهُ الصِّغَارُ .

وَلَكِنَّهُ اِحْتَفَظَ بِسِرٍّ وَاحِدٍ بَقِيَ يَهَابُهُ مِنْ أَجْلِهِ ٱلْجَمِيعُ وَهْيَ ٱلْغُولَةُ « حَلِيمة » . لأَنَّ « أَبَيْ مُحَمَّد » لَهُ حَلِيمَتُهُ أَيْضًا وَهْيَ حَارِسَةُ « الجِنَان » خَاصَّةً فِي ٱلْقَيْلُولَةِ وَاللَّيْلِ . وَمِنْ غَرِيبِ الأَمْرِ أَنَّ الْكِبَارَ وَالصِّغَارَ إِعْتَقَدُوا ذَلِكَ اِعْتِقَادًا بَاتًّا وَأَصْبَحَ يَخْشَى ٱلْوَاحِدُ مِنْهُمْ ٱلْخُرُوجَ إِلَى « الجَنَانِ » وَحْدَهُ .

وَالْغُولَة « حَلِيمَة » تَسْكُنُ شَجَرَةَ التِّينِ ٱلْعَظِيمَةِ وَهْيَ تَظْهَرُ فِي صُورَةِ عَجُوزٍ تُكَشِّرُ عَنْ أَنْيَابِهَا ، وَتَنْتَقِلُ بِسُرْعَةٍ مِنْ مَكَانٍ إِلَى آخَرَ ، وَلاَ يَشْعُـرُ الانْسَـانُ إِلاَّ بِحَفِيفٍ قَلِيلٍ أَوْ هَفَّةٍ عَابِرَةٍ أَوْ خَشْخَشَةٍ مُرِيبَةٍ .

وَنَجَحَ « أَبَيْ مُحَمَّد » أَكْبَرَ نَجَاحٍ فِي نَقْشِ هَذِهِ الأُسْطُورَةِ فِي الأَذْهَانِ ، لِيَمْنَعَ

الصِّغَارَ وَالْكِبَارَ مِنْ جَنْيِ الثِّمَارِ إلاَّ بِإِذْنِهِ ، وَيَتَمَكَّنَ مِنَ الاخْتِلاَءِ بِنَفْسِهِ بِدُونِ أيِّ إزْعَاجٍ . إذْ « لِلْغُولَةِ حَلِيمَة » ٱلْقُدْرَةُ عَلَى ٱلْفَتْكِ بِمَنْ يُوقِظُ « أُبَيْ مُحَمَّدْ » وَهْوَ نَائِمٌ تَحْتَ الشَّجَرَةِ أَوْ يُقْلِقُهُ بِالسُّؤَالِ عَنْ دَوَاءٍ مِنَ الأَدْوِيَّةِ أَوْ مَرْهَمٍ مِنَ ٱلْمَرَاهِمِ لأَنَّهُ عُرِفَ بِامْتِلاَكِ بَعْضِ الأَسْرَارِ الطِّبِّيَّةِ .

وَكَانَتِ « ٱلْغُولَة حَلِيمة » تُزْجِي وَقْتَهَا بِغَزْلِ الصُّوفِ فَوْقَ رَأْسِ « أُبَيْ مُحَمَّدْ » وَهْوَ يَغُطُّ فِي نَوْمِهِ أَوْ يَتَمَلَّى تَنَقُّلَ ٱلْعَصَافِيرِ مِنْ مَكَانٍ إلَى آخَرَ أَوْ يَرْقُبُ حَزْمَ النَّمْلِ ٱلْمُنْتَشِرِ أَمَامَهُ .

تَأَقْلَمَتْ « عَائِشَة » مَعَ هَذِهِ ٱلْحَيَاةِ وَلَبِسَتِ ٱلْـمُلاَءَةَ فِي بَعْضِ ٱلأَحْيَانِ وَوَجَدَتْ فِيهَا رَاحَةً وَفُرْصَةً لِلاتِّقَاءِ خَاصَّةً مِنْ نَظَرَاتِ « سَالِم » ٱلْـمُتَفَحِّصَةِ لِقَوَامِهَا فِي ٱلْفُسْتَانِ ، وَٱلْـمُتَلَهِّفَةِ لاِسْتِشْفَافِ مَفَاتِنِهَا ، وَخَوْفًا مِنْ مُلاَحَظَاتِ « أُبَيْ مُحَمَّد » ٱلْحَامِضَةِ .

وَلَكِنَّ « أُبَيْ مُحَمَّدْ » لَمْ يَلْبَثْ فِي ذَلِكَ الصَّيْفِ أَنْ غَادَرَ هَذِهِ الدُّنْيَا رُبَّمَا أَسَفًا وَحُزْنًا عَلَى مَا آلَ إلَيْهِ « الطَّاهر » أَوْ كِبَرًا فَقَطْ . وَٱلْمُهِمُّ أَنَّ ٱلْعَائِلَةَ لَمْ تَسْمَعْ شَيْئًا مِمَّا تَعَوَّدَهُ « أُبَيْ مُحَمَّد » مِنْ صَرَاحَةٍ فِي مِثْلِ هَذِهِ الأَحْوَالِ بَلْ كَانَ يَكْتَفِي بِالْقَوْلِ إلَى « الطَّاهِر » :

ـ إعْمَلْ مَا بَدَا لَكَ الآنَ فَلَمْ يَبْقَ لِي فِي هَذِهِ ٱلْحَيَاةِ إلاَّ أَيَّامٌ قَلِيلَةٌ .

فَيُجِيبُهُ « الطَّاهِر » :

ـ اللَّهُ يُطَوِّلُ فِي عُمْرِكَ يَا وَالِدِي ، وَلاَ يُرِيكَ مَكْرُوهًا فِي هَذِهِ ٱلْحَيَاةِ ٱلْـمُتَقَلِّبَةِ الصَّعْبَةِ ٱلْيَوْمَ .

وَخَلاَ ٱلْجَوُّ « لِلطَّاهِر » بِمَوْتِ وَالِدِهِ ، وَأَصْبَحَ طَاغِيَةً فِي تَصَرُّفَاتِهِ مَعَ أَهْلِهِ ، لاَ يَسْمَحُ بِالاصْدَاعِ بِأَيِّ رَأْيٍ وَلاَ أَيَّةِ مُلاَحَظَةٍ حَتَّى « سُكَيْلَة » فَهْيَ تَرْتَعِشُ مِنْهُ ارْتِعَاشًا ، وَتَخَافُ مِنْ أَنْ يَتَلَفَّظَ لَـهَا بِتِلْكَ ٱلْكَلِمَةِ النَّازِلَةِ عَلَى رَقَبَـةِ كُلِّ إمْـرَأَةٍ


سكيه

كَالسَّيْفِ الْـمَسْلُولِ :

ـ أَنْتِ طَالِقٌ .

وَرَاحَتْ « سُكَيْلَةُ » تُقَلِّلُ مِنَ النِّزَاعَاتِ ، وَتَخْشَى عَلَى أَبْنَائِهَـا أَنْ يُلْقِـيَ بِهِـمُ « الطَّاهِر » فِي الشَّارِعِ . فَلاَ تَسْمَعُ مِنْهَا إِلاَّ :

ـ إِيهْ يَا سُوَيْدِي ... نَعَمْ يَا سُوَيْدِي ... اللَّهُ يُبَارِكُ يَا سِيدِي ، وَلَكِنَّهَا بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ اللَّيِّنَةَ عَرَفَتْ كَيْفَ تَصِلُ إِلَى مُبْتَغَاهَا مِنَ « الطَّاهِر » بِدُونِ ضَجَّةٍ كَبِيرَةٍ وَلاَ هَيْعَةٍ مُثِيرَةٍ لِلْغُبَارِ .

وَنَظَّمَ « الطَّاهِر » حَيَاتَهُ بَيْنَ ٱلْعَمَلِ فِي الادَارَةِ الصَّغِـيرَةِ وَٱلْـمَشْيِ مَسَافَـاتٍ طَوِيلَةٍ مَعَ عَامَّةِ النَّاسِ ، هُرُوبًا مِنَ الأَعْيَانِ وَكَذَلِكَ الأَكْلِ الطَّيِّبِ وَقَدْ تَحَسَّنَ الرَّاتِبُ مِنْ جَرَّاءِ الزِّيَادَاتِ وَٱلْـمِنَحِ ٱلْعَائِلِيَّةِ ، وَاهْتَـمَّ « بِالجُنْـانِ » يُغْـدِقُ عَلَيْهِ الأَمْـوَالَ الطَّائِلَـةَ مِنْ دُونِ مَرْدُودٍ كَبِـيرٍ ، وَأَكْثَـرَ مِنْ شِرَاءِ ٱلْكُتُـبِ لِلْمُطَالَعَـةِ وَٱلْـمُذَاكَرَةِ .

فَحَيَاةُ « الطَّاهر » أَصْبَحَتْ مَلأَى لاَ تَشْكُو فَرَاغًا ، وَلاَ تَعَطُّلاً فِي الظَّاهِرِ . وَلَكِنْ تَسْكُنُ فِيهَا بَوَادِرُ الانْحِرَافِ النَّاتِجَةِ عَنِ التَّفَرُّدِ بِالـرَّأْيِ وَالابْتِعَـادِ عَنْ كُلِّ مَنْ بِإِمْكَانِهِ أَنْ يُعَرِّفَهُ بِوَجْهٍ آخَرَ لِلْحَقِيقَةِ كَمَا يَرَاهَا ، فَهُوَ يَتَحَاشَى الْـمُثَقَّفِينَ وَالأَعْيَانَ وَلاَ يُـمَاشِيهِـمْ ، وَهُوَ الَّذِي لاَ يُرِيدُ ٱلْجُلُوسَ فِي ٱلْـمَقَاهِي وَالأَمَاكِنِ ٱلْعَامَّةِ ، إِلاَّ مَعَ السُّذَّجِ مِنَ النَّاسِ ٱلْقَانِعِينَ بِسِقَارَةٍ يَبْتَزُّونَهَا أَوِ الطَّامِعِينَ فِـي أُكْلَةٍ دَسِمَةٍ شَهِيَّةٍ مِنْ أَيْدِي « التُّونِسِيَّةِ » يُشْبِعُونَ بِهَا بُطُونَهُمْ ٱلْجَائِعَةَ ، وَكَانَ يَلَذُّ لَهُ أَيْضًا أَنْ يُرَافِقَ الشُّبَّانَ فَيَبْهَرُهُمْ بِمَا حَفِظَهُ مِنْ جَيِّدِ الشِّعْرِ وَشَيِّقِ الأَخْبَارِ الأَدَبِيَّةِ .

أَمَّا « سَالِم » فَكَانَ لَيِّنَ ٱلْعَرِيكَةِ ، أَنِيقًا فِي « بُلُوزَتِهِ » تَتَدَفَّقُ مِنْ عَيْنَيْهِ طِيبَةٌ يَطْمَئِنُّ لَهَا النَّاظِرُ وَيَخْدَعُ بِهَا ٱلْغَافِلُ . أَظْهَرَ لِلْعَائِلَةِ كُلِّهَا تَقْدِيرًا فَائِقًا ، وَتَمَيَّزَ فِي نَظَرِ « الطَّاهِر » بِحُبِّهِ لِلْكُتُبِ وَٱلْـمُطَالَعَةِ وَٱنْعِكَافِهِ عَلَى ٱلْـمُذَاكَرَةِ . وَٱشْتَهَـرَ بِذَلِكَ ،

وَمَالَتْ إِلَيْهِ « عَائِشَة » وَأَصبَحَتْ تَسْمَعُ مِنْهُ ٱلْحِكَايَاتِ ، وَهُوَ يَقُصُّهَا أَمَامَ « زُبَيْدَة » وَأُمِّهِ « سُكَيْلَة » . وَفِي بَعْضِ الأَحْيَانِ يَتَّخِذُ مِنْ شَجَرَةِ التِّينِ ٱلْكَبِيرَةِ ٱلْمُظَلِّلَةِ ، ٱلْوَاقِعَةِ أَمَامَ بَابِ « ٱلْجِنَانِ » مَوْطِنًا لِلرَّاحَةِ وَٱلْـمُطَالَعَةِ . وَمِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ كَانَ « سَالِم » يُشْرِفُ عَلَىَ كُلِّ مَا فِي الدَّارِ إِذَا كَانَ بَابُ « ٱلْجِنَانِ » مَفْتُوحًا .

وَتَعَوَّدَتْ « عَائِشَة » أَنْ تَرْكَنَ عَلَىَ مَرْأًى وَمَسْمَعٍ مِنَ ٱلْجَمِيعِ إِلَىَ ٱلْجُلُوسِ قُرْبَ « سَالِم » لِتَسْتَمِعَ إِلَىَ ٱلْحِكَايَاتِ وَٱلْخُرَافَاتِ . وَحَرِصَ « سَالِم » عَلَىَ جَمْعِ النُّصُوصِ الشَّبَقِيَّةِ فِي كُرَّاسٍ أَخَذَهَا مِنْ أَلْفِ لَيْلَةٍ وَلَيْلَةٍ ، وَالدَّوَاوِينِ الشِّعْرِيَّةِ ، وَالنَّوَادِرِ وَٱلْمُلَح . وَأَخَذَ مِنْهُ هَذَا ٱلْعَمَلُ وَقْتًا طَوِيلاً أَكْسَبَهُ شُهْرَةَ ٱلْـمُنْكَبِّ عَلَىَ ٱلْكُتُبِ ، ٱلْوَلُوعِ بِالْـمُطَالَعَةِ وَٱلْـمُذَاكَرَةِ . وَكَمْ مِنْ صَاحِبِ شُهْرَةٍ لَيْسَ لَهُ مِنْهَا غَيْرُ بَرِيقِ ٱلْقِشْرَةِ أَمَّا اللُّبُّ فَهْيَ مِنْهُ خَوَاءُ . وَعَلَىَ كُلٍّ فَقَدْ أَتَاحَتْ لَهُ هَذِهِ النَّزْعَةُ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَىَ عَشَرَاتِ ٱلْكُتُبِ مِنْ أُمَّهَاتٍ وَغَيْرِهَا حَتَّى ٱلْقُرْآنُ ٱلْكَرِيمُ لَمْ يَسْلَمْ مِنْ هَذِهِ النَّزْعَةِ وَالأَحَادِيثُ النَّبَوِيَّةُ سَلَخَهَا سَلْخًا لِيَجِدَ فِيهَا مُبْتَغَاهُ . وَيَظْهَرُ أَنَّهُ ظَفِرَ بِـمَطْلُوبِهِ وَبِأَكْثَرَ مِمَّا كَانَ يَتَوَقَّعُ .

وَٱحْتَالَ « سَالِم » عَلَىَ ٱلْجَمِيعِ فَوَضَعَ ٱلْكُرَّاسَ فِي كِتَابٍ يَفْتَحُهُ عِنْدَ إِرَادَتِهِ التَّضْلِيلَ.أَمَّا إِذَا اِخْتَلَىَ « بِعَائِشَة » تَحْتَ شَجَرَةِ التِّينِ فَإِنَّهُ يَسْرُدُ عَلَيْهَا ٱلْحِكَايَاتِ الَّتِي تُثِيرُ فِي نَفْسِهَا تَطَلُّعًا كَبِيرًا ، وَتَجْعَلُهَا مَرَّةً ضَاحِكَةً ، وَمَرَّةً سَاهِمَةً أَمَامَ هَوْلِ مَا يَقُولُهُ لَهَا ، وَمَا يَتَلَفَّظُ بِهِ فِي بَعْضِ الأَحْيَانِ ، تَعْلِيقًا عَلَىَ الْخَبَرِ ، مِنْ كَلاَمٍ بَذِيءٍ .

وَأَصْبَحَتْ « عَائِشَة » سَجِينَةً « لِسَالِم » وَهْيَ حَبِيسَةُ هَذِهِ ٱلْحِكَايَاتِ الشَّبَقِيَّةِ . فَقَدْ كَانَ مَجْلِسُ ٱلْعَجَائِزِ أَقَلَّ فُحْشًا وَأَكْثَرَ إِشَارَةً وَتَلْمِيحًا . وَاسْتَطَابَتْ « عَائِشَة » هَذِهِ ٱلْجَلَسَاتِ فِي آخِرِ الأَمْرِ ، وَتَعَوَّدَتْهَا وَزَالَتْ عَنْهَا النُّفْرَةُ وَٱطْمَأَنَّتْ لِعَيْنَيْ « سَالِم » وَأَحَبَّتْهُ فِي آخِرِ الأَمْرِ ، وَبَادَلَهَا ٱلْحُبَّ وَٱلْوُعُودَ بِالزَّوَاجِ .

وَاعْتَادَتِ النِّسَاءُ عِنْدَمَا تَنْتَقِلُ ٱلْعَائِلَةُ إِلىَ ٱلْـمَصِيفِ أَنْ يَذْهَبْنَ إِلىَ ٱلْبَحْرِ فِي اللَّيْلِ لِلسِّبَاحَةِ أَوْ يَوْمَ ٱلْجُمُعَةِ ، عِنْدَمَا يَنْتَقِلُ الرِّجَالُ فِي الصَّبَاحِ إِلىَ سُوقِ ٱلْقَرْيَةِ . فَتَنْتَشِرُ النِّسَاءُ وَٱلْبَنَاتُ عَلىَ شَاطِىءِ ٱلْبَحْرِ لاَ يَرْقُبُهُنَّ أَحَدٌ إِلاَّ بَعْضُ الشُّيُوخِ ٱلْـهَرِمِينَ مِنْ بَعِيدٍ .

أَمَّا فِي اللَّيْلِ فَإِنَّ النِّسَاءَ يُرَافِقُهُنَّ شَيْخٌ كَبِيرُ السِّنِّ وَٱخْتَارَ « الطَّاهِر » لِحَرِيمِهِ « ٱلْعَمّ صَالِح » الَّذِي كَانَ يَسْتَطِيبُ ذَلِكَ لأَنَّهُ مُغْرَمٌ بِمُجَالَسة النِّسَاءِ وَمُحَادَثَتِهِنَّ وَٱلْـمَزْحِ مَعَهُنَّ . وَاسْتَعَانَ هَذَا الشَّيْخُ « بِسَالِم » الشَّابِّ الَّذِي مَا زَالَ لاَ يُخْشَى مِنْهُ عَلىَ النِّسَاءِ كَثِيرًا فِي الظَّاهِرِ .

وَانْتَهَزَ « سَالِم » هَذِهِ ٱلْفُرْصَةَ وَهُوَ جَالِسٌ فِي لَيْلَةٍ ظَلْمَاءَ مَعَ « عَم صَالِح » لِيُمَرِّرَ يَدَهُ عَلىَ سَاقِ « عَائِشَة » وَهْيَ وَاقِفَةٌ تُخَاطِبُهُمَا وَيَتَوَغَّلُ صُعُدًا فِي مَفَاتِنِهَا .

وَأَحَسَّتْ « عَائِشَة » بِلَذَّةٍ لَمْ تَعْرِفْهَا مِنْ قَبْلُ تَدَاعَتْ لَـهَا بِجَوَارِحِهَا كُلِّهَا ، وَجَعَلَتْهَا سَاهِمَةً لاَ تُحِيرُ جَوَابًا وَلاَ تَعْرِفُ بِمَ سَتُوَاجِهُ هَذِهِ ٱلْجُرْأَةَ ٱلْـمُزَعْزِعَةَ لِكِيَانِهَا . وَأَقْبَلَتْ صُوَيحِبَاتُهَا ، وَٱبْتَعَدَتْ « عَائِشَة » وَرَجَعَ ٱلْجَمِيعُ فِي ضَحِكٍ وَجَرْيٍ وَرَكْضٍ إِلاَّ « عَائِشَة » فَقَدْ ثَقُلَتْ رِجْلاَهَا ، وَبَقِيَتْ تُجَارِي « ٱلْعَمّ صَالِح » فِي خُطُوَاتِهِ .

لَمْ تَنَمْ « عَائِشَة » فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ كَعَادَتِهَا ، وَهْيَ الَّتِي اِرْتَبَطَتْ مَعَ رَبِيبَتِهَا « فَاطِمَة » فَأَصْبَحَتَا مُتَلاَزِمَتَيْنِ وَرَضِيَتْ أُمُّهَا « زُبَيْدَة » وَ« سُكَيْنَة » بِأَنْ تَبِيتَ مَعَ « فَاطِمَة » فِي ٱلْفِرَاشِ ٱلْـمُقَابِلِ لِفِرَاشِ « الطَّاهِر » بَيْنَمَا تَعَوَّدَ الأَوْلاَدُ وَٱلْفَصْلُ صَيْفٌ أَنْ يَنَامُوا عَلىَ دَكَّةِ ٱلْبَهْوِ .

كَانَ النَّوْمُ قَبْلَ هَذَا ٱلْيَوْمِ يَغْشَى عَيْنَيْهَا بِسُرْعَةٍ هِيَ وَرَبِيبَتُهَا . وَلَكِنْ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ كَانَ عَسِيرًا عَلَيْهَا أَنْ تَنْسَى مَا ذَاقَتْهُ مِنْ لَذَّةٍ وَكَانَ مِنَ الصَّعْبِ أَنْ تَكْبِتَ مَا أَثَارَتْهُ فِيهَا مِنْ رَغْبَةٍ مُلِحَّةٍ فِي ٱلْـمُعَاوَدَةِ .

وَزَادَ فِي حَيْرَتِهَا مَا سَمِعَتْهُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ مِنَ أَصْوَاتٍ وَحَرَكَةٍ وَهَمْسٍ وَحَنْحَنَةٍ وَأَنْفَاسٍ مَلْهُوفَةٍ حَارَّةٍ وَهَزْهَزَةٍ لِلْخَشَبِ ، يَئِنُّ تَحْتَ وَطْأَةِ صَهِيلِ اللَّذَّةِ الآتِيَةِ مِنَ ٱلْفِرَاشِ ٱلْـمُقَابِلِ .

وَتَقَلَّبَتْ فِي فِرَاشِهَا إِلَى بُزُوغِ ٱلْفَجْرِ بَعْدَ أَنْ سَكَنَتِ الأَصْوَاتُ ، وَهَدَأَتِ الأَنْفَاسُ وَأَخَذَ عَيْنَيْهَا النَّوْمُ وَجَثَمَ عَلَيْهَا وَلَمْ تُفِقْ إِلاَّ عَلَى صَوْتِ « فَاطِمَة » وَهِيَ تَصِيحُ :

ـ قُمْ يَا « عَائِشَة » ... هَلْ أَنْكِ مَيِّتَةٌ أَمْ مَاذَا ؟ مَا هَذَا النَّوْمُ ! أُمُّك تُنَادِيكِ مُنْذُ زَمَانٍ ... هَيَّا ... إِنْهَضِي .

وَبَدَأَتْ تُدَغْدِغُهَا وَتُدَاعِبُهَا فَقَامَتْ « عَائِشَة » وَبَدَأَتَا تَتَلاَعَبَانِ كَالْقِطَّتَيْنِ الصَّغِيرَتَيْنِ فِي بَرَاءَةٍ وَطِيبَةِ نَفْسٍ .

وَلَمْ تَلْبَثْ أَنْ وَقَفَتْ « عَائِشَة » صَائِحَةً فِي فَاطِمَة :

ـ يَكْفِي لَقَدْ تَجَاوَزْتِ ٱلْحَدَّ .... هَذَا لَيْسَ بِاللَّعِبِ .... هَذَا عَمَلٌ قَبِيحٌ .

ـ مَا مَعْنَى هَذَا ... نَحْنُ نَلْعَبُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ هَذَا اللَّعِبِ مَا الَّذِي طَرَأَ عَلَيْكِ يَا « عَائِشَة » ؟

وَافْتَرَقَتَا .

* * *

وَبَعْدَ ذَلِكَ بِيَوْمَيْنِ دَخَلَ « الطَّاهِر » إِلَى ٱلْـمَنْزِلِ مُرْعِدًا ، مُزْبِدًا ، مُزَمْجِرًا ، صَائِحًا :

ـ ذَاكَ ٱلْكَلْبُ خَرَجَ مِنَ السِّجْنِ وَهُوَ آتٍ الآنَ .

وَأَحَسَّتْ « زُبَيْدَة » كَأَنَّ خِنْجَرًا غُرِسَ فِي قَلْبِهَا وَبَقِيَ أَفْرَادُ ٱلْعَائِلَةِ فِي سُهُومٍ تَامٍّ ثُمَّ تَفَرَّقُوا كَأَنَّهُمْ يَتَوَقَّعُونَ شَرًّا سَيَحِلُّ بِهِمْ وَكَأَنَّهُمْ قَطِيعٌ مِنَ ٱلْغَنَمِ أَحَسَّ بِقُدُومِ الذِّئْبِ .

وَدَخَلَ « النَّاصِرِ » بَعْدَ دَقَائِقَ وَهُوَ وَاجِمٌ وَتَوَجَّهَ رَأْسًا إِلَى غُرْفَةِ أُمِّهِ ، وَلَمْ يُسْمَعْ مِنْهُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلاَّ ٱلْبُكَاءُ بِصَوْتٍ عَالٍ تَحَوَّلَ إِلَى شَهِيقٍ . وَبَكَى كُلُّ مَنْ فِي الدَّارِ إِلاَّ « الطَّاهِرِ » الَّذِي نَادَى « سُكَيْنَة » وَصَاحَ بِصَوْتٍ عَالٍ بِحَيْثُ يَسْمَعُهُ كُلُّ مَنْ فِي ٱلْبَيْتِ :

ـ أَنْتِ طَالِقٌ ثَلاَثًا إِنْ أَنْتِ خَاطَبْتِ أَوْ خَاطَبَكِ هَذَا ٱلْكَلْبُ ٱلْكَرَّاكِجِي .

وَسَكَنَ كُلُّ شَيْءٍ فِي ٱلْبَيْتِ ، وَبَدَأَ أَفْرَادُهُ يَتَقَاطَرُونَ عَلَى « النَّاصِرِ » وَهُوَ فِي ٱلْغُرْفَةِ ، وَيُسَلِّمُونَ عَلَيْهِ وَيَتَعَرَّفُ إِلَى أَبْنَاءِ « سُكَيْنَة » الَّتِي بَقِيَتْ فِي غُرْفَتِهَا لاَ تَتَحَرَّكُ ، وَلاَ تَنْبُسُ بِبِنْتِ شَفَةٍ .

ثُمَّ شَعَرَ ٱلْجَمِيعُ بِحَرَكَةٍ فِي ٱلْفِنَاءِ وَإِذَا « بِزُبَيْدَة » تَجُرُّ مَعَهَا « النَّاصِر » مِنْ يَدِهِ وَتَتَّجِهُ إِلَى دَكَّةِ الْبَهْوِ حَيْثُ كَانَ « الطَّاهِرِ » جَالِسًا يُطَالِعُ كِتَابًا ، وَأَمَامَهُ عُدَّتُهُ مِنْ عُلَبٍ سَقَائِرَ مُنَوَّعَةٍ وَغِلاَفَاتٍ لَهَا ، وَ« مَبْسِمٍ » مُزَوَّقٍ بِالْفِضَّةِ وَحُقَّةِ نَفَّةٍ مُفَضَّضَةٍ وَقَارُورَةِ عِطْرٍ كَانَ يُعَطِّرُ بِهَا نَفَّتَهُ وَبِجَانِبِ كُلِّ هَذَا طُرْبُوشُهُ .

قَالَتْ زُبَيْدَة :

ـ هَذَا إِبْنُكَ جَاءَ يَبُوسُ يَدَكَ وَيَطْلُبُ مِنْكَ السَّمَاحَ .

وَلَمْ يُحَرِّكْ « الطَّاهِر » سَاكِنًا وَأَطْرَقَ مُتَمْتِمًا كَلِمَاتٍ فِيهَا السُّخْطُ ٱلْوَاضِحُ وَمَدَّ يَدَهُ فَقَبَّلَهَا « النَّاصِر » وَخَرَجَ بَاكِيًا .

وَاسْتَقَرَّ « النَّاصِر » فِي غُرْفَةِ أُمِّهِ وَأَخْرَجَ مِنْهَا كَافَّةَ إِخْوَتِهِ وَصَارَ يَتَصَرَّفُ فِي الدَّارِ بَعْدَ خُرُوجِ « الطَّاهِرِ » تَصَرُّفَ الطَّاغِيَةِ مَعَ اِسْتِعْمَالِ أَسَالِيبَ تَعَلَّمَهَا فِي السِّجْنِ وَحَذِقَهَا وَزَادَ عَلَيْهَا نَظَرًا إِلَى « ثَقَافَتِهِ » النِّسْبِيَّةِ .

وَٱعْتَقَدَ ٱلْجَمِيعُ أَنَّ « النَّاصِر » انْحَرَفَ عَنِ ٱلْجَادَّةِ وَأَصْبَحَ لاَ يَتَوَرَّعُ مِن اِسْتِعْمَالِ كُلِّ ٱلْوَسَائِلِ لِلْوُصُولِ إِلَى رَغَبَاتِهِ ، وَأَدْخَلَ ٱلْخَمْرَ إِلَى الدَّارِ ، وَجَعَلَ ٱلْغُرْفَةَ مَحَلاًّ لِتَدْخِينِ « التَّكْرُورِي » وَأَشَاعَ الرُّعْبَ فِي الذُّكُورِ وَٱلاِنَاثِ وَنَاوَأَ « سَالِم »

النّاصر

وَحَرَّمَ عَلَيْهِ ٱلْجُلُوسَ تَحْتَ شَجَرَةِ التِّينِ ، وَٱلْخُرُوجَ مَعَ « ٱلْعَمّ صَالِح » لِحِرَاسَةِ النِّسَاءِ فِي الشَّاطِىءِ وَٱلْـمُطَالَعَةَ بِالْقِرَاءَةِ ٱلْعَلَنِيَّةِ أَمَامَ ٱلْجَمِيعِ .

وَٱلْتَزَمَ « النَّاصِـر » ٱلْقُبُوعَ فِي الدَّارِ لأَنَّهُ لاَ يَعْرِفُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ ٱلْقَرْيَةِ وَخَوْفًا مِنَ التَّعْرِيضِ بِهِ وَالسُّخْرِيَّةِ مِنْهُ فَكَانَ يَبْقَى فِي ٱلْفِرَاشِ مُتَمَدِّدًا طُولَ النَّهَارِ عَارِيًا مُلْتَفًّا بِـمِلْحَفَةٍ وَإِذَا أَرَادَ ٱلْخُرُوجَ مِنَ ٱلْغُرْفَةِ لِقَضَاءِ بَعْضِ ٱلْحَاجَةِ أَوِ التَّدَخُّلِ فِـيمَا لاَ يَعْنِيهِ لَبِسَ جُبَّةً وَأَطَلَّ يَسْتَعْرِضُ عَضَلاَتِهِ فَيَتَحَاشَاهُ كُلُّ أَفْرَادِ ٱلْعَائِلَةِ .

أَمَّا فِي اللَّيْلِ فَإِنَّهُ يَسْهَرُ فِي ٱلْفِنَاءِ يَعُدُّ النُّجُومَ وَيُدَخِّنُ وَيَشْرَبُ ٱلْخَمْـرَ مِنْ قَارُورَةٍ يُخْفِيهَا تَحْتَ جُبَّتِهِ ، وَيَتَنَاوَلُ حَشِيشَةَ « التَّكْرُورِي » وَهُوَ لاَ يَتَوَارَى عَنِ الأَنْظَارِ إِلاَّ إِذَا جَاءَ « الطَّاهِر » فَيَتَحَوَّلُ مِنْ تِلْكَ النَّارِ ٱلْموقَدَةِ إِلَى رَمَادٍ وَهَشِيمٍ .

وَفِي وَاقِعِ الأَمْرِ فَإِنَّ « الطَّاهِر » كَانَ يَخْشَى « النَّاصر » وَيَعْرِفُ أَنَّهُ لاَ يَتَوَرَّعُ فِي ارْتِكَابِ أَيَّةِ جَرِيمَةٍ تَخْطُرُ بِبَالِهِ . وَلِهَذَا فَهُوَ يَتَحَاشَاهُ وَيَحْشُرُ كُلَّ ٱلْبَنَاتِ فِي « السَّدَّةِ » ٱلْـمُقَابِلَةِ لَهُ وَيُقْفِلُ ٱلْبَابَ بِالْـمِفْتَاحِ ، وَيُعَلِّقُهُ بِمِسْمَارٍ قَرِيبٍ مِنْهُ . وَإِذَا ٱضْطُرَّ أَحَدٌ إِلَى ٱلْخُرُوجِ بِاللَّيْلِ فَإِنَّ ٱلْبَابَ لاَ يُفْتَحُ إِلاَّ بِصُعُوبَةٍ وَيُحْدِثُ ضَجِيجًا وَجَلَبَةً يَسْتَفِيقُ عَلَى إِثْرِهَا « الطَّاهِر » وَيَرْفَعُ صَوْتَهُ مُنَادِيًا وَيَتَعَرَّفُ إِلَى ٱلْخَارِجِ وَيَنْتَظِرُهُ حَتَّى يَرْجِعَ وَيَأْخُذَ مَكَانَهُ مِنْ جَدِيدٍ .

أَمَّا ٱلْبَابُ الصَّغِيرُ ٱلْـمَوْجُودُ فِي ٱلْـمَخْبَإِ وَٱلْـمُفْضِي إِلَى ٱلْفِنَاءِ فَهُوَ مُقْفَلٌ دَائِماً مِنَ الدَّاخِلِ . وَلاَ تَدْخُلُ « سُكَيْنَة » إِلَى هَذَا ٱلْـمَخْبَإِ إِلاَّ مِنْ مَنْفَذٍ كَائِنٍ بِغُرْفَتِهَا وَهُوَ مُوصَدٌ فِي ٱلْغَالِبِ وَمِفْتَاحُهُ عِنْدَهَا لأَنَّ هَذَا ٱلْمَكَانَ هُوَ مَسْتَوْدَعُ سِرِّهَا فِيهِ حَلْيُهَا وَثِيَابُهَا ٱلْغَالِيَةُ الثَّمَنِ وَأَثَاثُهَا وَبِهِ تَتَسَتَّرُ فِي اللَّيْلِ بَعْدَ أَنْ يُسَرِّحَهَا « الطَّاهِر » مِنَ ٱلْفِرَاشِ ، لِتَطْرِيزِ ثِيَابِ ٱلْعَرَائِسِ .

وَكَانَ « الطَّاهِر » يُحَبِّذُ نَشَاطَ « سُكَيْنَة » فِي ٱلْـمَخْبَإِ بِاللَّيْلِ ، وَيَعْتَبِرُهُ مَوْرِدًا مُهِماً يَبْتَزُّهُ لَـهَا رَغْمَ تَـمَنُّعِهَا وَتَعَلُّلِهَا بِأَنَّ ذَلِكَ مُعَدٌّ لِتَجْهِيزِ إِبْنَتِهَا « فَاطِمَة » وَمَنْ

سَيَأْتِي بَعْدَهَا .

وَلَكِنَّهَا تُضْطَرُّ إِلىَ تَسْلِيمِ أَمْرِهَا لِلّهِ فَتُعْطِيهِ مِنْهُ النَّصِيبَ الَّذِي يُرِيدُهُ وَهْيَ مُبَيِّتَةٌ الْخِدَاعَ وَالتَّحَيُّلَ إِذْ لاَ تَمُرُّ أَيَّامٌ حَتَّى تَسْتَرْجِعَ أَضْعَافَ ذَلِكَ الْمِقْدَارِ بِحِيَلٍ لاَ تَقْدِرُ عَلَيْهَا إِلاَّ هِيَ .

وَتَحَيَّرَ « النَّاصر » مِنَ النُّورِ الْمُنْبَعِثِ مِنْ بَابِ الْمَخْبَإِ إِلىَ الْهَزِيعِ الأَخِيرِ مِنَ اللَّيْلِ ، وَحَاوَلَ أَنْ يَتَبَيَّنَ السِّرَّ فَلَمْ يَتَمَكَّنْ مِنْ رُؤْيَةِ أَيِّ شَيْءٍ مِنَ الشُّقُوقِ الْمَوْجُودَةِ . فَبَيَّتَ الأَمْرَ وَاشْتَرَى نَقَّابَةً صَغِيرَةً وَفِي اللَّيْلَةِ الْمُوَالِيَةِ ثَقَبَ بِدُونِ أَنْ يَفْطِنَ أَحَدٌ ثُقْبَةً كَشَفَتْ عَنْ كُلِّ مَا فِي الْمَخْبَإِ .

لَمْ يَتَصَوَّرْ أَنَّ الْمَخْبَأَ مُهَيَّأٌ بِذَوْقٍ عَلَى تِلْكَ الشَّاكِلَةِ فَأَرْضُهُ مَفْرُوشَةٌ بِجُلُودِ الْخِرْفَانِ الْبَيْضَاءِ النَّاصِعَةِ الَّتِي تَزْدَادُ بَرِيقًا عَلَى ضَوْءِ مِصْبَاحِ الْبِتْرُولِ ، وَعَلَى الْجُدْرَانِ عُلِّقَتْ تُحَفٌ كَثِيرَةٌ مَنْسُوجَةٌ بِالْقَصَبِ أَوْ مَصْنُوعَةٌ مِنَ الْخَشَبِ الرَّفِيعِ ، وَعَلى الْمَرَافِعِ الْمُزَوَّقَةِ بِالأَلْوَانِ الزَّاهِيَةِ وُضِعَتْ آوَانٍ مِنَ الْخَزَفِ مُرَتَّبَةً تَرْتِيبًا يَأْخُذُ بِالأَلْبَابِ . وَشُدَّتْ إِلىَ الْمَشَاذِبِ الْخَشَبِيَّةِ الْجَمِيلَةِ ثِيَابٌ مُطَرَّزَةٌ بِالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ .

أُعْجِبَ « النَّاصر » بِهَذَا الْمَخْدَعِ الشَّبِيهِ بِمَخَادِعِ أَلْفِ لَيْلَةٍ وَلَيْلَةٍ وَلَكِنَّهُ إِنْدَهَشَ عِنْدَمَا رَأَى « سُكَيْلَة » فِي مَبَاذِلِهَا وَشَعْرُهَا مُنْسَدِلٌ وَهْيَ مُنْكَبَّةٌ عَلَى مَنْسَجِهَا تُطَرِّزُ فِي أَنَاةٍ وَتَثَبُّتٍ كَبِيرَيْنِ وَيَغْلِبُهَا التَّعَبُ فَتَضَعُ الْمِنْسَجَ وَتَتَمَدَّدُ فَتَنْكَشِفُ مَفَاتِنُهَا مُشِيرَةً إِلىَ بَقَايَا شَبَابٍ قَادِرَةٍ عَلَى الذَّهَابِ بِالْعُقُولِ .

وَجُنَّ جُنُونُ « النَّاصر » وَهُوَ الْمُتَعَوِّدُ عَلَى الْجُرْأَةِ وَحَتَّى الاغْتِصَابِ ، وَفَكَّرَ فِي طَرْقِ الْبَابِ وَلَكِنَّهُ أَحْجَمَ عَنْ ذَلِكَ ، خَوْفًا مِنَ « الطَّاهِر » وَاعْتِقَادًا مِنْهُ أَنَّ الْمَرْأَةَ لَنْ تَفْتَحَ لَهُ الْبَابَ أَبَدًا ، وَأَنَّهَا قَدْ طَلَّقَتْ حَيَاتَهَا السَّابِقَةَ بِدُونِ رَجْعَةٍ وَصَمَّمَتْ عَلَى أَنْ تَعْكِفَ عَلَى تَرْبِيَّةِ أَبْنَائِهَا ، وَتُكَوِّنَ عَائِلَةً مِنْ جَدِيدٍ تَلْبِيَةً لِرَغْبَةِ « الطَّاهِر » الْمُولَعِ بِالاكْثَارِ مِنَ النَّسْلِ لِلتَّبَاهِي ، وَرِبْحِ الْمِنَحِ الْعَائِلِيَّةِ . وَبَعْدَ هُنَيْهَةٍ قَامَتْ

« سُكَيْلَة » فَكَشَفَتْ عَنْ خَبَايَا أُخْرَى لَمْ يَرَهَا « النَّاصِرِ » ثُمَّ أَخَذَتِ الْـمِصْبَاحَ وَخَرَجَتْ مِنَ ٱلْمَخْبَإِ وَسُمِعَ صَوْتُ ٱلْـمِفْتَـاحِ يَدُورُ فِي ٱلْقُفْـلِ فَنَهَضَ سَاخِطًـا غَاضِبًا .

وَكَانَ « النَّاصر » جَمِيلَ الطَّلْعَةِ كَامِلَ ٱلْجِسْمِ ، قَوِيَّ ٱلْبِنْيَةِ ، يَتَوَهَّمُ أَنَّـهُ لَنْ يُـمْكِنَ لأَيَّةِ اِمْرَأَةٍ أَنْ تَصُدَّهُ عَنْ نَفْسِهَا مَهْمَا كَانَتْ وَأَيًّا كَانَتْ . وَلَـهُ فِي ذَلِكَ حَوَادِثُ عَرَّضَ نَفْسَهُ فِيهَا لِلْمَـوْتِ فِي بَعْضِ الأَحْيَانِ وَالسِّجْـنِ فِي كَثِـيرٍ مِنَ ٱلْـمَرَّاتِ .

صَمَّمَ « النَّاصر » عَلَى إِخْضَاعِ هَذِهِ ٱلْـمَرْأَةِ الَّتِـي تَسَبَّبَـتْ فِي قَهْـرِ وَالِدَتِـهِ وَالاسْتِئْثَارِ بِكُلِّ شَـيْءٍ فِي ٱلْـمَنْزِلِ ، وَجَعَلَتْ مِنْ إِخْوَتِهِ وَأَخَوَاتِـهِ خَدَمًـا لَـهَـا وَلأَبْنَائِهَا : هَؤُلاَءِ لَـهُمْ ٱلْـمَـأْكَلُ الـطَّيِّبُ وَٱلْـمَلْبَسُ ٱلْحَسَـنُ ، وَأُولَئِـكَ نَصِيبُهُـمْ ٱلْفَضَلاَتُ . وَرَغْمَ هَذَا ، فَهِيَ تَتَبَجَّـحُ بِعَدَالَتِهَـا وَبِحُبِّهَـا « لِـزُبَيْدَة » وَلأبْنَائِهَـا وَبَنَاتِهَا : سِيَاسَةٌ فِيهَـا مِنَ الدَّهَـاءِ مَا أَغَـاضَ « النَّـاصِرِ » وَزَادَهُ تَصْـمِيماً عَلَى تَصْمِيمٍ .

وَكَانَتْ « سُكَيْلَة » رَغْمَ سَهَرِهَا ، مُرْغَمَةً عَلَى النُّهُوضِ مُبَكِّرَةً لإِعْدَادِ طَعَـامِ ٱلْفَطُورِ لِزَوْجِهَا وَلَوْ اَضْطُرَّتْ فِيمَـا بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى ٱلْعَـوْدَةِ إِلَى ٱلنَّـوْمِ . فَأَصْبَـحَ « النَّاصر » يَتَرَصَّدُهَا فِي ذَلِكَ ٱلْوَقْتِ فِي ٱلْـمَطْبَخِ مُوهِماً أَنَّـهُ دَاخِـلٌ إِلَى بَيْتِ ٱلْخَلاَءِ ، وَيَقِفُ لَـهَا فِي رُكْنٍ ، وَيَكْشِفُ لَهَا عَنْ عَوْرَتِهِ كَمَا فَعَلَ ذَلِكَ عَمْرُو بْنُ ٱلْعَاصِ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ عِنْدَمَا تَبَارَزَا ، فَلَمَّا خَافَ عَمْرُو بْنُ ٱلْعَاصِ مِنْ ضَرْبَةِ سَيْفِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، كَشَفَ لَهُ عَنْ عَوْرَتِهِ ، فَأَغْضَى عَلِـيٌّ بِبَصَرِهِ ، وَكَفَّ عَنْهُ ، فَوَقَتْ وَاوُ عَمْرٍو هَذَا الدَّاهِيَةَ أَكْثَرَ مِـمَّا حَمَاهُ سَيْفُهُ وَلَوْ أَرَادَ عَلِـيٌّ أَنْ يَجْعَلَهُ مَفْعُولاً بِهِ لأَزَالَ وَاوَهُ وَأَرَاحَهُ مِنَ ٱلْوُجُودِ .

وَلَمْ يَقْنَعْ « النَّاصِرِ » بِـمَا فَعَلَهُ عَمْرُو بْنُ ٱلْعَاصِ لِيَنْتَصِرَ عَلَى عَلِيٍّ وَيُفْلِتَ مِنْ

قَبْضَتِهِ بَلْ كَانَ فِي بَعْضِ الأَحْيَانِ يَتَفَنَّنُ فِي إِطَالَةِ شَيْئِهِ إِلَى أَنْ يَزْرَعَ أَرْضَ ٱلْمَطْبَخِ بِبُذُورِهِ مِمَّا يُرَوِّعُ « سُكَيْلَة » وَيُجْبِرُهَا عَلَى ٱلْخُرُوجِ .

وَيُصَادِفُ أَنْ يَأْتِيَ فِي بَعْضِ ٱلْـمَرَّاتِ « الطَّاهِر » فَيَلْمَحُهُ « النَّاصِر » مِنْ بَعِيدٍ فَيَدْخُلُ بَيْتَ الرَّاحَةِ فَيَتَضَايَقُ مِنْ ذَلِكَ « الطَّاهِر » وَيُعَبِّرُ عَنْ سُخْطِهِ لأَنَّهُ لاَ يُرِيدُ الانْتِظَارَ وَلأَنَّهُ يَتَخَوَّفُ مِنَ « النَّاصِر » وَمِنْ أَعْمَالِهِ الدَّنِيئَةِ .

وَيَكُونُ ذَلِكَ سَبَبًا فِي خِصَامٍ مَعَ « سُكَيْلَة » وَغَضَبٍ عَلَى جَمِيعِ أَفْرَادِ ٱلْعَائِلَةِ . وَلَكِنَّ « النَّاصر » لاَ يَرْعَوِي بَلْ هُوَ مُصَمِّمٌ عَلَى الانْتِقَامِ مِنْ هَذِهِ ٱلْـمَرْأةِ وَمِنَ « الطَّاهِر » .

وَصَادَفَ أَنْ كَانَ ، فِي لَيْلَةٍ مِنَ اللَّيَالِي ٱلْمُظْلِمَةِ ، قَابِعًا فِي رُكْنٍ مِنْ أَرْكَانِ ٱلْفِنَاءِ ، مُتَمَدِّدًا وَإِذَا بِبَابِ ٱلْمَخْبَإِ يُفْتَحُ بِرِفْقٍ وَتَخْرُجُ « سُكَيْلَة » مَلْفُوفَةً بِمِنْدِيلٍ ، وَتَتَّجِهُ نَحْوَ ٱلْمَطْبَخِ وَتَغِيبُ فِيهِ فَيَقُومُ « النَّاصر » بِسُرْعَةٍ وَيَدْخُلُ ٱلْـمَخْبَأَ وَيَخْتَبِىءُ فِي مَكَانٍ لاَ تَرَاهُ عِنْدَ الدُّخُولِ وَيَنْتَظِرُ وَقَلْبُهُ يَدُقُّ دَقَّاتٍ قَوِيَّةً وَأَنْفَاسُهُ مَحْبُوسَةٌ . وَحَسِبَ أَنَّ ٱلْوَقْتَ يَطُولُ وَيَطُولُ أَكْثَرَ مِنَ اللَّيَالِي الَّتِي قَضَاهَا فِي الانْتِظَارِ .

وَإِذَا « بِسُكَيْلَةَ » تَتَسَلَّلُ إِلَى ٱلْـمَخْبَإِ وَتُغْلِقُهُ . فَيَقِفُ لَـهَا « النَّاصِر » فِي جُبَّتِهِ وَيَضَعُ إِصْبَعَهُ عَلَى فَمِهِ وَيُشِيرُ إِلَيْهَا فِي اتِّجَاهِ « الطَّاهِر » النَّائِمِ ثُمَّ يُمَرِّرُ يَدَهُ عَلَى رَقَبَتِهِ مُفْهِماً إِيَّاهَا أَنَّ زَوْجَهَا لَوْ فَطِنَ بِهَذَا الأَمْرِ لَقَتَلَهَا .

وَوَقَفَتْ « سُكَيْلَة » سَاهِمَةً لاَ تَدْرِي مَا تَفْعَلُ حَتَّى عَاجَلَهَا بِضَمَّةٍ وَقُبْلَةٍ لَمْ تَقْوَ عَلَى مُدَافَعَتِهِا . فَتَهَاوَتْ عَلَى الأَرْضِ وَانْسَاقَتْ فِي بَحْرٍ مِنَ الشَّهْوَةِ لَمْ تَعْرِفْهُ مُنْذُ زَمَانٍ حَتَّى أَصَابَهَا شَيءٌ مِنَ ٱلْغَشَيَانِ وَهِيَ حَالَةٌ لاَ تَعْرِفُهَا إِلاَّ مَرَّةً بَعْدَ لأْيٍ عِنْدَمَا تَتَمَلَّكُ بِهَا اللَّذَّةُ إِلَى حَدِّ ٱلْفَنَاء فِيهَا . وَذُعِرَ « النَّاصر » مِنْ حَالِ ٱلْـمَرْأَةِ وَنَظَرَ إِلَى يَدَيْهِ ٱلْمجْرِمَتَيْـنِ ظَانًا أَنَّهُ أَخْمَدَ أَنْفَاسَهَا أَثْنَاءَ طُغْيَانِ اللَّذَّةِ وَحَرَّكَهَا بِشِدَّةٍ فَفَتَحَتْ عَيْنَيْهَا وَضَمَّتْهُ إِلَى صَدْرِهَا فِي ارْتِخَاءٍ مَجْنُونٍ .

وَأَصْبَحَتْ « سُكَيْلَة » مِنْ ذَلِكَ ٱلْوَقْتِ أَسِيرَةَ « النَّاصر » يَتَرَصَّدُهَا فِي اللَّيْلِ أَمَامَ ٱلْـمَخْبَإِ فَتَفْتَحُ لَهُ ٱلْبَابَ كَأَنَّهَا مَسْحُورَةٌ وَتُفْنِي وَقْتَهَا ٱلْـمَرْصُودَ لِلتَّطْرِيزِ فِي عَمَلٍ مِنْ طِرَازٍ آخَرَ.

أَمَّا « عَائِشَة » فَإِنَّهَا زَادَتْ حُبًّا لِسَالِم بِفِقْدَانِ حِكَايَاتِهِ، وَلَمَسَاتِهِ، وَنَظَرَاتِهِ ٱلْحُلْوَةِ. فَيَتَمَلَّكُهَا الأَرَقُ وَتَتَمَلْمَلُ فِي فِرَاشِهَا السَّاعَاتِ الطِّوَالَ، فِي سُكُونِ اللَّيْلِ ٱلْبَهِيمِ. غَيْرَ أَنَّهَا أَصْبَحَتْ تَسْمَعُ فِي اللَّيَالِي الأَخِيرَةِ حَرَكَةً وَأَنْفَاسًا مُتَقَطِّعَةً تَحْتَ ٱلْفِرَاشِ ٱلْوَاقِعِ فَوْقَ ٱلْـمَخْبَإِ. فَدَفَعَهَا ٱلْفُضُولُ إِلَى إِزَاحَةِ ٱلْبِسَاطِ مِنْ نَاحِيَةِ ٱلْجِدَارِ فَظَهَرَتْ لَهَا شُقُوقٌ يَنْبَعِثُ مِنْهَا نُورٌ خَافِتٌ فَانْكَبَّتْ بِإِصْرَارٍ وَإِذَا بِهَا تَلْمَحُ « سُكَيْلَة » وَ«النَّاصِر» عَارِيَيْنِ فِي وَضْعٍ لَمْ تَكُنْ لِتَتَوَقَّعَهُ.

وَخَطَرَ بِبَالِ « عَائِشَة » أَمْرٌ لَمْ تَتَرَوَّ مِنْهُ، وَحَسِبَتْ بِبَرَاءَتِهَا أَنَّهُ سَيُسَهِّلُ عَلَيْهَا الزَّوَاجَ مِنْ « سَالِم » وَيُعَجِّلُ أَيْضًا بِزَوَاجِ « فَاطِمَة » مِنَ « النَّاصر ». فَهِيَ لَمْ تَتَرَدَّدْ سَابِقًا فِي ٱلْقِيَامِ بِدَوْرِ الرَّسُولِ بَيْنَ « فَاطِمَة » وَ« النَّاصر » وَإِضْرَامِ نَارِ الشَّوْقِ فِي صَاحِبَتِهَا. وَأَيْقَظَتْ « فَاطِمَةَ » وَدَلَّتْهَا عَلَى الشُّقُوقِ فَرَأَتْ مَا رَوَّعَهَا وَأَبْكَاهَا وَخَدَّرَ أَعْصَابَهَا. وَسَكَنَتَا تَنْتَظِرَانِ الصَّبَاحَ.

وَمِنَ ٱلْغَدِ، لَمْ تَعْرِفْ « سُكَيْلَة » لِمَاذَا تَقَدَّمَتْ إِلَيْهَا « زُبَيْدَة » فِي الصَّبَاحِ ٱلْبَاكِرِ وَكَلَّمَتْهَا فِي شَأْنِ زَوَاجِ « فَاطِمَة » مِنَ « النَّاصر » وَلَمْ تَعْرِفْ لِمَ خَاطَبَهَا زَوْجُهَا فِي ذَلِكَ ٱلْيَوْمِ قَائِلاً:

ـ السَّهَرُ كَثِيرٌ وَمَحْصُولُ ٱلْـمَالِ قَلِيلٌ. وَأَنْتِ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ تَهْرُبِينَ مِنَ ٱلْفِرَاشِ، وَتَتَعَلَّلِينَ بِإِكْمَالِ قِطْعَةِ كَذَا أَوْ كَذَا مِنَ اللِّبَاسِ وَأَنَا لاَ أَرَى إِنْجَازًا وَلاَ مَالاً. هَلْ يَغْلِبُكَ النَّوْمُ أَمْ مَاذَا؟

وَلَمْ تَعْرِفْ أَيْضًا، لِمَ وَقَفَ فِي وَسَطِ ٱلْفِنَاءِ، مُتَّجِهًا إِلَى ٱلْغُرْفَةِ النَّائِمِ فِيهَا « النَّاصر » وَصَاحَ قَائِلاً:

ـ كَيْفَ ؟ شَابٌ مِثْل هَذَا ٱلْكَلْبِ ، ٱلْكَرَاكِجِي يُفِيقُ بِاللَّيْلِ ، وَيَرْقُدُ بِالنَّهَارِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ بِاسْمِ اللّهِ ، كُلَّمَا قُمْتُ لِقَضَاءِ ٱلْحَاجَةِ أَجِدُهُ يَرُودُ فِي ٱلْفَنَاءِ أَوْ فِي ٱلْمَطْبَخِ ... أُخْرُجْ مِنْ دَارِي ... وَٱذْهَبْ حَيْثُ شِئْتَ فَإِمَّا أَنْ تَجِدَ عَمَلاً أَوْ تَدْخُلَ السِّجْنَ فَنَرْتَاحُ مِنَ الْكَابُوسِ الَّذِي أَدْخَلْتَهُ عَلَى الدَّارِ . مِنَ ٱلْيَوْمِ فَصَاعِدًا لاَ أُرِيدُ أَنْ أَرَى وَجْهَكَ هُنَا .

وَعَزَتْ « سُكَيْلَة » هَذَا الاجْرَاءَ الَّذِي سَيُخَلِّصُهَا هِيَ وَٱبْنَتَهَا مِنْ قَبْضَةِ « النَّاصرِ » إِلَى ٱلْعِنَايَةِ ٱلإِلاَهِيَّةِ وَإِلَى بَرَكَةِ « سِيدِي عَلِي الْمَحْجُوب » رِفْقًا بِهَذِهِ ٱلْعَائِلَةِ وَرِعَايَةً لَهَا .

وَتَنَفَّسَ ٱلْجَمِيعُ الصُّعَدَاءَ إِلاَّ «زُبَيْدَة» . وَذَهَبَ « النَّاصر » إِلَى شَاطِئِ ٱلْبَحْرِ وَٱكْتَرَى دُكَّانًا جَعَلَهُ مَوْرِدًا لِلرِّزْقِ وَمَكَانًا يَأْوِي إِلَيْهِ بِاللَّيْلِ .

* * *

وَرَجَعَتِ ٱلْمِيَاهُ إِلَى مَجَارِيهَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى « عَائِشَة » وَلَكِنَّ « فَاطِمَة » ٱعْتَلَّتْ ، وَلَزِمَتْ ٱلْفِرَاشَ مِنْ دُونِ أَنْ يَعْرِفَ أَحَدٌ عَنْ سَبَبِ مَرَضِهَا إِلاَّ « عَائِشَة » .

وَاسْتَأْنَفَ « سَالم » حِكَايَاتِهِ ، وَجَوْلاَتِهِ إِلَى ٱلْبَحْرِ فِي اللَّيْلِ مَعَ النِّسَاءِ وَاطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ « عَائِشَة » وَأَصْبَحَتْ تَتَوَارَى مَعَهُ إِمَّا تَحْتَ أَشْجَارِ « ٱلْجِنَانِ » أَوْ فِي اللَّيْلِ قُرْبَ ٱلْعَمِّ « صَالِح » عِنْدَمَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ مِنَ النَّوْمِ .

وَكَسَبَتْ بَعْدَ الَّذِي شَاهَدَتْهُ ، وَسَمِعَتْهُ شَيْئًا مِنَ ٱلْجُرْأَةِ وَٱلْفُضُولِ وَامْتَدَّتْ يَدُهَا إِلَى مَغَابِنِ « سَالِم » وَحَذِقَتِ اللُّعْبَةَ وَأَعْجَبَتْهَا ، وَلَمْ تَقْرَأْ حِسَابًا لِعَاقِبَةِ مَا ٱنْسَاقَتْ إِلَيْهِ .

وَفِي قَيْلُولَةٍ مِنَ ٱلْقَيْلُولاَتِ وَقَعَتْ فِيمَا لَمْ تَتَوَقَّعْهُ وَبَكَتْ بُكَاءً مُرًّا ، وَلاَمَتْ « سَالِم » عَلَى تَهَوُّرِهِ ، وَكَتَمَتْ أَمْرَهَا وَحَلَفَتْ أَنْ لاَ يَمَسَّهَا بَعْدَ هَذَا إِلاَّ عِنْدَ الزَّوَاجِ .



بسالم

وَلَكِنْ تَجْرِي الرِّيَاحُ بِمَا لاَ تَشْتَهِي السُّفُنُ إِذْ أَرَادَ « سَالِم » أَنْ يَتَلاَفَى الأَمْرَ فَكَلَّمَ أُمَّهُ فِي الزَّوَاجِ « بِعَائِشَة » فَأَبَتْ رَغْمَ رِضَا « زُبَيْدَة » فَقَرَّرَ الْهَرَبَ بِالتَّطَوُّعِ فِي الْجُنْدِ الْفِرَنْسِيِّ . وَقَلَّتْ أَخْبَارُهُ بَعْدَ ذَلِكَ ، وَحَزِنَتْ « عَائِشَة » حُزْنًا شَدِيدًا وَوَجَدَتْ بِجَانِبِ « فَاطِمَة » وَهِيَ فِي الْفِرَاشِ ، الْمُوَاسَاةَ ، وَالصَّبْرَ .

أَمَّا « الطَّاهِر » فَهُوَ لَمْ يَتَأَسَّفْ عَلَى ذَهَابِ هَذَيْنِ الصُّعْلُوكَيْنِ كَمَا يَقُولُ . وَتَنَفَّسَ الصُّعَدَاءَ وَاعْتَقَدَ أَنَّهُ مَاسِكٌ بِمَقَالِيدِ بَيْتِهِ ، وَلَمْ يَعْرِفْ أَنَّ الْمَاءَ يَجْرِي تَحْتَهُ وَهُوَ غَيْرُ مُتَفَطِّنٍ إِلَى مَا يَقَعُ .

وَجَاءَ الْخَرِيفُ وَرَحَلَ الْجَمِيعُ إِلَى الْقَرْيَةِ ، وَاعْتَلَّتْ « سُكَيْلَة » عِلَّةً طَالَتْ بِهَا وَأَلْزَمَتْهَا الْفِرَاشَ ، وَتَرَكَتْهَا فِي شِبْهِ غَيْبُوبَةٍ فَنَقَلَتْهَا « زُبَيْدَة » إِلَى الْفِرَاشِ الْمُقَابِلِ ، وَأَجْلَتِ الْبَنَاتِ إِلَى بَيْتِهَا ، وَحَشَرَتِ الذُّكُورَ فِي شِبْهِ الْغُرْفَةِ وَنَامَتْ هِيَ بِجِوَارِ « سُكَيْلَة » تَرْعَاهَا وَتُمَرِّضُهَا .

وَوَجَدَ « الطَّاهِر » نَفْسَهُ فِي الْغُرْفَةِ مَعَ « زُبَيْدَة » فَنَسِيَ أَنَّهُ مَنَحَهَا التَّقَاعُدَ الزَّوْجِيَّ الْوُجُوبِيَّ وَالْتَذَّ بِهَا بِعَقْدٍ جَدِيدٍ . وَعَلَى كُلٍّ فَهُوَ السَّيِّدُ الْمُطْلَقُ فِي بَيْتِهِ . فَرَجَعَتْ إِلَى فِرَاشِهِ وَهُوَ يُرَدِّدُ عَلَى مَسْمَعِهَا فِي كُلِّ مَرَّةٍ :

ـ « سُكَيْلَة » لاَ تَشْعُرُ بِشَيْءٍ إِنَّهَا فِي غَيْبُوبَةٍ .

وَيَنَالُ مِنْ « زُبَيْدَة » وَطَرَهُ كَمَا يَشَاءُ . وَقَدْ أَصْبَحَتْ لاَ يَهُمُّهَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ إِذْ هِيَ تَعْتَبِرُ نَفْسَهَا مُنْذُ زَمَانٍ مَتَاعًا ، أَوْ شَيْئًا يَتَصَرَّفُ فِيهِ « الطَّاهِر » مِنْ دُونِ مُشَاوَرَةٍ أَوْ أَخْذِ الرَّأْيِ .

وَفِي الأَثْنَاءِ كَانَ يُسْمَعُ « لِسُكَيْلَة » أَنِينُهَا ، وَكَأَنَّهَا شَاعِرَةٌ بِمَا يَقَعُ حَوْلَهَا وَلَكِنَّهَا لاَ تَقْوَى عَلَى الْحَرَاكِ وَالْكَلاَمِ .

وَبَعْدَ شَهْرَيْنِ أَجْهَضَتْ « سُكَيْلَة » وَبَدَأَتْ تَتَعَافَى . ثُمَّ قَامَتْ وَكَأَنَّهَا الأَفْعَى الْمُتَجَمِّدَةُ بَرْدًا وَانْتَعَشَتْ بِالْحَرَارَةِ ، وَاسْتَرْجَعَتْ كُلَّ مَقَالِيدِ الدَّارِ . وَلَكِنْ

« الطَّاهِر » أصبَحَ بَعْدَ ذَلِكَ يُنَادِي « زُبَيْدَة » : أُمِّي . بَعْدَ أنْ كَانَ يُنَادِيهَا : هَايْ .

لَمْ تُحَدِّثْ « عَائِشَة » لاَ أُمَّهَا وَلاَ « فَاطِمَة » بِمَا وَقَعَ لَهَا ، وَكَتَمَتْ سِرَّهَا فِي صَدْرِهَا وَغَايَةُ أَمَلِهَا أنْ يَنسَاهَا النَّاسُ جَمِيعًا ، وَيَتْرُكَهَا « الخُطَّابُ » بَعِيدَةً عَنْ عُيُونِهِمْ الْمُتَفَحِّصَةِ وَأيْدِيهِمْ الْمُتَلَمِّسَةِ وَألْسِنَتِهِم الْوَاصِفَةِ الْمُتَغَزِّلَةِ .

وَلَكِنْ كَيفَ يُمْكِنُ ذَلِكَ وَالْعَجَائِزُ الزَّائِرَاتُ لاَ يَفْتَأنَ يَظْهَرْنَ مِنْ حِينٍ إِلَىَ آخَرَ ، وَالْحَمَّامُ لاَ تَخْلُو مِنْهُ أُمٌّ تَبْحَثُ عَنْ زَوْجَةٍ لابْنِهَا ، وَلاَ عَجُوزٌ تُفَتِّشُ عَنْ ضَرَّةٍ لِزَوْجَةٍ مَلَّ مِنْهَا بَعْلُهَا .

وَحَدَثَ بِسُرْعَةٍ مَا لَمْ تَتَوَقَّعْهُ « عَائِشَة » إِذْ أعْلَنَ « الطَّاهِر » أنَّهُ « أعْطَى الْكَلِمَة » لِقَرِيبٍ مِنْ أقْرِبَائِهِ فِي الْبِنَاءِ بِابْنَتِهِ . وَزَغْرَدَتْ « زُبَيْدَة » وَأمْسَكَتْ « سُكَيْلَة » .

وَجَاءَتْ أُمُّ « خَالِد » بِالْخُطْبَةِ ، وَفَرِحَ الْجَمِيعُ إِلاَّ « عَائِشَة » حَتَّى « سُكَيْلَة » فَإِنَّهَا اِعْتَقَدَتْ فِي نَفْسِهَا أنَّ ذَلِكَ يُخَفِّفُ عَنِ « الطَّاهِر » حِمْلاً وَيَجْعَلُهَا تَنفَرِدُ شَيْئًا فَشَيْئًا بِالْبَيْتِ هِيَ وَأبْنَاؤُهَا ، أمَّا الآخَرُونَ فَتَتَمَنَّى لَهُمْ الرَّحِيلَ بِأيَّةِ صُورَةٍ كَانَتْ .

وَزَارَ « خَالِد » بَيْتَ « الطَّاهِر » وَتَنَاوَلَ طَعَامَ الْغَدَاءِ فِي « قَبْو » غُرْفَةِ « سُكَيْلَة » وَخَرَجَتْ لَهُ « زُبَيْدَة » شِبْهَ مُلْتَحِفَةٍ وَسَلَّمَتْ عَلَيْهِ ، وَاعْتَكَفَتْ « سُكَيْلَة » يَوْمَهَا فِي الْمَخْبَإِ ، الشَّبِيهِ بِمَخْبَإِ الْمَصِيفِ وَالَّذِي نَقَلَتْ إِلَيْهِ كُلَّ شَيْءٍ لأنَّهُ أعَزُّ مَا تَمْلِكُهُ .

وَأُعْجِبَ الْجَمِيعُ « بِخَالد » : شَابٌّ فِي الثَّلاَثِينَ مِنَ الْعُمُرِ ، طَوِيلُ الْقَامَةِ ، أسْمَرُ اللَّوْنِ ، قَوِيُّ الْبِنْيَةِ ، حَادُّ النَّظَرَاتِ ، طَلِيقُ اللِّسَانِ ، فِي صَوْتِهِ رُجُولَةٌ وَحَزْمٌ .

كَانَ لاَبِسًا بَدْلَةَ الْجُنْدِيَّةِ الرَّسْمِيَّةَ ، الْفَرَنْسِيَّةَ بِرُتْبَةِ وَكِيلٍ ، فَزَادَتْهُ بَهَاءً ، وَجَلاَلاً ، وَكَأنَّهُ كَانَ يُحِسُّ بِإِعْجَابِ النَّاسِ بِهِ ، فَلاَ يَتْرُكُ فُرْصَةً لِيَتَخَايَلَ فِي مَشْيَتِهِ كَالطَّاوُوسِ وَيَقُومُ بِحَرَكَاتٍ فِيهَا شَيْءٌ مِنَ التَّصَنُّعِ .



خالد

وَكَيْفَ لاَ يَكُونُ كَذَلِكَ وَهُوَ الَّذِي خَاضَ اَلْحَرْبَ اَلْعَالَمِيَّةَ الثَّانِيَّةَ ، ثُمَّ عَاشَ فَتْرَةً فِي فَرَنْسَا ، وَعَاشَرَ مِنَ اَلْفَرَنْسِيَّاتِ مَنْ كُنَّ يَرْغَبْنَ فِي الزَّوَاجِ مِنْهُ وَلَكِنَّهُ آثَرَ اَلْبِنَاءَ بِابْنَةِ بِلاَدِهِ .

وَاتَّفَقَ « الطَّاهِر » وَ« خَالِد » عَلَى تَارِيخِ الزَّوَاجِ . وَبَدَأَتِ التَّحْضِيرَاتُ وَاَلْغِنَاءُ وَالرَّقْصُ فِي كُلِّ وَقْتٍ حَتَّى إِذَا كَانَ « الطَّاهِر » مَوْجُودًا فِي اَلْبَيْتِ مَا عَدَا أَوْقَاتَ نَوْمِهِ .

وَدَخَلَتْ « عَائِشَة » فِي « اَلْحِجْبَة » . وَضَعُوهَا فِي اَلْـمَخْبَإِ اَلْـمَوْجُودِ فِي غُرْفَةِ أُمِّهَا . وَتَـمَثَّلَتْ نَفْسَهَا كَالشَّاةِ اَلْـمُكَتَّفَةِ ، اَلْـمَوْعُودَةِ لِلذَّبْحِ ، لَيْسَ لَـهَا إِلاَّ أَنْ تَـمُدَّ رَقَبَتَهَا لِلسِّكِّينِ . وَالسِّكِّينُ فِي هَذِهِ اَلْـمَرَّةِ حَقِيقِيٌّ .

تَذَكَّرَتْ مَا قَصَّتْهُ عَلَيْهَا صَدِيقَتُهَا « زَيْنَب » بَعْدَ زَوَاجِهَا . لَقَدْ شَعَرَتْ نَفْسَ الشُّعُورِ ، وَأَصَابَهَا خَوْفٌ كَبِيرٌ مِنْ هَذَا اَلْوَجْءِ الَّذِي يَتَعَمَّدُهُ الرَّجُلُ لِيُسِيلَ دَمَ اَلْفَتَاةِ فَكَأَنَّهُ قُرْبَانٌ يُقَدَّمُ عَلَى مَعْبَدِ فُحُولَةِ الرَّجُلِ .

وَإِذَا كَانَ هَذَا شُعُورُ اَلْفَتَاةِ اَلْبِكْرِ لَيْلَةَ زَفَافِهَا . فَكَيْفَ يَكُونُ شُعُورُ « عَائِشَة » وَهِيَ اِمْرَأَةٌ مُنْذُ زَمَانٍ : إِنَّهَا تَتَحَسَّسُ السِّكِّينَ عَلَى رَقَبَتِهَا .

دَخَلَتْ « عَائِشَة » اَلْحِجْبَةَ إِذَنْ بَعْدَ أَنْ جَاءَ إِلَيْهَا أَهْلُ اَلْعَرِيسِ وَهُمْ يَحْمِلُونَ مَعَهُمْ فِي اَلْـمَوْسِمِ « اَلْخَيَايِط » وَ« اَلْمَعَاجِر » وَ« الفُوطَاتِ » وَاَلْفَاكِهَةَ وَاَلْخِرْفَانَ وَلَمْ يَنْسَ أَبُوهَا فَبَعَثَ إِلَى دَارِ اَلْعَرُوسِ مِائَتَيْ بَيْضَةٍ وَطُيُورَ الدَّجَاجِ فِي عَاشُورَاءَ .

وَفِي « اَلْحِجْبَة » بَدَأَ إِعْدَادُ « عَائِشَة » لِلزِّفَافِ وَسَلَّمَتْ نَفْسَهَا إِلَى « اَلْحَنَّانَةِ » تُهَيِّئُهَا فِي هَذَا اَلْـمَخْبَإِ ، نِصْفِ اَلْـمُظْلِمِ الَّذِي لاَ يُمْكِنُ لَهَا أَنْ تَرَى مِنْهُ أَيَّ رَجُلٍ مِنَ الرِّجَالِ ، وَلاَ تَأْكُلُ غَيْرَ « اَلْـمُسْتَعْجَلَة » لِيَكْثُرَ لَحْمُهَا وَشَحْمُهَا وَيُصْقَلَ بَدَنُهَا طَلْيًا بِنَوْعٍ مِنَ اَلْعَجِينِ لِتُصْبِحَ بَيْضَاءَ .

اَلْـمُهِمُّ فِي كُلِّ هَذَا هُوَ أَلاَّ تَرَى الشَّمْسَ لِتَكُونَ بَشَرَتُهَا بَيْضَاءَ نَاصِعَةً عَلاَمَةً

عَلَى النِّعْمَةِ وَبُعْدًا مِنْ رَائِحَةِ أَيِّ سَوَادٍ أَوْ سُمْرَةٍ فَاحِمَةٍ تَكُونُ دَلِيلاً عَلَى هَجَانَةِ الأَصْلِ .

وَٱسْتَغْرَبَتْ « عَائِشَة » كُلّ هَذِهِ الطُّقُوس . وَلَكِنَّهَا إِسْتَسْلَمَتْ لَـهَا ، وَلَمْ تَنصَعْ إِلاَّ إِلَى أَمْرٍ وَاحِدٍ وَهُوَ ٱلْبُكَاءُ : يَجِبُ عَلَى ٱلْعَرُوسِ أَنْ تَبْكِيَ فِي « ٱلْجِبْبَةِ » بُكَاءً عَالِيًا ، وَأَنْ تَجْهِشَ بِالْبُكَاءِ . وَلَكِنَّهَا لَمْ تَقْدِرْ عَلَى ذَلِكَ . هِيَ بَكَتْ طَوِيلاً مُنْذُ زَمَانٍ فِي سِرِّهَا ، وَلَمْ تَبْقَ قَادِرَةً عَلَى إِخْرَاجِ دَمْعَةٍ وَاحِدَةٍ . فَكَانَتْ ٱلْـمَرْأَةُ تَقُولُ لَـهَا :

ـ مَا أَقْسَى قَلْبَكِ يَا بُنَيَّتِي . أَلاَ تَخَافِينَ مِثْلَ كُلِّ ٱلْبَنَاتِ ٱلْخُرُوجَ مِنْ مَنْزِلِ أَبِيكِ إِلَى مَنْزِلٍ غَرِيبٍ عَنْكِ .

فَتَقُولُ :

ـ إِنَّنِي سَأَخْرُجُ مِنْ جَحِيمٍ إِلَى جَحِيمٍ .

وَتَسْتَغْرِبُ ٱلْـمَرْأَةُ هَذَا ٱلْكَلاَمَ وَتَسْكُتُ فِي آخِرِ الأَمْرِ .

وَسَمِعَتْ فِي يَوْمٍ مِنَ الأَيَّامِ صَوْتَ الطَّبْلِ أَمَامَ ٱلْمَنْزِلِ فَقِيلَ لَـهَا : إِنَّ أَهْلَ زَوْجِهَا « صَبُّوا » الطَّعَامَ وَجَاءُوا بِجَمَلٍ يَحْمِلُ « ٱلْخَيَايِطَ » وَ « الرَّيحَانَة » وَ « سِلْسِلَةَ ٱلْخِلَّةِ » وَكِيسَيْنِ مِنَ ٱلْقَمْحِ . وَسَمِعَتْ بِأُذْنِهَا هَدِيرَ ٱلْجَمَلِ وَأَفْزَعَهَا صَوْتُهُ وَلَمْ تَعْرِفْ لِمَاذَا ؟

وَيَوْمَ أَنْ جَاءُوا إِلَيْهَا « بِالحِنَّةِ » سَلَّمَتْ يَدَيْهَا ، وَقَدَمَيْهَا إِلَى ٱلْـمَرْأَةِ وَحَوْلَـهَا أَهْلُهَا فَقَطْ وَهِيَ « لَيْلَةُ السَّرْقَة » ثُمَّ حَلَّتْ لَيْلَةُ « الحِنَّةِ الصَّغِيرة » وَغَنَّتْ « ٱلْـمَاشِطَاتُ » مَا شَاءَ لَـهُنَّ .

أَمَّا ٱلحِنَّةُ ٱلْكَبِيرَةُ فَهِيَ أَكْثَرُ مَرَاسِمَ إِذْ تَحُفُّ بِهَا الصَّبَايَا وَفِي أَيْدِيهِنَّ مِصْبَاحٌ يَكُونُ عَلَى مُسْتَوَى الرَّأْسِ وَمِنَ ٱلْغَدِ تَأْتِي « ٱلْـمَاشِطَاتُ » وَيَبْدَأْنَ فِي ٱلْوَشْيِ ثُمَّ بَعْدَ يَوْمٍ يُؤْتَى بِالطَّبَقِ وَ « عَلاَّقَةَ » الْعَفْصِ وَالسَّنَاجِرِ وَ « ٱلْحَدِيدَةِ » فَتَمُدُّ ٱلْعَرُوسُ يَدَهَا وَتَأْخُذُ مِنْهُ مَا أَتَّفَقَ مِنَ السُّكَّرِ وَالزَّبِيبِ وَغَيْرِهِ ثُمَّ تَبْصُقُ سَبْعَ مَرَّاتٍ

وَتُهَيِّءُ نَفْسَهَا إِلَى « السَّنَاجِرِ » وَيَصْحَبُ كُلَّ هَذَا ٱلْغِنَاءُ وَالزَّغَارِيدُ . وَأَعْجَبَتْهَا مِن كُلِّ هَذَا لَيْلَةُ الرَّاحَةِ . وَلَكِنَّهَا كَمَا يَقُولُونَ رَاحَةَ ٱلْـمَوْتِ لأَنَّهَا تَعْتَقِدُ أَنَّهَا هَالِكَةٌ لاَ مَحَالَةَ . وَمَرَّتْ هَذِهِ اللَّيْلَةُ بِسُرْعَةٍ لأَنَّهُ مَا أَنْ طَلَعَ الصَّبَاحُ حَتَّى إِنْطَلَقَتِ الزَّغَارِيدُ وَأَصْوَاتُ « ٱلْعَلاَئِشِ » عَالِيَةً وَأُخْبِرَتْ أَنَّ عَدَدَهَا عَشَرَةٌ . وَٱلْحَالُ أَنَّ ٱلْعَادَةَ تَقْتَضِي أَلاَّ تَزِيدَ عَلَى ٱلْخَمْسَةِ أَوِ السِّتَّةِ وَلاَ تَنْقُصُ عَلَى الأَرْبَعَةِ إِذْ أَقَلُّ مِنْ ذَلِكَ لاَ يَكُونُ إِلاَّ لِغَيْرِ ٱلْبِكْرِ. وَغَابَتْ عَنِ الأَنْظَارِ وَلَـمْ يَبْـقَ فِي السَّاحَـةِ إِلاَّ الصَّبَـايَا يَجْلِسْـنَ وَيَتَصَدَّرْنَ ٱلْحَفْلَ . وَتَبْدَأُ ٱلْعِنَايَةُ بِشَعْرِ ٱلْعَرُوسِ وَتَنْغَمِسُ ٱلْمَرْأَةُ فِي التَّمْشِيطِ ثُمَّ فِي طُقُوسٍ أُخْرَى مِن « حَرْقُوصٍ » وَلِبَاسٍ تَقْلِيدِيٍّ يُـمْكِنُ أَنْ يُعَدَّ حِمْلاً لاَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلاَّ ٱلْجِمَالُ : فَهَذِهِ « ٱلْقَمَايَجُ » « الطَّوَّالِي » وَٱلْفَرْمَلَةُ وَ « ٱلْخَجْلِي » فَوْقَ الرَّأْسِ وَالرَّيْحَانَة فِي الرَّقَبَةِ وَ« التَّلِيلَة » وَٱلْحِلَّة ، وَٱلْفَرَادِي فِي يَدَيْهَا ، ثُمَّ تَأْتِي ٱلْجِلْوَة وَعَيْنٌ مُغْمَضَةٌ وَالأُخْرَى مَفْتُوحَةٌ . وَبَعْدَ ذَلِكَ لاَ تَلْبَثُ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدُ أَقَارِبِهَا وَيَحْمِلُهَا فِي حِضْنِهِ ، وَيَضَعُهَا فِي ٱلْكَرُّوسَةِ الَّتِي تَتَّجِهُ بِهَا إِلَى دَارِ زَوْجِهَا وَيَتَحَرَّكُ مَوْكِبُ ٱلْعَرِيسِ وَهُوَ فِي اللِّبَاسِ التَّقْلِيدِيِّ : عِمَامَةٌ صَفْرَاءُ وَجُبَّةٌ « وَبَدَاعِي » وَبُـرْنُسٌ وَحَوْلَهُ النَّاسُ بِالشُّمُوعِ ٱلْـمُوقَدَةِ يُنْشِدُونَ أُنْشُودَةَ : « حِزْب سِيدِي بِنْ عِيسَى » .

وَوَصَلَ « خَالِد » أَمَامَ غُرْفَتِهِ . وَرَجَعَ أَهْلُ ٱلْعَرُوسِ يُغَنُّونَ فِي الشَّارِعِ وَرَاءَ « الْحِزْب » . وَدَخَلَ ٱلْعَرِيسُ وَصَرَفَ « ٱلْمَاشِطَة » بَعْـدَ إِعْطَائِهَـا أَجْرَهَـا . فَوَجَـدَ « عَائِشَة » شِبْهَ مُغْمَى عَلَيْهَا . وَطَرَقَ أَصْحَابُهُ ٱلْبَـابَ بِعُنْفٍ ، يَنْتَظِـرُونَ مِنْـهُ ٱلْخُرُوجَ لِرَفْعِ ٱلْـمَنْدِيلِ ٱلْـمُلَطَّخِ . وَلَكِنَّ « الطَّاهِر » كَانَ حَذَّرَ ٱلْجَمِيعَ بِـمَـرْأَى وَمَـسْمَعٍ مِنَ النَّاسِ أَنَّهُ لَنْ يُذْعِنَ لِهَذِهِ ٱلْعَادَةِ ٱلْبِدَائِيَّةِ وَأَنَّهُ سَيَخْرُجُ لِلأَصْدِقَاءِ مِنْ دُونَ رَفْعِ « الْـمِنْدِيلِ » .

وَبَعْدَ دَقَائِقَ فُتِحَ ٱلْبَابُ وَأَطَـلَّ « خَالِـد » بَاسِماً ثُمَّ ضَاحِـكًا لأَنَّـهُ أَعْجَبَتْـهُ « عَائِشَة » وَوَجَدَ فِي مَلاَمِحِهَا مَا كَانَ يُؤَمِّلُهُ مِنْ رِقَّةٍ وَذَكَاءٍ وَهُوَ الضَّابِطُ ٱلْـمُتَعَوِّدُ

مَعْرِفَةَ النَّاسِ وَخَاصَّةً النِّسَاءَ .

بَاتَتْ « عَائِشَة » مُتعَبَةً فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ بَعْدَ أَنْ أَعَانَهَا « خَالِد » عَلَى نَزْعِ تِلْكَ الأَثْقَالِ الْـمُحَمَّلَةِ بِهَا مِنْ « قَمَايِج » وَ« طَفطَا » وَأَحْزِمَةٍ وَ« قُوفِيَّةٍ » وَحِلِيٍّ .

وَسَكَنَتْ إِلَيْهِ وَسَكَنَ إِلَيْهَا . وَكَانَ « خَالِد » يَشْعُرُ بِالْعَطْفِ نَحْوَهَا ، وَأَيُّ شُعُورٍ يُـمْكِنُ لَهُ أَنْ يَسْتَيْقِظَ فِيهِ غَيْرُ هَذَا الشُّعُورِ ؟ وَهُوَ الَّذِي لَمْ يَعْرِفْهَا وَلَمْ يَرَهَا قَبْلَ ذَلِكَ . هُوَ أَقْصَى مَا يُمْكِنُ أَنْ يُحِسُّ بِهِ نَحْوَ إِنْسَانٍ غَرِيبٍ عَنْهُ . وَلَكِنَّ الْعَطْفَ هُوَ شُعُورُ الْقَوِيِّ ، تُجَاهَ الضَّعِيفِ ، وَأَيُّ عَلاَقَةٍ أَحْسَنُ لِلْمَرْأَةِ فِي تِلْكَ الظُّرُوفِ مِنْ عَلاَقَةِ الْقَوِيِّ بِالضَّعِيفِ حِينَ يَلِينُ ذَاكَ لِهَذَا .

وَاطْمَأَنَّتْ « عَائِشَة » إِلَى هَذَا الرَّجُلِ لأَنَّهُ لَمْ يُعَامِلْهَا مِثْلَمَا يُعَامِلُ الرَّجُلُ الزَّوْجَةَ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالَةِ . وَقَالَتْ فِي نَفْسِهَا :

ـ الرَّجُلُ عَاشَ فِي فَرَنْسَا وَزَالَتْ عَنْهُ تِلْكَ الْبِدَائِيَّةُ الْـمَوْسُومَةُ بِالْفُحُولَةِ عِنْدَنَا . فَهُوَ فِي هَذَا الْبَابِ مُتَسَامِحٌ ... يَا رَبّ لَوْ أَنَّهُ يَغْفِرُ لِي تِلْكَ الزَّلَّةَ وَيُقِيلُ عَثْرَتِي ...

وَكَانَ خَالِد يَقُولُ فِي نَفْسِهِ :

ـ مِسْكِينَةٌ الْـمَرْأَةُ (وَعَائِشة لَيْسَتْ عِنْدَهُ حَتَّى ذَلِكَ الْوَقْتِ إِلاَّ جِنْسًا فَهِيَ نَكِرَةٌ لَمْ تَدْخُلْ بَعْدُ عَالَمَ الْـمَعْرِفَةِ) ... وَأَيُّ بَرَاءَةٍ فِي هَاتَيْنِ الْعَيْنَيْنِ ، وَأَيُّ عَالَمٍ سَتَدْخُلُهُ وَهِيَ غَيْرُ مُهَيَّأَةٍ مَعْرِفِيًّا لَهُ إِلاَّ خُرَافَاتِ الْعَجَائِزِ وَهَمَسَاتِ الصَّدِيقَاتِ وَكَأَنَّهُ يَقُولُ مَا قَالَهُ أَبُو نُوَاسٍ فِي هَذِهِ الْحَالِ :

وَطَالَبْتُهَا شَيْئًا فَقَالَتْ بِعَبْرَةٍ
أَموت إِذَنْ مِنْهُ ، وَدَمْعَتُهَا تَجْرِي
فَمَازِلْتُ فِي رِفْقٍ وَنَفْسِي تَقُولُ لِي
جُوَيْرِيَةٌ بِكْرٌ ! وَذَا جَزَعُ الْبِكْرِ

وَ« عَائِشَة » تَقُول فِي نَفْسِهَا :

ـ لَوْ يَعْرِفُ الرَّجُلُ مَا عَرَفْتُهُ مَاذَا يَكُونُ رَدُّ فِعْلِهِ ؟ ... وَلَكِنَّهُ سَيَعْرِفُهُ عِنْدَمَا يُبَاشِرُنِي ... هَلْ يَظُنُّ أَنَّ ذَلِكَ مُجَرَّدُ حَادِثٍ وَنَوْعٍ مِنَ الاغْتِصَابِ أَمْ هُوَ الاصْرَارُ ، وَالسِّيرَةُ السَّيِّئَةُ فِي عَائِلَةٍ تَظْهَرُ فِي نَظَرِ النَّاسِ نَظِيفَةً ، مُحْتَرَمَةً وَلَكِنَّهَا فِي ٱلْوَاقِعِ مُنْحَلَّةٌ .

وَكَانَ « خَالِد » فِي مَقَامِ السَّبُعِ ٱلْمُنْقَضِّ عَلَىَ فَرِيسَتِهِ ، وَلَكِنَّهُ يُحَاوِلُ أَنْ يُلَطِّفَ دَوْرَهُ ، وَيُظْهِرَ نَفْسَهُ ذَاكَ ٱلْحَمَلَ ٱلْوَدِيعَ فِي حِضْنِ أُمِّهِ ، وَلَمْ يَفْهَمْ أَنَّ فَرِيسَتَهُ مُتَمَرِّسَةٌ عَلَىَ الصِّرَاعِ وَأَنَّهَا تُرِيدُ أَنْ تَأْكُلَهُ وَتَتَغَلَّبَ عَلَيْهِ لِيَقْبَلَ ٱلْـمُهَادَنَةَ فِي آخِرِ الأَمْرِ .

وَفِي الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ ، جَاءَتِ ٱلْعَائِلَةُ وَخَرَجَ ٱلْعَرِيسُ وَمَعَهُ ٱلْفَاكِهَةُ لِزِيَارَةِ أَهْلِ ٱلْعَرُوسِ الَّذِينَ عَلَيْهِمْ بِإِرْسَالِ قَصْعَةِ « الْكُسْكُسِي » وَلَحْمِ « ٱلْـمِسْلاَنِ » . وَجَلَسَ « خَالد » ٱلْعَرِيسُ فِي « مَقْعَدٍ » يَتَلَقَّى التَّهَانِي يَحُفُّ بِهِ وَزِيرَاهُ . وَعَلِمَ ٱلْجَمِيعُ أَنَّهُ لَمْ يَتِمَّ شَيْءٌ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ .

وَكَانَ « خَالِد » يُسِرُّ إِلَىَ أَصْدِقَائِهِ قَائِلاً :

ـ يَجِبُ أَنْ نَتَخَطَّى هَذِهِ النَّفْسِيَّةَ ٱلْبِدَائِيَّةَ وَلاَ نَعْتَبِرُ ٱلْـمَرْأَةَ مَتَاعًا وَشَيْئًا خَلَقَهُ اللَّهُ لاِرْضَاءِ شَهَوَاتِ الرَّجُلِ وَخِدْمَتِهِ خِدْمَةَ ٱلْعَبِيدِ . إِنَّ ٱلْـمَرْأَةَ لَـهَا كَرَامَتُهَا وَهِيَ إِنْسَانٌ حُرٌّ مِثْلَ الرَّجُلِ يَجِبُ أَنْ تُعَامَلَ مُعَامَلَةَ ٱلْحُرِّ ٱلْكَرِيمِ .

وَلَكِنَّ بَعْضَ أَصْدِقَائِهِ كَانَ يَقُولُ لَهُ :

ـ أَنْتَ غَالِطٌ ... ٱلْـمَرْأَةُ مَرْأَةٌ يَجِبُ أَنْ تُعَامَلَ مُعَامَلَةَ الانْسَانِ النَّاقِصِ فَالنِّسَاءُ نَاقِصَاتُ عَقْلٍ وَدِينٍ كَمَا قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالىَ . وَالرَّجُلُ الرَّجُلُ فَحْلٌ ، وَأَنْتَ يَا « خَالِد » تَعَلَّمْتَ ٱلْمُيُوعَةَ مِنَ ٱلْفَرَنْسِيِّينَ فَأَنْتَ خَارِجٌ عَنَّا .

وَأَبْطَلَ « خَالِد » كُلَّ التَّقَالِيدِ الأُخْرَى فَأَمَرَ زَوْجَتَهُ أَلاَّ تَأْخُذَ عَظْمَ ذِرَاعِ ٱلْخَرُوفِ وَٱلْبَيْضَتَيْـنِ وَتُسَلِّمَهَا لِمَنْ تَشَاءُ وَتَتَنَازَلَ عَنْ إِطْعَامِهِ سَبْعَةَ أَيَّامٍ مِنْ دَارِ ٱلْعَرُوسِ

وَأَمَرَ أُمَّهُ بِإِشْعَالِ النَّارِ وَٱلْقِيَامِ بِالطَّبْخِ فَتَطَيَّرَتْ مِنْ ذَلِكَ وَٱمْتَثَلَتْ صَاغِرَةً أَمَامَ إِلْحَاحِ اِبْنِهَا .

وَلَمَّا رَجَعَ « خَالِد » عِنْدَ ٱلْغَدَاءِ وَاخْتَلَى بِعَائِشَة فِي ٱلْقَيْلُولَةِ تَعَلَّلَتْ بِالتَّعَبِ وَلَكِنَّهَا كَانَتْ تُغَالِبُ نَفْسَهَا أَمَامَ عُنْفِ الشَّهْوَةِ الَّتِي كَادَتْ تَتَغَلَّبُ عَلَيْهَا وَتَتْرُكُهَا لُعْبَةً فِي يَدِ « خَالِد » . وَيَا لَيْتَهَا تَغَلَّبَتْ عَلَى نَفْسِهَا وَهْيَ فِي أَيْدِي « سَالِم » !

لَمْ تَعْرِفْ كَيْفَ تُوَاجِهُ « خَالِد » فِي ذَلِكَ ٱلْيَوْمِ وَاكْتَفَتْ بِالسُّكُوتِ وَٱلْحِشْمَةِ التَّقْلِيدِيَّةِ وَٱلْبَقَاءِ فِي غُرْفَتِهَا بِدَارِ ٱلْجَمَاعَةِ وَصَدِيقَاتُهَا ٱلْمُتَزَوِّجَاتُ يَتَقَاطَرْنَ عَلَيْهَا وَيُلَمِّحْنَ وَيَنْصَحْنَ وَيُهَوِّنَّ عَلَيْهَا ٱلْوَجَاةَ .

وَأَحَسَّتْ بِنَفْسِهَا فِي ذَلِكَ ٱلْيَوْمِ أَنَّهَا سَتَكُونُ ٱلْمَوْجُوءَةَ لاَ مَحَالَةَ . لَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ ٱلْفَتَاةُ مَوْؤُودَةً بِالْمَعْنَى ٱلْقَدِيمِ ٱلْحِسِّيِّ ، وَلَكِنَّهُ كَتَبَ عَلَيْهَا أَنْ تَبْقَى ٱلْمَوْجُوءَةَ . وَلَكِنَّهَا ظَلَّتْ مَوْؤُودَةً مَعْنًى لاَ حِسًّا . فَهْيَ ٱلْمَوْجُوءَةُ ٱلْمَوْؤُودَةُ فِي ٱلْبَيْتِ قَبْرِ ٱلْحَيَاةِ .

أَمَّا « عَائِشَة » فَإِنَّهَا تَيَقَّنَتْ أَنَّهَا سَتَكُونُ ٱلْمَوْؤُودَةَ حِسًّا بَعْدَ أَنْ صَارَتْ مَوْجُوءَةً سِرًّا وَٱلْقَوْمُ يُرِيدُونَ مِنْهَا أَنْ تَكُونَ مَوْجُوءَةً عَلَنًا وَرَسْمِيًّا بِرَفْعِ ٱلْمِنْدِيلِ الأَحْمَرِ ٱلْقَانِي .

وَفِي اللَّيْلَةِ الثَّانِيَةِ لَمَعَ بَرِيقٌ مِنَ الأَمَلِ فِي نَفْسِهَا إِذْ كَانَ « خَالِد » مُتَسَرِّعًا بِفَرْطِ مَا كَبَحَتْ جِمَاحَهُ وَأَذْكَتْ الشَّهْوَةَ فِيهِ بِدُونِ طَائِلٍ فَأَفْرَغَ جُهْدَهُ وَبِسُرْعَةٍ ثُمَّ نَالَهُ الاعْيَاءُ وَالتَّعَبُ بَعْدَ أَيَّامٍ مِنَ ٱلْجَرْيِ وَرَاءَ إِعْدَادِ لَوَازِمِ ٱلْعِرْسِ .

وَمَكَّنَتْهُ « عَائِشَة » مِنْ نَفْسِهَا فِي تِلْكَ الْحَالَةِ فَلَمْ يُقْدِمْ عَلَى شَيْءٍ ، وَلَمْ يَفْطِنْ بِشَيْءٍ وَظَنَّتْ أَنَّهَا قَدْ تَخَطَّتِ العَقَبَةَ وَإِنْ لَمْ يَتَخَطَّهَا هُوَ. وَقَالَتْ فِي نَفْسِهَا :

ـ سَتَكُونُ وَاحِدَةٌ بِوَاحِدَةٍ .

وَفِي ٱلْيَوْمِ الثَّانِي ظَهَرَتْ « عَائِشَة » أَكْثَرَ مَرَحًا وَرَدَّتِ ٱلْمِثْلَ بِالْمِثْلِ إِذْ

لَـمَّحَتْ إِلَى تَعَبِ « خَالِد » . وَبَانَ فِي ذَلِكَ اَلْيَوْم الانْكِسَارُ فِي أَعْيُنِ الأَبِ وَالأُمّ ، وَبَدَأَ الشَّكُّ يَتَطَرَّقُ فِي مَدَى فُحُولَـةِ إِبْنِهِمَا وَلَـكِنَّ السُّـكُوتَ وَالصَّمْـتَ كَانَـا مُسَيْطِرَيْنِ فِي مِثْلِ هَذِهِ اَلْحَالَةِ وَالانْتِظَار مُزْدَوَجٌ .

وَحَسِبَتْ « عَائِشَة » أَنَّهَا انْتَصَرَتْ إِذْ كَانَ الأَهْلُ كُلُّهُمْ يَنْتَظِرُونَ سَلاَمَةَ خَاتِمِهَا وَإِذَا بِهِمْ الآنَ يَنْتَظِرُونَ سَلاَمَةَ رُجُولَةِ خَالِد . يَا لَـحُسْنِ حَظِّهَا !

وَجَاءَتِ اللَّيْلَةُ الثَّالِثَةُ لِتَجْلُوَ كُلَّ شَكٍّ وَانْتِظَارٍ . إِذِ اسْتَجْمَعَ « خَالِد » قُوَاهُ وَنَزَا عَلَى « عَائِشَة » كَمَا يَنْزُو فَحْلُ اَلْبَقَرِ . وَأَحَسَّتْ « عَائِشَة » بِأَلَمٍ لَمْ تَعْرِفْهُ مِنْ قَبْلُ . وَأَحَسَّ « خَالِد » بِالْـمَوْتِ كَمَا لَمْ يَعْرِفْهُ فِي وَاجِهَاتِ « كَسِّينو » وَلَعَلَّهُ أَحَسَّ أَكْثَرَ مِمَّا أَحَسَّ بِهِ أَبُو نُواسٍ عِنْدَمَا قَالَ :

فَلَمَّـا تَوَاصَلْنَـا تَوَسَّطْـتُ لُـجَّةً
غَرِقْتُ بِهَا يَـا قَوْمُ مِنْ لُجَجِ الْبَحْرِ
فَصِحْتُ « أَغِثْنِي يَا غُلاَمُ » فَجَاءَنِي
وَقَدْ زَلَقَتْ رِجلِي وَلَجْلَجْتُ فِي الْغَمْرِ
فَلَوْلاَ صِيَاحِـي بِالغُــلاَمِ وَأَنَّــهُ
تَدَارَكَنِي بِالْحَبْـلِ صِـرْتُ إِلَى القَعْــرِ

وَلَكِنْ خَالِد لَمْ يَصِحْ بِالْغُلاَمِ بَلْ بَكَى بُكَاءً أَسْوَدَ ظَنَّ أَنَّهُ فَقَدَ بِهِ الْبَصَرَ وَصَاحَ بِـ « عَائِشَة » قَائِلاً :

- لِـمَاذَا فَعَلْتِ هَذَا ... مَنْ فَعَلَ بِكِ هَذَا ؟
- سَالِم .
- مَنْ هُوَ سَالِم ؟
- جَاءَتْ بِهِ زَوْجَةُ أَبِي مَعَهَا .
- أَيْنَ هُوَ ؟
- هَرَبَ إِلَى اَلْجُنْدِيَّةِ .

ـ أَلاَ تَشْعُرِينَ بِالْعَارِ الَّذِي لَوَّثْتِ بِهِ عَائِلَتَكِ وَعَائِلَتِي ؟

وَأَخَذَتْ « عَائِشَة » تَسْتَعْطِفُهُ ، وَتُحَاوِلُ أَنْ تَقْتَرِبَ مِنْهُ ، وَتُقَبِّلَهُ ، وَلَكِنَّهُ نَهَضَ وَأَخَذَ يَـمْشِي فِي ٱلْغُرْفَةِ طُولاً وَعَرْضًا وَيَضْرِبُ بِيَدٍ عَلَى أُخْرَى ، ثُمَّ يَصِيحُ :

ـ مَا ٱلْعَمَلُ ؟

كُلُّ ذَلِكَ . وَ« عَائِشة » تَبْكِي بِصَمْتٍ لأَنَّهَا اسْتَفْرَغَتْ دُمُوعَهَا فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ مُنْذُ زَمَانٍ .

وَلَمَّا أَعْيَى الدَّوَرَانُ « خَالِد » وَاسْتَنْفَدَ كُلَّ ٱلْحُلُولِ تَمَدَّدَ عَلَى « بَنْكٍ » فِي رُكْنٍ مِنَ ٱلْغُرْفَةِ وَهْوَ بَيْنَ النَّوْمِ وَٱلْيَقَظَةِ إِلَى الصَّبَاحِ .

وَكَانَتْ « عَائِشَة » تَقُولُ فِي نَفْسِهَا :

ـ حَسِبْتُ أَنَّهُ أَصْبَحَ مِثْلَ الأُورُبِيِّينِ الَّذِينَ يَقُولُونَ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ لاَ يَقْرَؤُونَ حِسَابًا لِـهَذِهِ ٱلْقَضِيَّةِ وَلَكِنَّهُ بَقِيَ مِثْلَ غَيْرِهِ مِنْ رِجَالِنَا الَّذِينَ يَعْتَبِرُونَ ٱلْمَرْأَةَ مَتَاعًا .

وَتَذَكَّرَتْ مَا كَانَ يَقُولُ لَـهَا « سَالِم » وَكَيْفَ هَوَّنَ عَلَيْهَا الأَمْرَ حَتَّى وَقَعَتْ فِيمَا لاَ يَرْضَاهُ النَّاسُ عِنْدَنَا .

وَتَوجَّهَ خَالِدٌ فِي الصَّبَاحِ وَهْوَ وَاجِمٌ ، إِلَى « الطَّاهِر » وَمَنْ تَوَسَّطَ لَهُ فِي هَذِهِ الزِّيجَةِ وَدَخَلُوا ثَلاَثَتُهُمْ غُرْفَةً وَأَغْلَقُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَشَرَعُوا فِي اللَّوْمِ وَالاسْتِغْرَابِ .

قَالَ « خَالِد » :

ـ أَلاَ تَعْرِفُ مَا فَعَلَتْ إِبْنَتُكَ ؟

ـ لاَ ..!

ـ إِنَّهَا لَيْسَتْ بِكْرًا .

ـ هَذَا غَيْرُ صَحِيحٍ ... مَاذَا تَقُولُ أَنْتَ تُرِيدُ أَنْ تُلَوِّثَ عَائِلَتِي بِالْعَارِ .!؟

ـ لَقَدْ أَقَرَّتْ إِبْنَتُكَ بِذَلِكَ وَ« سَالِم » هُوَ صَاحِبُ ٱلْفِعْلَةِ .

ـ سَالِم ...

ـ نعَمْ .

وَلَمْ يَقْدِرْ ٱلْوَسِيطُ وَهْوَ قَرِيبٌ جِدًّا مِنَ ٱلْعَائِلَةِ أَنْ يَنْبُسَ بِكَلِمَةٍ وَوَدَّ لَوْ بَلَعَتْهُ ٱلأَرْضُ وَصَاحَ « الطَّاهِرِ » :

ـ يَا نِسَاءُ ، يَا بَنَاتِ ٱلْكَلْبِ .

وَدَخَلَتْ بِسُرْعَةٍ « سُكَيْلَة » وَ « زُبَيْدَة » وَأَغْلَقَتَا بَابَ ٱلْغُرْفَةِ . وَبَدَأَ « الطَّاهِر » يَسُبُّ وَيَلْعَنُ وَدَخَلَ فِي هَيْعَتِهِ ٱلْـمَعْرُوفَةِ وَلَكِنَّ « خَالد » أَمْسَكَ بِهِ وَقَالَ لَهُ :

ـ هَذَا كُلُّهُ لاَ يُخْرِجُنَا مِنَ ٱلْوَرْطَةِ ... وَيَظْهَرُ أَنَّ كُلَّ ٱلْعَائِلَةِ لَيْسَتْ عَلَى عِلْمٍ وَلِـهَذَا فَإِنِّي سَأَسْكُتُ عَنِ الأَمْرِ وَيَجِبُ أَنْ تَسْكُتُوا ... وَأَنَا سَأَرْجِعُ إِلَى عَمَلِي فِي تُونسَ وَتَبْقَى هِيَ فِي دَارِ أَبِي حَتَّى يَهْدَأَ ٱلْجَوُّ ثُمَّ أُسَرِّحُهَا إِلَيْكُمْ بِسَبَبٍ سَأَعْرِفُ كَيْفَ أَخْتَلِقُهُ .

وَنَهَضَ وَخَرَجَ غَيْرَ مُسَلِّمٍ وَلاَ مُكَلِّمٍ أَحَدًا . وَسَكَتَ « الطَّاهِر » وَأَهْلُهُ وَأَخْفَوْا الأَمْرَ عَنْ بَقِيَّةِ ٱلْعَائِلَةِ .

وَفِي ذَلِكَ ٱلْيَوْمِ رَجَعَ « خَالِد » إِلَى « تُونس » وَلَمْ يَفْطِنْ أَحَدٌ بِشَـيْءٍ لأَنَّهُ جُنْدِيٌّ قَدْ دَعَاهُ ٱلْوَاجِبُ إِلَى مُغَادَرَةِ زَوْجَتِهِ .

وَبَطَلَ « السَّابِعُ » وَمَا يَصْحَبُهُ مِنْ فَطَايِرَ وَخُبْزٍ وَزَيْتٍ وَسُكَّرٍ وَمَقْرُوضٍ ، وَمَا تَلْبَسُهُ ٱلْعَرُوسُ فِي الصَّبَاحِ مِنْ « حَـرَامٍ » أَخْضَرَ وَرِدَاءٍ حَبِّ رُمَّـانٍ وَخَيَّاطِـي خَضْرَاءَ وَشَمْلَةٍ فِي نَفْسِ اللَّوْنِ وَمَا تُكْسَى بِهِ فِي ٱلْعَشِـيِّ مِنْ « حَرَامٍ » حَرِيرٍ وَرَمْيٍ إِلَيْهَا بِالنُّقُودِ .

وَأَوَّلُ مَا حَرَصَ عَلَيْهِ « خَالِد » عِنْدَ دُخُولِهِ الثُّكْنَةَ هُوَ ٱلْبَحْثُ عَنْ « سَالِـم » فَوَجَدَهُ هُنَاكَ فَأَرْسَلَ مَنْ يَأْتِي بِهِ إِلَى مَكْتَبِهِ ، وَكَانَتِ الشَّمْسُ مَائِلَةً إِلَى ٱلْغُرُوبِ .

وَلَمَّا دَخَلَ « سَالِم » سَأَلَهُ « خَالِد » :

ـ مَاذَا فَعَلْتَ مَعَ « عَائِشَة » .

وَطَأْطَأَ « سَالِم » رَأْسَهُ فَأَخَذَ « خَالِد » « كَرَافَاش » وَطَفِقَ يَضْرِبُهُ ضَرْبًا مُبَرِّحًا حَتَّى أَسْقَطَهُ عَلَى الأَرْضِ وَرَفَسَهُ بِأَقْدَامِهِ وَتَرَكَهُ فِي دِمَائِهِ ، وَخَرَجَ وَرَتَّبَ الأَمْرَ بِحَيْثُ دَفَعَ « بِسَالِم » إِلَى حَرْبِ الْـهِنْدِ الصِّينِيَّةِ .

وَلَمْ يَأْتِ الصَّبَاحُ حَتَّـى أَصَـابَ خَالِـدُ شَلَلٌ فِي نِصْفِـهِ الأَيْـمَـنِ ، وَدَخَـلَ الْـمُسْتَشْفَى الْعَسْكَرِيَّ وَلَكِنَّهُ لِصُعُوبَةِ تَطْبِيبِهِ ، آثَرَ الرُّجُوعَ إِلَى الْقَرْيَةِ وَدَخَلَ فِي الأَحْضَانِ وَوُضِعَ فِي الْفِرَاشِ وَهُوَ لاَ يَقْدِرُ عَلَى النُّطْقِ الْجَيِّدِ .

وَبَقِيَتْ « عَائِشَة » تُطَبِّبُ « خَالد » وَأَهْلُهُ يَقُولُونَ أَمَامَهَا بِكُلِّ حِقْدٍ وَنَقْمَةٍ :

ـ جَاءَتِ الْعَرُوسَةُ بِالنَّحْسِ عَلَى اِبْنِنَا الَّذِي كَانَ كَالطَّوْدِ . أَمَّا أَهْلُهَا فَإِنَّهُمْ قَدْ نَسُوهَا ، وَ« خَالِد » لَيْسَ لَهُ مِنْ كَلاَمٍ إِلاَّ أَنْ يَقُولَ بِلِسَانٍ أَلْكَنَ غَيْرِ فَصِيحٍ وَغَيْرِ مَفْهُومٍ :

ـ اللَّهُ يُهْلِكُكِ ... اِبْعُدِي عَنِّي ... يَا قَـ ....

وَلَمْ تَـمْضِ أَيَّامٌ قَلِيلَةٌ حَتَّـى بَدَأَتْ « عَائِشَـة » فِي الْـهَـذَيَانِ ، ثُمَّ الاغْمَاءِ وَتَحْرِيكِ رَأْسِهَا يَمِينًا وَيَسَارًا بِدُونِ انْقِطَاعٍ .

وَرَمَى بِهَا أَهْلُ « خَالِد » فِي بَيْتِ « الطَّاهِر » الَّذِي نَقَلَهَا إِلَى تُونس . وَبَقِيَتْ تُعَالِجُ عِنْدَ طَبِيبٍ نَفْسَانِيٍّ حَتَّى أَفَاقَتْ بَعْدَ أَيَّامٍ ذَاهِلَةً وَكَأَنَّهَا نَسِيَتْ كُلَّ مَا حَلَّ بِهَا حَتَّى أَنَّهَا عِنْدَمَا حَدَّثُوهَا عَنْ وَفَاةِ « خَالد » لَمْ تَتَأَثَّرْ وَكَأَنَّهَا لَمْ تَعْرِفْهُ أَبَدًا .

وَنَقِمَ « الطَّاهِر » عَلَى الْعَائِلَة بِأَكْمَلِهَا كِبَارًا وَصِغَارًا ، وَبَعَثَهُمْ إِلَى دَارِ الْـمَصِيفِ وَاخْتَلَى بِنَفْسِهِ فِي مَنْزِلِهِ وَاتَّخَذَ « بِشْنِينًا » غُلاَمًا يَقُومُ عَلَى شُؤُونِهِ كُلِّهَا وَكَلْبًا سَمَّاهُ « وَنِيس » .

وَأَصْبَحَ لاَ يَرَى أَهْلَهُ إِلاَّ مَرَّةً فِي الأُسْبُوعِ ، وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ مُرَتَّبِهِ إِلاَّ مَا يَعُولُـهُمْ أَمَّا أَمْوَالُهُ فَمَصْرُوفَةٌ لِلْغُلاَمِ وَالْكَلْبِ ، وَلِشَهَوَاتِهِ ، وَلِعَابِرِي السَّبِيلِ مِنَ الْفُقَرَاءِ وَالْـمُعْوِزِينَ .

* * *

وَاسْتَقَرَّتْ « عَائِشة » مَعَ ٱلْعَائِلَة فِي دَارِ ٱلْـمَصِيفِ وَرَجَعَتْ إِلَى الضَّحِكِ كَمَا كَانَتْ فِي عَهْدِ ٱلْغَفْلَةِ وَٱلْفَرَاغِ وَلَكِنْ فِيهِ إِفْرَاطٌ ، وَأَغْرَقَتْ فِي اللَّعِبِ بِمُنَاسَبَةٍ وَبِدُونِ مُنَاسَبَةٍ وَأَسْرَفَتْ فِي ٱلْكَلاَمِ وَفِي ٱلْحِكَايَاتِ ٱلْـمُهَلْهَلَـةِ ٱلْـمَـوَاضِيع ثُمَّ تَأْتِيهَـا فَتَرَاتٌ يَنْحَبِسُ فِيهَا لِسَانُهَا ، وَتَبْقَى سَاهِمَةً تَنْظُرُ بِدُونِ وَعْيٍ كَبِيرٍ .

ثُمَّ اسْتَقَرَّتْ حَالُـهَا وَاعْتَدَلَ مِزَاجُهَا ، إِلاَّ فِي ٱلْقَلِيلِ النَّادِرِ ، عِنْدَمَـا تَضِيقُ نَفْسُهَا فِي حَيَاةِ ٱلْعُزْلَةِ الَّتِي فُرِضَتْ عَلَيْهَا وَعَلَى أَهْلِهَا .

وَفِي يَوْمٍ مِنَ الأَيَّامِ جَاءَهَا « الطَّاهِر » وَقَالَ لَـهَا :

ـ هَذَا جَارُنَا « ٱلْـمُكَتَّز » يُرِيدُ الزَّوَاجَ مِنْكِ . هَلْ تَقْبَلِينَ .

« وَٱلْـمُكَتَّز » يَسْكُنُ غَيْرَ بَعِيدٍ عَنْ دَارِ ٱلْـمَصِيفِ وَهُوَ فَلاَّحٌ يُقِيمُ شِتَاءً وَصَيْفًا فِي مُصْطَافِ الْقَرْيَةِ . قَالَتْ بِدُونِ أَنْ تُفَكِّرَ :

ـ نَعَمْ .

وَزُفَّتْ إِلَى « الْـمُكَتَّز » وَهُوَ شَيْخٌ أَرْمَلُ فِي السَّبْعِينَ . وَظَهَرَتْ لَيْلَةَ الزِّفَافِ جَمِيلَةً جَمَالاً فَائِقًا . وَدَخَلَتْ دَارًا لَيْسَ فِيهَا إِلاَّ غُرْفَةٌ وَمَطْبَخٌ ، وَبَيْتُ رَاحَةٍ ، وَزَرِيبَةٌ فِيهَا ٱلْجَمَلُ وَٱلْحِمَارُ وَالدَّجَاجُ وَالأَرَانِبُ ، وَفِي الطَّرَفِ ٱلْـمُلاَصِقِ زَرِيبَةٌ أُخْرَى وَغُرْفَةٌ وَمَا شَابَهَ ٱلْمَطْبَخَ وَبَيْتُ الرَّاحَةِ . كُلُّ هَذَا يُـمَثِّلُ مَسْكَنَ أَخِي ٱلْعَرِيسِ وَيَحُوطُ بِهَذَا ٱلْبِنَاءِ الْبَسِيطِ حَدَائِقُ وَضَيْعَاتٌ صَغِيرَةٌ وَخَاصَّةً « جِنَانٌ » صَغِيرٌ مُلاَصِقٌ لِلدَّارِ وَبِهِ بَابٌ مِفْتَاحُهُ عِنْدَ « الْـمُكَتَّز » مَا لَبِثَ أَنْ سَلَّمَهُ « لِعَائِشَة » .

وَاسْتَقَرَّتْ فِي هَذِهِ الدَّارِ وَلَكِنَّهَا لاَ تَقُومُ بِأَيِّ عَمَلٍ مِنْ طَبْخٍ « وَحَمْيِ خُبْزٍ » فِي ٱلْفُرْنِ التَّقْلِيدِيِّ وَأَعْمَالٍ فِلاَحِيَّةٍ طَفِيفَةٍ .

لَمْ تَحْذَقْ هُنَاكَ إِلاَّ اللَّعِبَ وَالسُّخْرِيَّةَ بِمَنْ حَوْلَهَا . وَحَتَّى بِزَوْجِهَا الَّذِي كَانَ يُبَالِغُ فِي دَلاَلِـهَا . وَوَجَدَتْ فِي أَبْنَاءِ أَخِي زَوْجِهَا مَنْ يُعِينُهَا ، وَخَاصَّةً « الأَزْهَر » الشَّابُّ

فِي عُنْفُوَانِهِ ، اَلْقَوِيُّ اَلْبِنْيَةِ الَّـذِي لاَ يُحْجِـمُ عَلَى اَلْقِيَامِ بِأَيِّ عَمَـلٍ تَأْمُـرُهُ بِهِ « عَائِشَةَ » .

وَصَارَتْ بَيْنَهُمَا أُلْفَةٌ تَطَوَّرَتْ إِلَى تَلاَزُمٍ . فَعِنْدَمَا تَكُونُ فِي غُرْفَتِهَا يَأْتِيهَا مِنْ نَافِذَةٍ صَغِيرَةٍ فِي قَفَا اَلْغُرْفَةِ حَيْثُ كَانَ اَلْجَمَلُ مَرْبُوطًا ، فَيَبْقَيَانِ السَّاعَاتِ الطِّوَالَ فِي اَلْـمُنَاجَاةِ ، وَاَلْمُدَاعَبَةِ لاَ رَقِيبَ لَهُمَا إِلاَّ اللَّهُ وَاَلْجَمَلُ .

ثُمَّ تَعَوَّدَتْ « عَائِشَة » فَتْحَ « بَابِ اَلْجَنَانِ » وَالذَّهَابَ إِلَى مَكَانٍ تَحْتَ شَجَـرَةِ اَلْكَرْزِ (عَوِينَة) تَسْتَظِلُّ هُنَاكَ . وَإِذَا بِالأَزْهَرِ يَتَخَطَّى اَلْحَوَاجِزَ بَـيْنَ حَدِيقَتِهِـمْ وَحَدِيقَةِ عَمِّهِ بِصُورَةٍ تُعْجِبُ « عَائِشَة » . إِذْ هُوَ يَقْفِزُ قَفْـزَةً عِمْلاَقَـةً مِن فَوْقِ « طَابِيَةِ اَلْـهِنْدِي » وَمَعَهُ كَلْبُهُ الَّذِي اسْتَطَابَ اللُّعْبَةَ خَاصَّةً عِنْدَمَا يُلاَقِـي فِي اَلْجِنَانِ كَلْبَةَ اَلْجَارِ فَتَسْمَعُ زَغْرَدَةً فِي عَوِيلِهِ فِيهَا تَرْحِيبٌ وَشَوْقٌ . وَيَأْتِي الأَزْهَرِ إِلَى « عَائِشَـة » فَتَحْتَضِنُـهُ وَيَبْقَيَانِ السَّاعَـاتِ يَأْكُلاَنِ مِنَ « الْعُوِينَـة » اَلْـمُعَسَّلَـةِ وَيَنْغَمِسَانِ فِي اَلْعُسَيْلَةِ بِاللَّذَّةِ اَلْقُصْوَى بَيْنَمَـا اَلْـمُكَنَّز فِي « دُكَّانٍ » يَلْعَبُ اَلْوَرَقَ شَتَّى اللَّعَبِ مِن « شُكُبَّة » وَ « نُوفِي » وَ « رِبِّـي » وَ « تِرِيسِيتِـي » وَ « لَصَّ حَفِيظ » وَ « دِيسمِينُو » وَغَيْرِهِ .

وَدَامَتِ اَلْحَالُ عَلَى هَذِهِ الشَّاكِلَةِ سَنَوَاتٍ ، وَلَمْ تَعْـرِفْ « عَائِشَـة » مَا عَرَفَتْـهُ الأُمَّهَاتُ مِنْ حَمْـلٍ وَوِلاَدَةٍ ، وَتَـرْبِيَةِ أَوْلاَدٍ . وَزَادَهَـا ذَلِكَ إِمْعَانًـا فِي اللَّـذَّةِ ، وَالشُّرُودِ ، وَاَلْـهِيَاجِ .

وَفِي يَوْمٍ مِنَ الأَيَّامِ وَخِلاَفًا لِعَادَةِ « الأَزْهَر » عِنْدَ وُقُوفِهِ أَمَامَ اَلْكُوَّةِ الصَّغِيرَةِ مُنَاجِيًا « عَائِشَة » حُلَّتْ عُقْدَةُ لِسَانِهِ بِمَا لَمْ يَعْرِفْ أَنَّهُ تَحَدَّثَ بِهِ مِنْ قَبْلُ وَقَـالَ « لِعَائِشَة » :

ـ يَشْهَدُ اللَّهُ عَلَيَّ أَنَّنِي لَمْ تُخَامِرْ ذِهْنِي يَوْمَ رَأَيْتُكِ أَيَّةُ فِكْرَةٍ شَهَوَانِيَّةٍ . إِنَّكِ زَوْجَةُ عَمِّي ، وَلَيْسَ مِنَ اَلْـمَعْقُولِ عِنْدَنَا ، وَلاَ مِنَ الدِّينِ فِي شَيْءٍ أَنْ أَتَرَدَّى مَعَكِ

إلىَ هَذِهِ الدَّرَكَاتِ . إنَّ تقَالِيدَنَا وَعَادَاتِنَا لاَ تُسِيغُ مِثْلَ هَذَا السُّلُوكِ . وَلَكِنَّنِي يَوْمَ رَأَيْتُكِ ، وَعَرَفْتُ مِنَ النَّاسِ قِصَّتَكِ ، شَعَرْتُ بِالْعَطْفِ نَحْوَكِ ، ثُمَّ بِالْحُزْنِ الْعَمِيقِ ، وَسَهِرْتُ اللَّيَالِيَ وَحْدِي لأَسْتَعْرِضَ حَالَكِ ، وَأَسْعَى لأُقَاسِمَكِ هُمُومَكِ : فَتَاةٌ تَرَبَّتْ فِي تُونِس وَعَرَفَتِ الْعِزَّ فِي الْقُصُورِ ثُمَّ تَصِلُ إِلىَ هَذِهِ الْحَالِ ، فَتَتَزَوَّجُ رَجُلاً فِي السَّبْعِينَ أُمِّيًا وَهْيَ عَلىَ هَذِهِ الدَّرَجَةِ مِنَ الْجَمَالِ وَالرِّقَّةِ وَالْمَدَنِيَّةِ .

وَآلَيْتُ عَلىَ نَفْسِي أَنْ أُعِينَكِ عَلىَ هَذِهِ الْحَيَاةِ الضَّنْكَةِ الَّتِي رَمَاكِ فِيهَا وَالِدُكِ . وَلَمْ أَدْرِ كَيْفَ اِنْتَقَلْتُ مِنَ الْعَطْفِ إِلىَ الْحُبِّ ثُمَّ إِلىَ الْفَسَادِ .

اِعْلَمِي يَا حَبِيبَتِي أَنَّنِي الْيَوْمَ أَشَدُّ أَسًى وَحُزْنًا وَكَآبَةً مِمَّا كُنْتُ ، رَغْمَ أَنِّي ظَفِرْتُ بِحُبِّكِ وَأَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ بِجَسَدِكِ . وَلَكِنَّنِي كُنْتُ أَكُونُ أَسْعَدَ ، وَأَكْثَرَ شُعُورًا بِالْكَرَامَةِ ، وَالْمُرُوءَةِ لَوْ صَدَمْتِنِي وَصَدَدْتِنِي عَنْكِ وَاحْتَقَرْتِنِي ، كُنْتُ أَكُونُ شَقِيًّا لاَ مَحَالَةَ لأَنَّنِي لَمْ أَظْفَرْ بِغَايَتِي الْقُصْوَى وَلَكِنَّنِي أَكُونُ سَعِيدًا لأَنَّ صَرْحًا مِنْ نَفْسِي ـ الَّتِي تُرِيدُ أَنْ تَبْقَى وَفِيَّةً لِلتَّقَالِيدِ ـ يَظَلُّ قَائِماً . أَمَّا الآنَ فَسَعَادَتِي تَهَدَّمَتْ لأَنَّنِي خَسِرْتُكِ مَرَّتَيْنِ : مَرَّةً عِنْدَمَا ظَفِرْتُ بِجَسَدِكِ ، وَمَرَّةً لَمَّا انْسَدَّتْ أَمَامِي أَبْوَابُ الزَّوَاجِ مِنْكِ .

نَعَمْ أَنَا فَلاَّحٌ بَسِيطٌ وَلَكِنَّنِي تَعَلَّمْتُ فِي الْمَدْرَسَةِ ، وَقَرَأْتُ وَتَأَمَّلْتُ هَذَا الْكَوْنَ ، وَهَذِهِ الطَّبِيعَةَ وَعَرَفْتُ مِنْهَا أَنَّ لَهَا نَوَامِيسَ عَلَيْهَا تَقُومُ وَتَبْقَى إِلىَ الأَبَدِ . وَكَذَلِكَ حَيَاتُنَا نَحْنُ الْبَشَرَ يَجِبُ أَنْ تَخْضَعَ لِنَوَامِيسَ إِنْ حِدْنَا عَنْهَا فَلِلضَّيَاعِ وَالتَّهَافُتِ .

وَكَانَتْ « عَائِشَة » سَاهِمَةً وَهْيَ تَسْمَعُ مَا لَمْ تَكُنْ تَتَوَقَّعُهُ مِنْ الشَّابِّ الَّذِي كَانَتْ تَعْتَقِدُ أَنَّهُ يَجْرِي وَرَاءَ اللَّذَّةِ فَقَطْ وَانْسَاقَتْ إِلَيْهِ ملْءًا لِفَرَاغِ حَيَاتِهَا ، وَانْتِقَامًا مِنْ جَسَدِهَا وَمِنْ نَفْسِهَا وَمِنَ الْمُجْتَمَعِ وَقَالَتْ لَهُ :

ـ أَنَا لَمْ أَعُدْ إِلاَّ جَسَدًا فَقَطْ لَقَدْ قَتَلُوا فِيَّ كُلَّ إِحْسَاسٍ بِالْكَرَامَةِ وَالْمُرُوءَةِ . فَأَنَا لاَ أَكْذِبُ إِنْ أَنَا قُلْتُ : إِنَّنِي غَيْرُ قَادِرَةٍ عَلىَ أَنْ أُحِبَّكَ . وَهَلْ عَلَّمَنِي هَذَا الْمُجْتَمَعُ

ٱلْحُبَّ ؟ إِنَّهُ لَمْ يُعَلِّمْنِي إِلاَّ السَّفَالَةَ وَاللُّؤْمَ وَٱلْجَرْيَ وَرَاءَ الشَّهَوَاتِ . لَقَدْ قَضَى وَالِدِي عَلَى كُلِّ ٱلْعَائِلَةِ بِتَصَرُّفَاتِهِ وَجَعَلَ ٱلْـمَنْزِلَ جَحِيماً يَسْتَعِرُ بِمَا لاَ تَرَاهُ عَيْنٌ وَانْسَاقَ هُوَ أَيْضًا إِلَى لَذَّاتِهِ .

كُنْتُ فِي الأَوَّلِ عِنْدَمَا مِلْتُ إِلَى « سَالِم » لاَ أَعْرِفُ مِنْ جَحِيمِ هَذِهِ الدُّنْيَا شَيْئًا وَانْسَقْتُ بِدُونِ أَنْ أَشْعُرَ إِلَى ٱلْخَطِيئَةِ لأَنَّهُ لَمْ يُحَدِّثْنِي أَحَدٌ عَماَّ يُمْكِنُ أَنْ يَنْتَظِرَنِي إِنْ زَلَّتْ قَدَمِي بَلْ بَقِيَتْ هَذِهِ ٱلْـمَسَائِلُ مُحَرَّمَةً لاَ نَعْرِفُ مِنْهَا إِلاَّ مَا تَقُصُّهُ ٱلْعَجَائِزُ ، وَيُفْصِحُهُ التَّلْمِيحُ ، وَالاشَارَةُ حَتَّى تَقَعَ ٱلْكَارِثَةُ . أَنَا أَدْنُو مِنَ الْـهُوَّةِ ٱلْـمُهْلِكَةِ شَيْئًا فَشَيْئًا لاَ يُـمْسِكُنِي أَحَدٌ ، حَتَّى هَذِهِ الشِّدَّةُ الظَّاهِرِيَّةُ فِي تَقَالِيدِنَا لاَ تَـمْنَعُ مِنَ الضَّيَاعِ .

وَالآنَ فَإِنَّ مَا مَرَرْتُ بِهِ مِنْ حَالاَتٍ أَثْنَاءَ مَرَضِي ، وَمَا تَلَقَّيْتُهُ مِنَ الأَدْوِيَّةِ جَعَلَ ذِهْنِي كَلِيلاً ، كَدُودًا ، وَعَاطِفَتِي مَفْلُولَةً حَافِيَةً . لَيْسَ مِنْ حَقِيقَةٍ عِنْدِي الآنَ إِلاَّ اللَّذَّةَ وَمَا يَتْبَعُهَا مِنْ أَلَمٍ . فَأَنْتَ يَا « الأَزْهَر » حَقِيقَتِي وَوَاقِعِي وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَخَيَالٌ وَهَبَاءٌ .

وَبَكَى « الأَزْهَر » بِدُمُوعٍ حَارَّةٍ ، وَنَظَرَتْ إِلَيْهِ « عَائِشَة » بِعَيْنَيْنِ وَاسِعَتَـيْنِ ، سَاهِمَتَيْـنِ ، وَأَغْلَقَتِ النَّافِذَةَ وَنَامَتْ .

وَكَانَتْ « عَائِشَة » عِنْدَمَا تَـمَلُّ هَذَا ٱلْعَيْشَ ، تَذْهَبُ إِلَى أُمِّهَا وَتَبْقَى أَيَّامًا فِي دَارِ ٱلْـمَصِيفِ ، وَتَأْتِي أُخْتُهَا « زَيْنَب » ٱلْـمُتَزَوِّجَةُ وَلَـهَا ابْنَةٌ عُمُرُهَا أَرْبَعُ سَنَـوَاتٍ فَتَحْنُو « عَائِشَة » عَلَى هَذِهِ الطِّفْلَةِ وَتَلْعَبُ مَعَهَا وَتُدَلِّلُهَا وَتَقُولُ دَائِماً :

ـ هَلْ تُرِيدِينَ أَنْ تُصْبِحِي إِبْنَتِي ...

وَتَـمُرُّ أَيَّامٌ وَهِيَ بَيْنَ غُرْفَتِهَا وَبَابِ « الْجِنَان » حَتَّى جَاءَتْ لَيْلَةٌ خَرِيفِيَّةٌ خَرَجَ فِيهَا « الْـمُكَنَّز » لِتَمْضِيَةِ السَّهْرَةِ فِي لَعِبِ ٱلْوَرَقِ وَدَلَفَتْ « عَائِشَة » إِلَى « بَاب ٱلْجِنَان » وَكَانَتِ الرِّيحُ تَنْفُخُ نَفْخًا عَنِيفًا وَبَدَأَ ٱلْـمَطَرُ يَنْزِلُ رَذَاذًا ، وَٱلْقَمَرُ يُطِلُّ مِنَ

وَرَاءِ السُّحُبِ مَرَّةً وَيَحْتَجِبُ أُخْرَى .

وَتَمَدَّدَتْ « عَائِشَة » عَلَى الأَرْضِ النَّدِيَّةِ تَحْتَ الشَّجَرَةِ وَانْتَظَرَتِ « الأَزْهَر » فَلَمَحَتْهُ يَأْتِي وَهُوَ يَنْهَرُ بِدُونِ ضَجَّةٍ كَلْبًا يُغَازِلُ كَلْبَةً . فَضَحِكَتْ وَقَامَا إِلَى فِعْلِ الْكِلاَبِ .

وَلَمْ تَخْرُجْ مِنْ « بَابِ الْجِنَان » فِي تِلْكَ اللَّيْلَة إِلاَّ وَقَدْ بَدَأَهَا سُعَالٌ عَنِيفٌ لَمْ تَدْرِ كَيْفَ نَزَلَ عَلَيْهَا فُجَاءَةً بِهَذِهِ الْقُوَّةِ وَالْعُنْفِ .

وَدَخَلَت غُرْفَتَهَا وَتَنَبَّهَتْ وَهِيَ فِي اللِّبَاسِ التَّقْلِيدِيِّ ، إِلَى أَنَّهَا نَسِيَتْ شَمْلَتَهَا فِي « الجِنَانِ » فَأَرَادَتْ الرُّجُوعَ وَلَكِنَّهَا سَمِعَتْ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ صَرْخَةً مُدَوِّيَةً ، آتِيَةً مِنْ وَرَاءِ الْغُرْفَةِ فَجَرَتْ مِثْلَ غَيْرِهَا مِنْ أَهْلِ الدَّارِ وَإِذَا « بِالأَزْهَر » يَتدَلَّى مِنْ فَمِ الْجَمَلِ وَقَدْ عَضَّهُ بِقُوَّةٍ مِنْ يَدِهِ وَرَاحَ يَهُزُّهُ هَزًّا وَيَنْفُضُهُ نَفْضًا .

فَمَا كَانَ مِنَ الْجَمَاعَةِ إِلاَّ أَنْ خَلَّصُوهُ مِنْهُ بِضَرْبِ الْجَمَلِ وَالصِّيَاحِ . وَلَكِنَّ يَدَ « الأَزْهَر » الْيُمْنَى قَدْ دُقَّتْ دَقًّا أَمَّا يَدُهُ الْيُسْرَى فَمَاسِكَةٌ بِشَمْلَةِ « عَائِشَة » .

وَمِنْ تِلْكَ اللَّيْلَةِ مَرِضَتْ « عَائِشَة » بِالسُّلِّ . وَرَجَعَ « الأَزْهَر » مَبْتُورَ الْيَدِ تَائِبًا . وَضَعُفَتْ بِنْيَةُ « عَائِشَة » وَلَمْ يَنْفَعْهَا بَقَاؤُهَا فِي الْمُسْتَشْفَى بَلْ رَجَعَتْ إِلَى الدَّارِ مُسْرِعَةً وَهِيَ تَقُولُ :

- لَمْ يَبْقَ لِي إِلاَّ أَيَّامٌ قَلِيلَةٌ مِنْ حَيَاتِي .

وَكَانَتْ تَقُولُ وَهِيَ تَنْظُرُ إِلَى اِبْنَةِ أُخْتِهَا :

- يَجِبُ أَنْ تَذْهَبِي مَعِي .. لاَ تَبْقَيْ مَعَهُمْ . إِنَّهُمْ أَشْرَارٌ لاَ يُحِبُّونَ الْبِنْتَ فَهِيَ إِمَّا مَوْؤُودَةٌ أَوْ مَوْجُوءَةٌ وَتَصِيحُ « زَيْنَب » وَتَخْتَطِفُ اِبْنَتَهَا مِنْ يَدَيْ « عَائِشَة » وَلَكِنَّ خَالَتَهَا تَأْخُذُهَا بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى حِينِ غِرَّةٍ وَفِي غَفْلَةٍ مِنْ أُمِّهَا وَتُمْعِنُ فِي تَقْبِيلِهَا وَاحْتِضَانِهَا .

وَبَعْدَ أَيَّامٍ وَفِي نَفْسِ الْيَوْمِ مَاتَتْ « عَائِشَة » وَابْنَةُ أُخْتِهَا ، وَجَاءَ نَبَأُ وَفَاةِ « سَالِم » فِي حَرْبِ الْهِنْدِ الصِّينِيَّةِ .

* * *

هَكَذَا مَرَّتْ بِخَاطِرِ « عَلِي » أَثْنَاءَ مَرَاسِمِ جَنَازَةِ « عَائِشَةِ » كُل مَرَاحِلِ حَيَاتِهَا ، وَتَعَجَّبَ كَيْفَ يُمْكِنُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَسْتَعْرِضَ حَيَاةً كَامِلَةً فِي لَمْحَةِ خاطِرٍ ، وَأَنْ يَلُفَّ لَفَّةً وَاحِدَةً أَطْوَارًا مِنَ الْفَرَحِ وَالْحُزْنِ ، وَاللَّذَّةِ وَالْأَلَمِ ، وَالتَّعَبِ وَالرَّاحَةِ ، وَالْفَرَاغِ وَالشُّغْلِ ، وَالْيُسْرِ وَالْعُسْرِ ، وَيَطْوِي فِي غَيْرِ عَنَاءٍ مَا عَانَاهُ غَيْرُهُ السَّنَوَاتِ الطِّوَال ، وَحَمَلَهُ عِبْئًا ثَقِيلًا ، وَنَاءَ بِهِ جَهْدًا وَإِجْهَادًا ؛ كالرُّؤْيَا تَمَامًا ، حُلْمًا يَعِيشُهُ الْإِنْسَانُ وَكَأَنَّهُ فَتْرَةً مِنَ الْعُمْرِ طَوِيلَةً وَهُوَ فِي وَاقِعِ الْيَقْظَةِ لَحْظَةٌ عَابِرَةٌ مِنْ نَوْمَةٍ خَاطِفَةٍ .

فهرس الألفاظ
الواردة باللهجة التونسية

أُبَيِّي : تصغير أَبُو مع ياء النسبة

الألواح : جمع لوحة وهي خشبة يستعملها تلامذة الكُتّاب لكتابة القرآن بالصمغ وتُمحى ثمّ تُطلى بالطفل بعدما يحفظ التلميذ ما كتبه فوقها بالقصبة المبرية .

أهل باسم الله : الجن

الإيالة : كلمة تركية كانت تطلق على البلاد التونسية بصفتها ولاية للخلافة العثمانية .

باب العرش : يعتقد عامة الناس أن هذا الباب موجود في السماء وعندما يفتح للإنسان فطلباته كلها مجابة .

باكيته : العصا الرقيقة الأنيقة المعقفة من مقبضها

البَبُّوش : الحلزون

بداعي : جمع بدعية وهو ما يلبس فوق الصدر متماشيا مع الجبة .

بدعية : جمع .. انظر بداعي

بَرَاوِطِيَّـــهْ : جَمْعُ بَرَاوِطِي وَهُوَ بَائِعُ الخُضَرِ وَالغِلال وغيرِهَا وَسُمِّيَ بِهَذَا الإِسْمِ لأَنَّهُ يَسْتَعْمِلُ لِترْوِيجِ بِضَاعَتِهِ البَرْوِيطَةَ وَهِيَ عَرَبَةٌ ذَاتُ عَجَلَتَيْنِ تُدْفَعُ بِالأَيْدِي وَتُصَفَّفُ فِيهَا الغِلالُ والخضَرُ بِصُورَةٍ أَنِيقَةٍ وَيَتَجَوَّلُ بِهَا صَاحِبُهَا فِي الأَحْيَاءِ وَاصِفاً بِضَاعَتَهُ بِعِبَارَاتٍ وَتَرْدِيدَاتٍ غِنَائِيَّةٍ.

بْسِيسَـــــهْ : عِبَارَةٌ عَنْ دَقِيقٍ مِنَ القَمْحِ أو الشَّعِيرِ مخلوط بِكَثِيرٍ مِنَ التَّوَابِلِ وَالزَّيْتِ يَتَّخِذُهُ خَاصَّةً أَهْلُ السَّاحِلِ مِنَ البِلادِ التُّونِسِيَّةِ كَأَكْلَةٍ فِي الصَّبَاحِ أَوْ كَزَادٍ عِنْدَ السَّفَـــرِ وَهُوَ مَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ بِالسَّوِيقِ

البِشَاكِـــرْ : جَمْعُ بِشْكِيرْ وَهُوَ قِطْعَةٌ مِنْ قُمَاشٍ الصُّوفِ وغيرِهِ يُسْتَعْمَلُ لِتَنْشِيفِ البَدَنِ

البِشْقِيــــي : الالَةُ التِّي يُرَقَّقُ بِهَا التَّكْرُورِي

بِشْنِيـــــنْ : الغُلامُ الذِّي يُتَّخَذُ للشَّهْوَةِ

البَكُّـــوشْ : الابْكَـــمُ

البَلْدِيَّـــــهْ : سُكَّـــانُ العَاصِمَـــهْ

بَلْغَـــــــهْ : حِذَاءٌ بِدُون كَعْبٍ ولعلّه من الفارسية بَابُوجٌ الذي أعطى الكَلِمَةَ الفِرَنْسِيَّةَ بَابُوشْ (Babouche)

بُلُــــــوزَهْ : لِبَاسُ مِنَ القُمَاشِ مشقُوقٌ مِنَ الأَمَامِ على طُولِ الشَّخْصِ وَهُوَ يُشْبِهُ المِعْطَفَ وَلَبَاسٍ

الأطبّاء ولكنّه من قماش غليظ لأنّه يلبس في أوقات العمل في أكثر الأحيان .

البنـــك : الكرسي الكبير من الخشب يجلس عليه عدد كبير من النّاس

تبنـــروري : نوع من القماش المطرّز الذي يستعمل للعمائم

التّحفونـــه : المرأة الجميلة التي تشبه التّحفة

التّخليلـــه : لباس نساء أهل الرّيف

ترمينـــوس : كلمة أجنبيّة تدلّ على نهاية المطاف بالنسبة إلى التّرامواي وهي آخر المحطّة

تريسيتـــي : نوع من ألعاب الورق

تصهمـــم : تظاهر بعدم الفهم

التّكـــروري : نوع من المخدّرات يتّخذ من ورق شجيرة صغيرة يجفّف وهو القنّب الهندي المعروف في المشرق بالحشيشة وكانت سلط الحماية الفرنسية تسمح بإعداده في المعمل الحكومي ويباع بتسعيرة رسميّة مثل السفائر .

التّليلـــه : طوق من ذهب يدور بالرّقبة ويتكوّن من خيوط نظّمت فيها الجواهر وتتدلى في آخر كلّ خيط قطعة ذهبيّة مدوّرة ومرجانة

الجـابيّـــه : البركة

جبّـــة : لباس تونسي يشبه العباءة ولكنّه عريض

الجِلْــــوَهْ : وَقْفَةُ العَرُوسِ لَيْلَةَ زَفَافِهَا وَهِيَ لاَبِسَةٌ اللِّبَاسَ التَّقْلِيدِيَّ وَرَافِعَةٌ يَدَيْهَا فِي مُسْتَوَى أُذُنَيْهَا مَعَ بَسْطِ الكَفَّيْنِ

الجَلِيــــزْ : مُرَبَّعَاتُ خَزَفِيَّةٌ مُلَوَّنَةٌ وَمُزَخْرَفَةٌ تُغَلَّفُ بِهَا الجُدْرَانُ وَحَتَّى الأَرْضِيَّاتُ

جِنَــانْ : حَدِيقَةٌ ـ بُسْتَــانٌ

الحِجْبَـــهْ : الفَتْرَةُ التِّي تَخْتَفِي فِيهَا العَرُوسُ عَنْ أَنظَارِ النَّــاسِ

الحَدِيــدَهْ : سِوَارٌ عَرِيضٌ مِنْ ذَهَبٍ

حْــرَامْ : لِبَاسٌ مِنْ صُوفٍ فِي شَكْلِ لحَافٍ يَلْبَسُهُ أَهْلُ السَّاحِلِ والجَنُوبِ بِصُورَةٍ خَاصَّةٍ وهُوَ غَيْرُ مَخِيطٍ

حْــرَامْ : قِطْعَةُ قُمَاشٍ مِنْ صُوفٍ تَحْتَجِبُ بِهِ المَرْأَةُ

حُكَّــهْ : حُقَّــةٌ

حَمْــيْ : هِيَ العَمَلِيَّةُ الأَخِيرَةُ فِي صُنْعِ الخُبْزِ وتتمثَّل فِي إِلْصَاقِ القُرْصَةِ المَعْجُونَةِ بِجَوَانِبِ الطابُونَةِ الحَامِيَةِ لإِنْضَاجِهَا

الحَنَــايَـــا : جَمْعُ حَنِيَّةٍ وَهِيَ الآثَارُ التِّي بَقِيَتْ مِنَ العَهْدِ الرُّومَانِي وَتَقَعُ بَيْنَ بَارْدُو وَبَابْ سَعْدُونْ

الحَنَّـانَــهْ : التِّي تُهَيِّئُ العَرُوسَ زِينَةً وَلِبَاساً

الحَنَّهْ الصَّغِيرَهْ : اللَّيْلَةُ الأُولى من الحِنَّة وَيُستدعَى فيها بعض الأقاربِ

الحِنَّةْ الكبيرَةْ : حفلٌ يُسْتَدْعَى فِيهِ كُلّ الأقارِبِ والأحبابِ وتُخْتَتَمُ بهِ كلّ حَفلاتِ الحِنَّة السَّابِقَةِ

الحَـــوَانيتْ : جَمْعُ حَانُوت وَهُوَ الدّكّانُ

خَـــامَـــهْ : خِمَـــارٌ

الخَجْلِـــي : نَوْعٌ مِنْ وَسَائِل الزّينَةِ مِنْ ذَهَبٍ تَتَدلى عَلَى الصّدْغَيْنِ

الخَدّامَـــهْ : جَمْعُ خَدّام وَهُوَ العَامِلُ

الخُطّـــابْ : جَمْعُ خَاطِب وَخَاطِبَة وَهْيَ التّي أو الذّي يَتَوَسَّطُ في الـزّوَاج

الخَـــلاّصْ : الذّي يستخلصُ مَعْلُومَ النّقْلِ منَ المُسَافِرِينَ فِي الحَافِلَةِ او التّرَامْوَايْ

الخَـــلالْ : عِبَارَةٌ عَنْ حَدِيدَةٍ مِنْ فِضّةٍ أوْ مفضضَةٍ في شكل دَبُوسٍ مشدُودَةٍ إلى دَائِرَةٍ مِنْ نفْسِ المَعْدَنِ تُشَدّ بِهَا أطْرَافُ المُلاءَةِ فِي مُستوَى الصّدْرِ

الخْيَـــايِـــطْ : جَمْعُ خَيّاطِي : قِطعَةٌ مِنَ الحَرِيرِ تُطَرّزُ بِخُيُوطٍ مِنَ الفِضّةِ مَجلُوّةٍ بالذّهَبِ وَتُلْبَسُ فَوْقَ القُوفِيّةِ

خَيّـــاطِـــي : مفرَد الخيايط

دَارَ الجمَاعَـهْ : حَسْبَ التّقَالِيد فِي البِلادِ التّونِسِيّة يَسْكُنُ المَنْزِلَ الجَدّ وأبْنَاؤُهُ وأحْفَادُهُ وَبِهَذِهِ الصّورَة

يَبْقَى الجَدّ هُوَ المُتَصَرِّفُ فِي كُلّ الأمْلاكِ
وَيَبْقَى أبْنَاؤُهُ وَأحْفَادُهُ مُجْتَمِعِينَ حَوْلَهُ
يُوَزِّعُ عليهِمْ الأعمَالَ سَوَاء كَان فَقِيرًا أوْ غنيًا

دَارْ العجَائِبْ : مَتْحَفُ بَـــارْدُو

دِقْلَـــــــهْ : نَوْعٌ مِنْ التَّمْرِ اختصّتْ بِهِ منطقَةُ الجَرِيدِ فِي الجَنُوبِ التُّونِسِيّ

دِيمِينُـــــو : لُعْبَةٌ مَعْرُوفَةٌ

الرَّبّـــــــي : نَوْعٌ مِنْ ألعَابِ الـوَرَقِ

الرِّتَـــــــاجْ : جُزْءٌ مِنَ البَـــابِ الكَبِيــرِ

زْدَا حَبْ رْمان : قِطْعَةُ قُمَاشٍ لَوْنُهَا أحْمَرُ

الرُّومِـــــــي : كَلِمَةٌ تُطْلَقُ فِي تُونس على كُلّ أجْنَبِي غَيْرِ عَرَبِيٍّ أوْ مُسْلِمٍ وَلَعَلَّهَا كلمَةٌ قَدِيمَةٌ تُطْلَقُ عَلَى الرّوم عِنْدَ دُخُول المُسْلِمِينَ وبقيتْ مُسْتَعْمَلَةً لِغيْرِ المُسلمِينَ وَرَاجَتْ على ألْسُنِ التونِسِيِينَ بِشِدَّةٍ أثْنَاءَ فَتْرَةِ الإستِعْمَار الفرَنسي

الرِّيحَـــانَــهْ : سِلْسِلَةٌ تُلْبَسُ فِي العنق وتَصِلُ الى مسْتوَى الصُّرَّة وتتَكوّنُ مِنْ حَلَقَاتٍ ذَهَبِيَّةٍ كَبِيرَةِ الحَجْمِ

الزِّرِيبَــــــهْ : جُزْءٌ مِنْ فِنَاء الدّارِ الكَبِيرَةِ فِي القُرَى تُحْشَرُ فِيهِ الحَيَوَانَاتُ الأهْلِيَّةُ والطُّيُورُ الدّاجِنَة

زْمَـــــالَــهْ : العِمَامَةُ الكَبِيرَةُ التِّي تُوضَعُ عَلَى الرّأسِ

الزّوَافِـــرِيّــهْ : يَظْهَرُ أنّ الكَلِمَةَ آتِيَةٌ مِنْ اللغة الفَرَنْسِيَّةِ Les ouvriers وَهُمْ العُمَّالُ وَلَكِنَّهَا أصْبَحتْ

تَدُلُّ على كلِّ مَنْ لا خَلاَقَ لَهُمْ وَلاَ لِيَاقَةَ في لِبَاسِهِمْ وَقَوْلِهِمْ

السابع : هُوَ اليَوْم السَّابِع مِنْ الزَّوَاجِ

السانيه : البُسْتَان

سبْنِي : غَلْيُونٌ مُسْتَطِيلٌ رَأْسُه صَغِيرٌ يُسْتَعْمَل في الغالب للتَّكْروري

سِدَّة : فِرَاشٌ مِنْ خَشَبٍ يَكُون قَرِيباً مِنَ السَّقْفِ يَقْتَصِر على لَوْحَةٍ كَبِيرَةٍ لاَ تَعْتَمِد على سِيقَانٍ بَلْ يَدْخُل طَرَفَاهَا بالجِدارَيْنِ المتقابلين وَيُبْنَى عَلَيْهِمَا .

سِدْرِيَّه : لِبَاس يحُوط بالصَّدْرِ

سَرَادِك : جَمْع سَرْدوك وَهُوَ الدِّيك

سَرْدَكَه : صَوْت الدِّيكِ عِنْدَمَا يَصِيحُ

سَرَافَه : سلَّم

السَّفْسَارِي : حِجَاب المَرْأَةِ التُّونِسِيَّةِ

سْقِيفَه : مَدْخَل الدَّارِ – البهو

سَلْسِلَة الخِلَّة : نِصْف دَائِرَةٍ مِنْ ذَهَبٍ تُشَدّ إلى « الخلال » وَتَكُون فِيهَا خُمُسَاتٌ

السّنَاجِر : نَوْع مِنَ المَادَّةِ التي بِفَضْلِهَا تَسْوَدُّ اليَدُ المطليَّة بالحِنَّاءِ

سُورِيَّه : قَمِيص

سيـــــي : مُخْتَصَر سَيِّد وَهِيَ كَلِمَةٌ مُتَدَاوَلَةٌ فِي تُونِسَ

شُكُبَّــــهْ : نَوْعٌ مِنْ أَلعَابِ الـوَرَقِ

الشَّمْلَـــــهْ : القِطْعَـةُ الطَّوِيلَةُ مِنَ القُمَاشِ القَلِيلِ العَرْضِ وَتُسْتَعْمَلُ لِشَدِّ وَسَطِ الإنْسَانِ

شِمْنَكَــــهْ : أَكْلَةٌ شَعْبِيَّةٌ

الشِّيخَـــاتْ : جَمْعُ شِيخَةٍ وَهُوَ مَجْلِسُ الأُنْسِ الذّي ينبسط فيه الإنْسَانُ وَيَسْمَحُ لِنَفْسِهِ بِإغْتِنَامِ كُلِّ اللذَائِذِ .

الشِّيشَــــهْ : النَّــارجيلَة

الشَّيَّــاتَــــهْ : جَمْعُ شَيَّاتْ وَهُوَ الذّي كَانَ يَنْتَصِبُ فِي السَّاحَاتِ وَمِهْنَتُهُ مَسْحُ الأحْذِيَةِ

صب الطعـــام : هو مـا يقدّمُه العريس عندَ الخُطْبَة

صَمَتَـــامَـــهْ : الذّي لا يَفْهَمُ شيئاً فَهُوَ كالحجر الأصَمّ

الصّـــوَارِدْ : جَمْعُ صورْدي وَهُوَ جُزْءٌ مِنَ العِشْرِين جُزْءاً التّي تُكَوِّن الفَرَنْكْ

الصِّنْـــوَهْ : الوَلَد وهي عربيَّةٌ فَصِيحَةٌ مِنَ الصِّنْو أيْ الأوْلاد

الطَّــابُـــونَهْ : فُرْنٌ صَغِيرٌ مِنْ طَفَلٍ يَسْتَعْمِلُهُ القَرَوِيُّونَ وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ بَيْتٍ صَغِيرٍ جِداً شَكْلُهُ شِبْهُ مَخْرُوطٍ لَهُ فُوهَةٌ مِنْ فَوْقٍ يُمَرِّرُ مِنْهَا قُرْصُ العَجِينِ لإلْصَاقِهِ بالجَوَانِبِ الحَامِيَةِ مِـنَ الطَّـابُونَةِ وَلَــهُ فُرْجَــةٌ وَ.

الأسْفَلِ مِنْهَا يُوضَعُ الحَطَبُ وَمَا إليْهِ لِيَشْتَعِلَ وَتَحْمَى بِهِ جَوَانِبُ الطَّابُونَه

طَابِيَةُ الهِنْدِي : هِيَ الشَّجَرَةُ الكَبِيرَةُ مِنَ التِّينِ الهِنْدِيّ وَلَهَا خَاصِيَّةٌ فِي تَشَابُكِهَا تَجْعَلُهَا صَالِحَةً لأنْ تَكُونَ سِيَاجًا كَثِيفاً لا تَنْفَذُ مِنْهُ العِينُ وَمَنِيعا نَظَرًا إلى أنَّ أوْرَاقَ هَذِهِ الشَّجَرَةِ غَزِيرَةُ الأشْوَاكِ وَحَادَّتُهَا وَأنْ ثَمَرَاتِهَا تَحْمِلُ أشْوَاكاً رَقِيقَةً تَنْفَذُ فِي الجِلْدِ بِصُورَةٍ مُكَثَّفَةٍ وَتُحْدِثُ ألماً فِيهِ مُضَايِقَةً كَبِيرَةً

الطُّبْجِيَّه : ثَكْنَةُ المِدْفَعِيَّةِ

الطَّرَّاحُ : هُوَ مَنْ يَنْقُلُ الخُبْزَ المَصْنُوعَ بِالمَنَازِلِ إلى الفُرْنِ

الطَّيَّابْ : هوَ الذي اخْتَصَّ فِي الحَمَّامِ العُمُومِي بتنظِيفِ المُسْتَحِمِّ وَتَمْسِيدِهِ

العَجَارْ : غِطَاءٌ مِنَ القُمَاشِ المَطَرَّزِ تَضَعُهُ النِّسَاءُ فِي الأفْرَاحِ عَلَى رُؤُوسِهِنَّ وَيَنْزِلُ إلى مَا تَحْتَ الأكْتَافِ

العَجَّانِي : إنَاءٌ كَبِيرٌ مِنَ الفَخَّارِ سُمِّيَ بِهَذَا الإسْمِ لأنَّهُ يُعْجَنُ فِيهِ الدَّقِيقُ

العَضْرُوطْ : الجِلْفُ – الصَّعْلُوكُ

العَقْــــص : ثَمَرَةٌ نَبَتِيَّةٌ تَدْخُلُ فِي زِينَةِ العَرُوسِ معَ الحِنَّـاءِ و الحرْقوصِ

العَــلالِيــش : جَمْعُ عَلُّوشٍ وَهُوَ الخَرُوفُ

عَنْكُــوش : رَقَبَةُ الدَّجَــاجِ

عوينــــة : الكَرَزُ

القَــــرَادِي : الأسَـاوِرُ مِنْ ذَهَبٍ

الفَرْمَلَـــــة : قُمَاشٌ مَخْمَلِيٌّ يُلْبَسُ فَوْقَ القَمَجَّةِ وَمُطَرَّزٌ بِخُيُوطٍ مِنَ الفِضَّةِ والعَدَسِ والكَنْتِيلِ (لِبَاسُ المَرْأَةِ)

فَطَــايِــرْ : جَمْعُ فَطِيرِه وَهِيَ أَكلَةٌ شَعْبِيَّةٌ تُونِسِيَّةٌ مِنْ عَجِينٍ مَقْلِيٍّ فِي الزَّيْتِ

الفُنْـــدُقْ : كَلِمَةَ أَصْبَحَتْ فِي تُونِسَ لا تَدُلُّ على النُّزُلِ بَلْ عَلَى المَكَانِ الذِّي يَنْزِلُ بِهِ المُسَافِرُونَ الذِّينَ يَتَّخِذُونَ الكَرِيطَةَ وَسِيلَةَ نَقْلٍ وَهُوَ اصْطَبْلٌ كَبِيرٌ فِيهِ غُرَفٌ صَغِيرَةٌ أَوْ غُرْفَةٌ كَبِيرَةٌ يُقِيمُ بِهَا المُسَافِرُونَ . وَنَظَرًا إلى أَنَّ المَكَانَ يُؤْوِي خَلِيطًا مِنَ النَّاسِ وَلَيسَ فِيهِ المَرَافِقُ المَوْجُودَةُ عَادَةً فِي النُّزُلِ أَصْبَحَتْ كَلِمَةُ فُنْدُقْ مُسْتَهجَنَةً وَدَلِيلاً على الفَوْضَى

الفُــوطَــاتْ : جَمْعُ فُوطَة وهي قِطْعَةٌ مِنَ القُمَاشِ مُلَوَّنَة مِنَ الحَرِيرِ وَغَيْرِهِ تأتزِرُ بِهَا المَرْأَةُ وَهِيَ

جُزْء مِنَ اللِّبَاسِ التُّونِسِيِّ المُسَمَّى فُوطَةَ وَبلُوزَهْ والبلُوزَة هِيَ القِطْعَةُ مِنَ الثِّيابِ مِنْ نَفْسِ القُمَاشْ التِّي تَلْبَسُهَا المَرْأَةُ عَلَى مُسْتَوَى الصَّدْرِ فَوْقَ الفُوطَهْ

قِشْلَـــــهْ : ثَكْنَــةٌ

قَلْصُـــــونْ : لِبَـاسٌ دَاخِلِيّ الكَلِمَةُ مَأْخُودَةٌ مِنَ الفرَنسِيَّةِ

القمايجْ الطوّالي : جَمْعُ قَمَجَّةْ وَهِيَ نَوْعٌ مِنَ العَبَاءَةِ تُلْبَسُ تَحْتَ الرِّدَاءِ الحَرِيرِي وَهْيَ مِنَ القُمَاشِ الأَبْيَضِ تُطَرِّزُ فَتْحَتُهُ بِالحَرِيرِ الأَسْوَدِ وَحَوَاشِيه بِالحَرِيرِ الأَحْمَرِ وَالأَخْضَرِ وَتَصِلُ إِلى الكعبين وَفِي حَاشِيَتِهَا خُيُوطُ حَمْرَاءُ وَخَضْرَاءُ وَصَفْرَاء مِنَ الحَرِيرِ الأَصْلِــي .

القُــوطَـــهْ : نَوْعٌ مِنَ الجُبْنِ الطَّرِيِّ

قُوفِيَّـــهْ : غِطَـاءُ الرَّأْسِ عِنْدَ نِسَاءِ الرِّيفِ وَهْيَ مُطَرِّزَةٌ وَلَعَلَّهَا مُتَأَتِيَةٌ مِنْ كَلِمَةِ كُوفِيَّةٍ .

القَوّاسِـــي : الصَّخْرُ الكَبِيرُ جِـدّاً

كَـاسَـــهْ : نَوْعُ مِنَ القُفَّازِ يُسْتَعْمَلُ فِي الحَمَّامِ للتنظيفِ

كُبَّيطَـــهْ : الشَّرَابَةُ مِنْ الشَّاشِيَّةِ أو الطُّرْبُوشِ

كَـــدْرُونْ : لِبَاسٌ خَشِنٌ يَلْبَسُهُ أَهْلُ السَّاحِلِ فِي البِلادِ التونِسِيَّةِ وَهْوَ عِبَارَةٌ عَنْ عَبَاءَةٍ قَصِيرَةٍ

الكَـــرَارِس : جَمْعُ كَرّوسَة وَهِيَ العَرَبَةُ التّي تَجرّهَا خيُول وَتُسْتَعْمَلُ للسَّفَرِ فِي المَنَاطِق التّي لاَ يَمرّ بهَا قطَار ثُمّ أصْبَحَتْ عِنْدَ رَوَاجِ السيَّارَة ، وَسِيلَةَ نَقْلٍ فِي المُدُن قَبْلَ انْتِشَار استعمَال التّاكسِي بَل إنّ بَعْضَ المُدُن الكُبْرَى حَافظَتْ عَلَيْهَا وَقصَرَتْهَا عَلى السُّيَّاحِ

الكَرَارِطِـــي : الذّي يَقُودُ الكَرّيطَةَ

كَرَافَـــاش : مِـنَ الـفرَنْسيّـة Cravache وَلَعَلّـهَا مِن الفَـارِسيّةِ كَرْبَاج أي نَوْعٌ مِنَ السّيَاطِ

الكَرّاكِجِـــي : الذّي تَعوّدَ الدّخُولَ إلى السّجْنِ (الكرّاكه : السّجْنُ المُضَيّق)

كَرّوسَـــــه : انظُرْ كَرَارِس

الكَرّيطَـــه : وَسِيلَةٌ للنّقْلِ قَدِيمَةٌ جِدًّا مُكَوّنَة من عجلتين كبيرتين يجرهمـا بغل في اكثر الاحيان وتستعمل لنقل البضـائع .

الكُسْـكُسِي : أكلَةٌ مَعْرُوفَةٌ فِي المَغْرِبِ العَرَبِيّ وَتُسَمّى فِي المَشْرِقِ المغْرَبِيّة

كُنْتَـــــرَه : نَوْعٌ مِنَ البَلْغَةِ (الخُفّ)

لَصْ حَفِيظْ : نَوْعٌ مِنَ العَابِ الوَرَق

لَيلَةُ السّرْقه : الليلَةُ التّي تُحَنّي فيهَا العَرُوسُ خُفْيَةً

مَادَلِينَـــــهْ : مَـا يُسَـمَّى فِي المَشْرِقِ بِيُوسف أفَنْدِي وَلِيمُونُ أفَنْدِي

المَاشِطَــــاتْ : هُنَّ النِّسَاءُ اللَّوَاتِي يُكَوِّنَّ الفِرْقَةَ المُوسِيقِيَّةَ فَيُغَنِّينَ وَيملأْنَ الجَوَّ طَرَباً ومَرَحاً

مبســـــــمْ : انبُوبٌ تُوضَعُ فِي فَتْحَةٍ مِنْ فَتْحَتَيهِ السِّيقَارَةُ

المَسْبَـــــطْ : الضَرْبُ الشَّدِيدُ

المُسْتعْجِلَه : أكلَةٌ مِنَ الدَّقِيقِ تُعْطَى للعرُوسِ حَتَّى تَسْمَنَ بسُرْعَةٍ

مَسْكُوكَـــهْ : فَتْحَةُ البَالُوعَةِ

الِمسْــــــلاَنْ : الخَرُوفُ المُهَيَّأ على قَصْعَةِ الكُسْكُسِي

المَطْهَــــــرَةْ : الخَلْوَةُ فِي الحَمَّامِ العُمُومِي للاغْتِسَالِ

المَعَـــــاجِرْ : جَمْعُ مَعجَر

المَعَـــــــد : الخَشَبَةُ التِّي يُعَدّ عَلَيْهَا التَّكْرُورِي

مَقْـــــرُوض : مِنَ الحَلَوِيَّاتِ التُّونِسِيَّةِ المَصْنُوعَةِ مِنَ السَّمِيدِ وَالقِطْعَةُ مِنْهَا عَلَى شَكْلِ مُعيَّن مَحشو بالتَمر وَمُعَسَّل ويُزَيَّنُ وَجْهَا القطعَة مِنْهُ بِأَشْكَال فِيهَا زُخْرُفٌ نَاشِئٌ عَنْ ضَغْطٍ خَفِيفٍ مِنْ قَالَبٍ حُفِرَتْ فِيهِ نَفْسُ الأشْكَالِ

المقصُـــورَة : غرْفَةٌ فِي الحَمَّامِ العُمُومِيِ تُوضَعُ على ذِمَّة عَدَدٍ قَلِيلٍ مِنَ الحُرَفَاء الذِينَ لا يُرِيدُونَ الإخْتِلاَطَ بِعَامَّةِ النَّاسِ وَفِيهَا مَرَافِق أوْفَرُ

المَقْعَـــدُ : غرْفَة فِي مَدْخَلِ كُلّ بَيْتٍ تَقْلِيدِي يتّخذه صَاحِبُ البيتِ لاستِقْبَال أصْحَابِه ولاستِعْمَالِه فِي كلّ مُنَاسَبَة سوَاء فِي الأفرَاحِ أو الأترَاحِ أوْ المَجَالِسِ العَادِيَّةِ ولا يجْلِسُ فِي المَقْعَدِ إلا الرِّجَـالُ

مَلْيَـــةُ : المُلاَءَةُ وهيَ لِبَاسُ النِّسَاءِ القَرَوِيَّاتِ

مِنْدِيـــلْ : قِطْعَةٌ صَغِيرَةٌ مِنَ قُمَاشٍ منَ الصّوف تضَعُهَا المرأةُ الرِّيفِيَّةُ عَلَى رَأسِهَا وتُغَطِّي أكتَافَهَا

النُّـــزُولْ : مِنْ فعل نَزَلَ بالعَسْكَرِ واتخَذَهَا الشّعْبُ التونسي مِنْ مَعْنَى النازلَة التِي تَنْزِلُ عَلَى العَائلَة عِنْدَمَا يُجَنِّدُ الفرَنْسِيُّون ابنَهَا ويَنْقلُونَهُ رأسًا إلى الحَرْبِ وَيَكُونُ دَائِمًا فِي المُقَدِّمَة سوَاءً فِي الحَرْب العالمية الأولى أوْ الثَّانِيَة فَنُزُولُ الابنُ بالجُنْدِيَّة عِبَارَةٌ عَنْ مَوْتِه وَكثِيرًا ما مـا يُقَبَّلُ نَبَأ هَذَا النُّزُول بالعَوِيلِ والبُكَاءِ والنَّدْبِ

الهَبْهَبَـــة : نُبَاحُ الكَلْبِ

الهِلَّـــة : سِلْسِلَة تُلْبَسُ فِي الرّقَبَة وَتَصِلُ إلى أسفَلِ الجِيدِ وتتكوّنُ مِنْ صَفَائحِ ذَهَبِيَّة فِي صُورَةِ الأسْنَانِ يتخلّلُهَا جَوْهَرٌ وَمَرْجَانٌ .

ورْقليـــــــي : مِنْ ورَقلةْ واشتهرَ فريقُ مِنهُمْ بحِذقِ التّمْسيدِ في الحَمّامَاتِ العُمُوميّةِ

الـــوشِـــيْ : تزيينُ الأكُفَ والاصَابعِ بمَادةِ سَوْدَاءَ

الـــوكَالَـــهْ : عِبَارةٌ عَنْ بِنَايَةِ بِهِا غُرَفُ عَديدَةٌ تكترَى للمُسَافرينَ أوْ لمَنْ ليْسَ لَهُ مَنْزِلُ قَار بالعاصِمَةَ ولا قُدْرَةَ لَهُ عَلى اكتِرَاء دَارٍ بأكملِهَا .

انتهى طبع هذا الكتاب
بمطبعة الشركة التونسية لفنون الرسم
20 نهج المنجي سليم ـ تونس
تحت عدد 542 / 82 ـ الايداع القانوني 4 / 82



« عائشة » رواية تحكي قصة فتاة عاشت في خضم من الأحداث القاهرة تتقاذفها أمواج مجتمع متقلب مهزوم، أضاع فيه أفراده كل توازن وراحوا يعبرون هذه الحياة تجرفهم عواصف لا طاقة لهم بها وتحركهم نوازع لا قدرة لهم على السيطرة عليها.

و« عائشة » التي يشدها إلى أشخاص الرواية أكثر من رباط في تنوعه وتلونه تترجم في مأساتها عن منزلة المرأة في ذلك المجتمع.

ولد البشير ابن سلامة في 14 أكتوبر 1931 بباردو وزاول تعلمه بالمدرسة الصادقية ثم بدار المعلمين العليا وهو أستاذ في اللغة والآداب العربية ورئيس تحرير مجلة الفكر التونسية ووزير الشؤون الثقافية بالجمهورية التونسية. وله من المؤلفات :

- اللغة العربية ومشاكل الكتابة (1971)
- الشخصية التونسية : مقوماتها وخصائصها (1974)
- النظرية التاريخية في الكفاح التحريري التونسي (1977)
- قضايا (1977)
- لوحات قصصية (تحت الطبع)
- تاريخ إفريقيا الشمالية (جزآن) تأليف شارل أندري جوليان وترجم بالإشتراك مع محمد مزالي
- المعمرون الفرنسيون وحركة الشباب التونسي تأليف شارل أندري جوليان وترجم بالإشتراك مع محمد مزالي.



الثمن : 1,400 د.ت